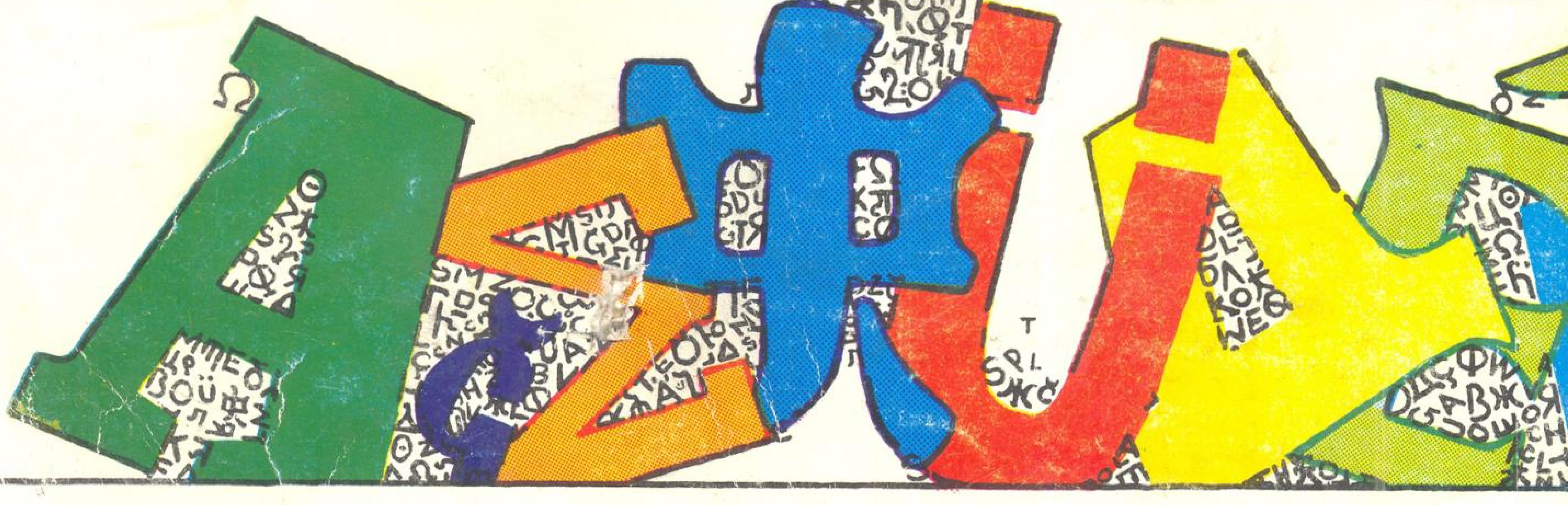
الآداب الأجنبية

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب

العدد ٥٦ السنة الخامسة عشر - صيف ١٩٨٨



الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد ٥٦ السنة الخامسة عشر صيف ١٩٨٨

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

« الآداب الاجنبيـة »

مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة اشهر تعنى بنشر المواد المترجمة من الادب العالمي في مجالات الشعر والقصة والمسرحية وغيرها من صنوف الادب الابداعي وكذلك في مجالات النقد والبحث الادبي .

* توجه جميع المراسلات باسم رئيس التحرير .

* يرجى من الاساتذة الذين يرسلون مواد مترجمة بغية النشر في المجلة ان يرفقوها بالاصل الاجنبي وان يذكروا المرجع بوضوح .

* يرجى من الاساتذة المترجمين عدم التصرف في النصوص والعناية بصحة العبارة العربيـة .

* المواد التي تتلقاها المجلة لا ترد لاصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .

الاشتراك السنوي

داخل القطر ١٠٠ ل.س

الاقطار العربية للافراد ٢٠٠ ل.س أو ١٠ دولارات اميركية

خارج الوطن العربي ٣٠٠ ل.س أو ١٥ دولار اميركي

الدوائر الرسمية داخل القطر ٢٠٠ ليرة سورية

الدوائر الرسمية في الوطن العربي ٣٥٠ ل.س أو ٢٠ دولاراً اميركياً

الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي ٥٠٠ ل.س أو ٢٥ دولاراً اميركيـاً

اعضاء اتحاد الكتاب ٥٠ ل.س

المراسلات

باسم رئيس التحرير

الادارة

اتحاد الكتاب العرب

دمشق ـ اوتستراد المزة

ص . ب ٣٢٣

هـ ٢٤٤٣٢٩

٢٤٤٢٩٩

انطباعات عن الحياة الثقافية في ألمانيا الديمقراطية

لاسيما من خلال المؤتمر العاشر للكتاب الألمان

علي عقلة عرسان

قال توماس مان عام ١٩٥٢ :

« لدي انطباع بان جمهورية المانيا الديمقراطية تبدي الاحترام والتقدير الكبيرين للفكر اذا لم يكن ماديا . » واضيف انها اليوم تفتح صدرها للحرية وتتسع لراي المعارضين وتناقش الفكر المادي » .

زرت المانيا الديمقراطية أكثر من مرة ، واتيحت لي فرصة رؤية شوارع وساحات وأماكن كانت خرابا وأصبحت الآن تعج بالحياة والعمران. كنت من أوائل الذين دخلوا برج برلين ، ومشيت على قسم كان ترابياً بين شارع / انتردن لندن / وقصر الثقافة / في الوقت الذي كان فيه

عمال البلدية يقومون برصف الطريق ، وفي ذلك الجزء من الشارع العريق حضرت في دار للفن هناك عرضا متميزا لاوبرا اسبارتاكوس ، وفي احدى زياراتي وجدت شتات برلين يرتفع في مكان كان بالنسبة لي فارغا أو يكاد.

زرت في المانيا الديمقراطية عدة مدن عدا برلين ، وفي أوقات مختلفة اذكر من تلك المدن : لا يبزغ ـ بوتسدام ـ فايمار ـ دوسدن ـ مكدبيورغ ـ شفيرين ـ وفرانكفورت غوته ، وقرية صغيرة تحمل اسم ذلك المعمل العريق الذي يعرف اسمه كثيرون في العالم / ما يسن / مركز صناعة الخزف الالماني المتميز والذي يعود تاريخه لمئات من سنين . ويبقى في ذاكرتي من المانيا الديمقراطية صور وانطباعات وحالات ذكرى منقوشة بعمق في اعصابي ولا اقول في قلبي . البرلينرانساميل حيث شاهدت عددا لا بأس به من مسرحيات بريخت ، ومسرح النو الياباني للمرة الاولى في حياتي ، وعرضا تربطني به صلة خاصة هو لمسرحية / المأساة المتفائلة / من تأليف الكاتب السوفييتي فشنيفسكي ، تلك المسرحية التي ترجمتها واخرجتها للمسرح القومي ، وكان لي بعد مشاهدة عرضها هناك نقاش مع المخرج والممثلين خلف الكواليس خرجت منه مكللا بباقة كبيرة من الزهور كان قد تلقاها الممثل الاول على الخشبة .

في المتروبوليتان تلقيت خبر حرب تشرين بعد ساعتين من بدئها ، كنت في كواليس المسرح ومعي فرقة فنية (امية) وانا المسؤول عنها ، وكان علي ان اتخذ قرارات صعبة في ظروف صعبة ، وتحولنا الى جنود في جبهة العمل خارج البلاد ، غيرنا برامجنا وطفنا المانيا يرافقنا ضابط سابق في الجرش الالماني هو سيدة حازمة ودقيقة ، ثم طفنا هنغاريا، نرفع صوت الوطن ونادي بالتحرير ، وتحولت لقاءاتنا اينما ذهبنا في المانيا

الى لقاءات تضامنية ، بالمفهوم العام الشامل والفعلي لمعنى التضامن ، وسأذكر دائما قرية المانية متواضعة على الحدود قدم لنا اطفالها ثمرة يوم عمل قضوه في جمع ثمار من الغابات واهدوا قيمتها لشعبنا عن طريق جمعية الصداقة الالمانية ـ السورية . عدد محدود جدا جدا من الماركات لم اعد اذكر الرقم الآن ، ولكن اللفتة ذاتها لا تقدر بثمن . يكفي ان يشعر الاطفال الالمان بعدالة قضيتنا وان يبذلوا جهدا للتضامن معنا . وسوف اتخذ من هذه الحادثة مدخلا لانطباعاتي عن المؤتمر العاشر لاتحاد الكتاب الالمان الذي عقد بين ٢٤ ــ ٢٦ / تشرين الثاني/نوفمبر / ١٩٨٧ في برلين. فأقول ان الثقافة في نهاية المطاف قيم ومعايير اخلاقية وروحية وانسانية، قيّم علم ، وقيم عمل تجعل للحياة معنى ، ولكل جهد يبذل فيها وظيفة تحقيقا لغاية سامية . ليس عبثا خلقنا ، ولا ينبغي أن نعيش عبثاً . فهذه الهدية الثمينة / الحياة / يجب أن نستثمرها جيدا ، ونعيش دقائقها بغنى ، ونجعلها غنية بالنسبة لسوانا ، فهذا نوع من فضل وذكرى نتركها في الارض ، والحياة حين نستثمرها جيدا توفر لنا المتعة ، وللاجيال الفائدة ، وللنوع البشري استمرار البقاء والتطور والتسامي . وفيها نوسع افق المعرفة ، ونمخر / بالوعي المعرفي / عباب المجهول لنكتشف ونجدد رؤانا ونوسعها ، نحلم ، ونعمل لنحقق الأحلام ولتتسع رقعة سيطرة الانسان على المجهول ، ولتزداد قوانين المعرفة العلمية وتغدو في خدمة الحياة والانسان .

ولا أظن أن هناك طموحا اكبر واسمى من ذلك الذي ينشده الادب وترتاد عوالمه الكلمة والنغمة واللون، لتصوغ مستقبلا ورؤية، املا وعملا، يشعران عن سعادة في ظل امن من جوع وخوف ، هما اهم ما يحتاج اليه الكائن الحي .

والكتاب الالمان ، الذين كان لي شرف حضور مؤتمرين من مؤتمراتهم / التاسع والعاشر / كانوا يضعون في مقدمة اهتماماتهم التزامهم / أو التزام الادب / بالسلام والاشتراكية والحياة الحرة الكريمة للافـراد والشعوب والاوطان في عالم يتسع للجميع ويتطلب غنى الثقافـات وتنوعها وتفاعلها من أجل اغناء الحضارة والحياة وجعلها أليق بالانسـان .

فهل هم بذلك يجسدون نداء اعلان الجمهورية الذي ترافقت معـه انطلاقة ثقافية جديدة انسانية ومسؤولة في المانيا ، ام ان الادب أصـلا والتوجه السليم للثقافة عموما هما اللذان أعليا اصلا النداء الذي يقول:

« لقد نشأت في السابع من اكتوبر / تشرين الاول / ١٩٤٩ على الخارطة دولة المانية شعارها والى الابد ، لا الحرب بل صيانة السلام ، ولا الكراهية بل الصداقة بين الشعوب . وهنالك لاول مرة في التاريخ ، دولة المانية ، يعلن شعبنا وبكل سريرة نقية ، وأمام العالم ، مناصرتـه اياها » وسجلا على حدود المانيا الديمقراطيـة شعارا ويقرؤه القـادم والمغادر. « لايجوز ان تنطلق ابدا حرب عالمية جديدة من الارض الالمانية».

ايا كان الامر فالنتيجة الواضحة تشير الى ان الثقافة والعمل السلمي يعتليان العرش في تلك البلاد التي افسدت فيها النازية السلم والثقافة في ايام غير بعيدة ، وهي تسير الآن بتصميم في اتجاه انساني ، وتردد مع بتهوفن وعلى أرضية من ابداعه العظيم « كل البشر سيصبحون اخوانا » .

ولكن هل المانيا الخمسينات هي ذاتها المانيا الثمانينات ؟! وهـل الكتاب الالمان في المؤتمر التاسع ، هم انفسهم في المؤتمر العاشر ؟! كثير من الوجوه رايتها والاسماء سمعتها في المؤتمرين ، واكاد اقول باخلاص :

ان الشخص ذاته ليس بالضرورة هو هو . ولا أعني ذلك التطور الـذي لا بد ان يرافق نمو الشخص والمعرفة والتجربة في الحياة ، فهذا طبيعي ، ولـكن المنـاخ تغير فتـغير الاداء ، وتحـركت في الاعماق كلمات وآراء واعتراضـات .

لقد أثرت تماما رياح غورباتشوف على المناخ الالماني الديمقراطي ، كما اثرت في مناخ سائر البلدان الاشتراكية ، وربما في كثير من البلدان . و « العلنية والديمقراطية وروح التغيير اعادة البناء تتجلى في كثير من المواقف والآراء والكلمات وحتى أكون دقيقا لا بد ان أشير بوضوح الى أن ما لمسته في مؤتمر اتحاد الكتاب السوفييت الاخير وفي لقاءات للكتاب في عهد « العلنية والديمقراطية » كان أكثر وضوحا واعتراضا وجذرية ، واستعملت الحرية في بعض الحالات القليلة استعمالا متطرفا بشيء من العداء المكشوف والمناقضة الصريحة لثوابت فكرية وممارسـات مسلم بسلامتها في العهود السابقة جميعا .

* * *

افتتح المؤتمر (١) الصديق هرمان كانت رئيس الاتحاد بتقرير شامل قدمه بحضور القيادة السياسية العليا للحزب والدولة ، وتابع المسؤولون باهتمام كل ما جرى ، وحضروا الجلسة الاولى بكاملها مصغين للكلمات والمداخلات ، مؤكدين اهمية الكلمة ودورها ، وحرصهم على أن يروا فيما يقال عونا لهم على أداء مهام أوكلها الشعب اليهم . وهذه نقطة ايجابيـة تسجل لهم . وعندما تناول الحوار في احدى الجلسات شؤون البيئـة

---

(١) : برلين ـ تشرين ثاني ١٩٨٧ .

اتى وزير البيئة ليقدم مداخله مفصلة قدمت معلومات افادت واقتعت وفتحت العيون على مستجدات .

لقد كان هرمان كانت على حق حين قال : « نتكلم الآن من برلين المدينة القديمة التي تتجدد ، بأفضل مما تكلمنا في أية مرة سابقة .. اللحظة هي الآن .. والبناء يعلو » . كان على حق فالكلام هذه المرةمختلف، انه يحمل طعم مناخ مغاير لكل مناخ سابق . « في هذه القاعة لن نتكلم فقط عن الفاشية ولكن عن الحرب الباردة ايضا ، ونداقع عن الشعر ونطرح قضايا الكتاب ، ولا بأس في ان نقول ان كتابا مشهورين غادروا الى الجانب الآخر .. نهتم بكل ما يعني الادب ذلك الذي يلعب دورا كبيرا في انسنة الانسان » . كما اشار ستيفان هرملين « بشيء من التصرف » .

ان المناخ الجديد يفرض نفسه ، ورياح التغيير تهب على المانيا الديمقراطية ايضا ، والمناخ الجديد ترسم معالمه السياسة الجديدة التي تجلت هناك في كثير من مظاهر التفكير والتعبير ، وفي الممارسة الديمقراطية العلنية .. انه المناخ الذي لا يمكن تجاوز معطيات واقعية بدأ يضعها في الحسبان بشكل مسموع ، والذي حدد ايريش هونيكر الامين العام للحزب رئيس الدولة بعض معالمه حين قال : « لا يو جد بديل مقبول عن التعايش السلمي بين دول ذات انظمة اجتماعية متباينة ، ويستنتج من ذلك انه ينبغي استبدال المجابهة بتعاون قائم على قاعدة عريضة . وهذا ما ينطبق ايضا على العلاقات مع جمهورية المانيا الاتحادية . ونحن على يقين من انه على طريق كهذه فقط ، يتم بناء الدار المشتركة : « أوربا » . دار سلمية لجيرة حسنة بين دول اشتراكية وراسمالية (...) دار لا تشكل فيها المجابهة ، بل التعاون بين دول ذات انظمة اجتماعية متباينة ، القانون

الاساسي لنهج كل بلد ولقيادة كل حزب ودولة » ـ هونيكر في ٨٧/١٢/١٦ وهذا المنطق يحل محل منطق آخر تجاوزته المعطيات المعاصرة ، ويشكل مدخلا اكثر واقعية في السياسة الدولية ، وفي العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الدول والشعوب ، والثقافات ، فكيف بين دول شعب وثقافة .

وسوف أقتصر على اشارات بسيطة الى مشكلات رأيتها أكثر من سواها جديرة بالاهتمام ، لاجتهاد مني أو لانطباع ما بقي لدي ، لا شك في أن له ما يبرره . وما سأشير اليه مما ورد في التقرير او المداخلات أو في توصيات اللجان سأجمله في فقرات تسهيلا للعرض . وقبل الدخول في ذلك أود أن أذكر الارقام والوقائع البسيطة التالية :

ـ شارك في المؤتمر العاشر لاتحاد الكتاب الالمان / ٢٨٠ / مندوبا عن الكتاب في الالمانيا الديمقراطية مثل كل منهم ما بين ١٥ ـ ٢٠ كاتبا .

ـ نسبة الرجال الى النساء بين المندوبين ٣ر٨٠ ٪ .

ـ معظم المشاركين من برلين /١٤٠/ مندوبا ، وهذا يشكل اعتراضا وديا من قبل بقية الاقاليم ـ الا أن شكوى الاقاليم تأتي من أمور غير ذلك.

ـ بين المندوبين ٧٠ كاتبا من غير الحزبيين أما البقية فهم من الاحزاب المشتركة في الحكم .

ـ تم توسيع مجلس الاتحاد اذ وصل العدد المنتخب الى ٩٩ عضوا وبقيت قيادة الاتحاد دون زيادة من حيث العدد ، كما تم التجديد لكثير من أعضاء القيادة بينهم الرئيس ونوابه الثلاثة والامين العام .

ـ تكلم في المؤتمر تسعون متحدثا .

ـ حضر ضيوف من خمسة وعشرين دولة صديقة للشعب والدولة والكتاب في المانيا الديمقراطية أما المندوبون فكانوا من أعمار مختلفةمندوب واحد كان تحت سن العشرين و / ١٨ / مندوبا بين ٣٠ ـ ٤٠ سنة . و / ٦٧ / مندوبا بين ٤٠ـ٥٠ سنة . و / ١١٩ / مندوبا بين ٥٠ـ٦٠سنة و /٥٣/ بين ٦٠ ـ ٧٠ سنة و /٢٢/ مندوبا فوق سن السبعين. وسأبدأ عرض المشكلات من حيث انتهى اليه حديثي في ا لاعمار .

* * *

● هناك جيلان من الكتاب :

● جيل يعيش ـ بعد رحلة الحرب وما قبلها ـ يعيش للمرة الثانية رحلة ما بعد الحرب . وهو جيل له رؤية : تعذب وتشرد وانتهك ضميره وتعرت روحه وجرحت على اكثر من شفرة سيف ، ولقد رايت كثيرين منهم ، واستمعت ، من فوق منصة مؤتمرات دولية ، اعترافات وادانات للذات صادرة عن ضمير يفيض بالمعاناة وشخصية تريد أن تتحمل وزر الآخرين وذنوبهم .

قال احدهم امام حشد كبير من الكتاب في مؤتمر اتحاد الكتاب السوفييت :

« كنت جنديا على الجبهة الروسية ووصلت الى مشافي موسكو ، وهنـاك تعلمت درسـا . امراتان أثرتا في ولقنتني كل منهما درسـا في الحياة . تلك الفلاحة الروسية على مشارف موسكو ، وآنا زيغرز الكاتبة والمناضلة الالمانية . آنا علمتني الاصرار والنضال بروح انسانية عالية في أصعب الظروف ، والانتماء الواضح للفقراء وللاشتراكية . وقد كانت رئيسة لاتحادنا . والفلاحة الروسية سألتها وانا في قرية على مقربـة

من موسكو وبالبذة العسكرية الالمانية : هل موسكو بعيدة من هنا فقالت : برلين اقرب لك منها . يومها رمقتها باحتقار ولكن درسها نبت ونما في دماغي وهو يكبر حتى اليوم » .

● وجيل الشباب الجديد الذي ينظر الى الكبار على انهم انتهوا ، ادوا أدوارهم وما عليهم الا أن يتواروا . وان يخلو الساحة للنشء الذي يتفتح في افق ومناخ آخرين . وهو جيل بعيد عن الشعور بالمعاناة ، لم يذق طعم الويلات ، ربما شاهد بقايا الاحياء المهدمة ولكن الآباء وفروا له طفولة اقل قسوة . وحياة اكثر لياقة بالانسان وها هو يتنفس هواء مغايرا لذاك الذي تنفسه الآباء ، جيل له احلام وآمال وتطلعات ، ويعيش في ظروف مختلفة نسبيا ، يريد أن يحقق ذاته ، وان يتجاوز قيوداً يشعر بوجودها ولذا فهو يتململ ويريد أن يغير وربما أن يحطم اشياء كثيرة ، وتغريه أحيانا النظرة من بوابة براندنبرغ ، ويصمد أمام اغراءات وسموم الاعلام الآخر الذي يحاصره ، ولكنه يحلم كثيرا بالطيران فوق سور برلين .

إنه جيل لديه امكانيات ابداعية ـ باعتراف الكبار ـ وربما كان على شيء من العجلة فهو ابن عصر السرعة والصواريخ العابرة للقارات عصر ارتياد الفضاء . وهذا الجيل توفر له امكانيات جيدة ، والمناخ الثقافي الموجود في المانيا الديمقراطية مناخ متميز بتنوعه ووفرة ما يقدم فيه من نشاطات ، وفي الانتاج المقدم قيمة لا يمكن تجاوزها . ولا شك في أن الاجيال الناشئة ، من المبدعين او سواهم وجدت بين يديها ما لم يحلم به ابناء الاجيال السابقة مجرد حلم :

المكتبات ودور النشر والمجلات والصحف والمتاحف والمسارح والمؤسسات المهتمة بالثقافة على الصعد جميعاً وفي الاماكن والمجالات كلها ، الامر الذي حقق مقدمات النهوض في مناحي الحياة المختلفة ولا سيما الثقافة . ويضاف الى ذلك نظرة منفتحة وانسانية للثقافة هي النقيض التام لما ساد قبل قيام المانيا الديمقراطية وتتجلى تلك النظرة في توجه تجسده الثوابت التالية التي تحدد الموقف من التراث الثقافي للأمة وللانسانية ، والموقف من الثقافة المعاصرة انطلاقا من روح العصر :

ــ « انطلاقا من سعة نطاق مفهوم الثقافة فان التراث الثقافي يشمل كل ما يدل على قدرة الانسان الخلاقة ، وكل ما اكتسب حتى تاريخ الانسانية الحالي من الآراء والافكار عن جوهر وماهية العالم ، والانسان وكل ما وضع من المبادىء والمثل التي تهدينا الى المستقبل ، وكل ما يخلق من قيم الجمال والشعر وما يخدم تطور الانسان . كما ويشمل الادلة والشواهد الموروثة للتقدم الاجتماعي والفكري في كل ميادين الثقافة . اي في ميادين العمل والبيئة والعلوم والفنون . ويشمل التراث الثقافي في جمهورية المانيا الديمقراطية جميع الانجازات الثقافية التقدمية والانسانية الكبيرة التي حققتها شعوب كل القارات . »

المادة ١٨ من الدستور في المانيا الديمقراطية ــ الثقافة في المانيا ــ اتجاهات ومصادر ص ٧٠

ــ « إن من يريد اتقان اداء مهام العصر وسلوك طريق الى المستقبل بخطا ثابتة وأكيدة عليه أن يطلع على خبر وتجارب الماضي وقيمه الثقافية . »

ايرش هونيكر ١٩٨١

وعلى ذلك فان المعطى الذي يقدم للحركة الثقافية يسمح لجيل الشباب بمثل هذا التوق الى الانعتاق ، ولكن هل يمكن القفز فوق الواقع، وفوق حقائق العصر ؟! هذا ما يحاول ان يلقنه الكبار للشباب ، وهذا

أيضا ما يحاول أن يقدمه الشباب للكبار على أنه تفسير جديد ورؤية جديدة فرضتها حقائق ومعطيات العصر ولا بد من القفز فوق تاريخ وتجارب مريرة ثبتها الماضي في ذهن الكبار ، حتى لا نبقى أساراها . فلمن يكتب النصر في هذه المعركة التي لا تدور في المانيا الديمقراطية وحسب ، وان كان لها هناك خصوصية وظروف مغايرة لما لسواها ؟! إن منطق الحياة يشير الى استمرار التقدم والتغيير ، ولكن منطق الحياة يشير أيضا الى ثبات ما هو سليم ومنطقي واصيل عبر التاريخ .

إن صراع الاجيال من حقائق الحياة ، وربما كان لا يأخذ طابعا جديا في مجالات الكتاب ، ولكنه موجود بدرجات مختلفة ، ولا يجوز أن نهمله كما لا يجوز أن نضخمه .

* * *

ظاهرة اخرى استرعت انتباهي ، في مداخلات عدد من الكتاب الالمان ، وهي في بعض مناحيها ، ظاهرة خاصة بمعنى انها المانية ، بعد الحرب العالمية الثانية . ولكن ينميها ويحركها احيانا دافع خارجي ، وتلعب في ذلك عوامل عديدة . وهي محاولة بعض الاشخاص القيام بنوع من الادانة للذات بهدف التفكير عن ذنب جماعي أو فردي . ولكن ذلك ينحصر أو يراد له أن ينحصر بتعاطف لا يفحص جيدا مع اليهود ، ويأخذ أحيانا مدلولا ومنحى خطرا في الغايات النهائية التي يرمي الى تحقيقها من يتقصدون العزف على هذا الوتر . وسأقدم لذلك ثلاثة امثلة مختلفة تشكل ، أو علها تقدم ، بمجموعها منظورات توضح أبعاد المشكلة :

أولا ـــ د. جزيلا كرافت شاعرة وباحثة متخصصة في العهد العثماني ، كانت تعيش في المانيا الاتحادية ، وانتقلت الى العيش في المانيا

الديمقراطية مختارة ، على نقيض أولئك الذين كانوا يعيشون في ال D.D.R وانتقلوا الى الجانب الآخر مثل سارة كيرش اليهودية وتوماس برانش وروزا لكسمبورغ وسواهم . كانت من الذين ينظرون الى انفسهم نظرة مشوبة بإرث الماضي ، قالت لي : « كنت اعتقد اننا نحن الالمان شعب ليس فيه ميزات حسنة ، وارتكب مالا يغتفر . شخص ياباني غير هذه النظرة ، قال لي يوما : إن فيكم أنتم الالمان أشياء جيدة أيضا ويمكن أن تصبح اكثر واحسن . وبدات انظر واكتشف واتطلع الى المستقبل . » وهذا بتقديري تصرف طبيعي نظيف وواقعي .

ثانيا ـ ذلك الكاتب الالماني الذي كان جنديا على حدود موسكو ، والذي اخذ درسيه من آنا زيغرز ومن الفلاحة الروسية ، واعاد النظر بموقفه واعلن ذلك مؤكدا الادانة المطلقة للحرب وللنزوع النازي واشكال الفاشية ، مكتفيا بالعمل الانساني العام وبالبحث عن الحقيقة والرؤية السليمة ومناصرة الاشتراكية والحق وقضايا الشعوب ومن ذلك النموذج من يقول عندما تذكره « تشر نوبل » وقضايا تلوث البيئة ، « نحن طبخنا الوجبات « الخاطئة » المرة واطعمنا الناس ولا يمكن أن نشكو » ، « أنا اشارك في تهديم الطبيعة . » ، « انا أرى ان العالم حاليا يريد تحطيم الحياة » .

ثالثا ـ روز ماري شوده كاتبة المانية تقوم الآن بتأليف كتاب بعنوان اللطخة الصفراء La tache jaune عن « الحقد والعار الذي الحقناه ـ تقصد الالمان ـ باليهود » . وهذا بنظري امر طبيعي ومشروع اي ان تبحث وتتشد الحقيقة وتفضح الممارسات غير الانسانية . ولكنها في مداخلتها امام المؤتمر جعلتني بعض المغالطات المموهة استيقظ على امر

خطير يتم الترويج له ، وفي ضوء هذه الانتعاشة[1] أعدت ربط بعض الوقائع مما تم هنا وهناك فوقفت على توجه خطر يحاول أن يستثمر عقدة الذنب عند الالماني ويفرضها عليه ، ويجر الشعب الالماني الى مواقف ، باسمها . قالت شودة إن اليهودي ابراهيم يشوع هيشل بقي الى جانب مارتن لوثر كينغ عندما قتل ولازمه حتى اللحظات الاخيرة متحملا الخطر . » وهي بذلك تدعو السود في أميركا على الخصوص ، واستنتاجا ، في سواها الى تقدير ذلك اليهودي الذي يمثل بنظرها قومه الذين على شاكلته ، أولئك الذين « كانوا ضحايانا » كما تقول . ولم تشر الى وقوف اليهود الصهاينة في فلسطين مع عنصريي جنوب افريقيا الذين يقتلون السود ويعاملونهم كشعب من الدرجة الثالثة ويمارسون التمييز العنصري ، وتناست الطبيعة العنصرية لدولتي اسرائيل وجنوب افريقيا ، والممارسات العنصرية الصهيونية في اسرائيل ضد السكان العرب ، وحتى بين اليهود الغربيين والشرقيين .

وبمثل هذا التحرك دفعت متكلمين الى السير في موكب من يضربون أنفسهم بسلاسل الحديد ويتذكرون غرف الغاز وبوخنفالد ويوقظون الماضي ، دون أن يجرهم ذلك الى ادانة الحقد والعنصرية والفاشية التي تمارسها اسرائيل ولا جرائم الصهيونية ، انهم يعملون من أجل نوع مطلوب من التعاطف ، تعاطف مطلق مع أولئك الذين « كانوا ضحايانا » .

وفي ظل هذا يصعب على الماني تشعره بالذنب، أن لا بد من ممارسات اليهود اللا إنسانية حتى لا يتهم بالسامية ، وهناك من يلاحقه بتلك الاحاسيس والتهم حتى يجبره على أن يدفع تعويضات لأولئك الذين يضطهدون العرب .

وفي الوقت الذي يدعو فيه ذلك الفريق من الكتاب ـ ونحن معهم ـ الى ان ينشد المؤتمر الى المهجرين من جنوب افريقيا ، يتناسى المهجرين من فلسطين ويذهب بعض الكتاب في استشعار الذنب الى حد القول : « نحن الكتاب الالمان لدينا الامكانية لان ننقذ انفسنا .. التضامن أصبح ضعيفا ويكاد لا يمس قلوبنا . » .

وحين ربطت ذلك بمحاولات ابراز عناصر وتكريسها ورسم حالة حولها وهي خارج المؤتمر كما جرى في تلاوة رسالة « كرستافولف » التي تعدها الاوساط الصهيونية للترشيح لجائزة نوبل .ومحاولتها اثارة قضية وافتعالها لشد الانتباه اليها ، الامر الذي دعا هرمان كانت الى التنبيه الى تصرفات « النجوم » هذه . حين ربطت ذلك بجهد أولئك الذين تنحصر مهمتهم في « عدم السماح للعشب بأن ينمو فوق الاشياء . » وقرنته بما لمسته من جهد اللوبي الصهيوني في كل مكان ، ولا سيما بروز جهد يهودي ملحوظ في الاتحاد السوفييتي في عهد الحرية والعلنية والديمقراطية ، يحاول أن يطفو على السطح ويركب الموجة ويعلي شأن المنشقين والمعادين ، ويوفر للمزدوجي الجنسية ظروف الهجرة ـ وهناك حديث عن توفير الظروف الملائمة لهجرة مليونين من اليهود السوفييت ـ ليقتلعوا أسراً فلسطينية جديدة من بيوتها أو ليقتلوها ويسكنوا على جثثها تحت شعار « حقوق الانسان » حين ربطت ذلك كله أدركت بأن اللعبة ستمارس الآن في المانيا الديمقراطية على أوسع مدى ، وانه يراد للشعب الالماني أن يخضع للابتزاز الصهيوني بأشكال مختلفة . وان على الالمان الشرقيين الآن أن يدفعوا ويأثموا بعد أن دفع الغربيون الكثير وما زالوا على لائحة الابتزاز الصهيوني ، وقد قطع اليهود الصهاينة مراحل على طريق لابتزاز لشعب المانيا الديمقراطية ولا يتجلى ذلك في اعادة بناء « الكنيس » في برلين الذي كلف مليارات الماركات ، وانما في اعمال اكثر خطورة وأبعد مدى .

الادب والسـلام ، والأدب والحـرب :

إن موضوع نزع السلاح ، والتخلص من الأسلحة النووية ، ووقف سباق التسلح والدعوة الى السلام ، كل تلك الادبيـات المتصلة بهـذا الموضوع ، والوقوف ضد الفاشية والعنصرية وما يثير الحرب ... كل هذه القضايا نذر لها الكتاب في المانيا الديمقراطية انفسهم ، واستطيع أن اوكد بحق انهم اكثر الدعاة حرصا وجدية وحزما وتبصراً ، في هـذه المجالات ، لأن أيديهم في النـار كما يقال . والمعنى واضح وشـامل لمن يدقق فيـه .

ويكاد يكون قول هرمان كانت في الندوة التي عقدت في ايلول عام ١٩٨١ حول الكاتب والسلام ممثلا للمصداقية التامة لجهد الكتاب الالمان في هذا المجال حيث قال :

« ينسجم نشاطنا مع طبيعة المجتمع الذي نعيش فيه . إن حب السلام والاستعداد للدعوة الى السلام والنضال من أجله ، جزء من الوعي القائم وفي جمهورية المانيا الديمقراطية منظمة خبراء فيما يخص قضية الحرب والسلم ، والدليل على ذلك يكمن أخيراً وليس آخراً في الادب الذي كتبناه .

إننـا وعن حق مؤلفو مكتبة عن السـلام ، كما اننا اتحـاد يدرك عم يتحدث عندما يتحدث عن النضال والمقاومة وعن التجربة المسؤولة . »

الثقافة ص ٣٠

وهناك ادراك تام لحقيقة انـه « لا يمكن للمرء أن يبني أو يقهـر بالاسلحة النووية ، لا الرأسمالية ولا الاشتراكية » كما يقول كانت وقد

جاء راي السياسيين مواكبا لراي الكتاب أو ان حصيلة التفاعل أدت الى القول الفصل في ذلك المجال والذي يتجلى في المقولات التالية :

ــ ان المزيد من الاسلحة في العصر النووي لا يعني تحقيق المزيد من الأمــن . » .

ايريش هونيكر ٨ / ١٢ / ١٩٨٧

ــ ان من يمتلك كمية أكبر من الاسلحة عليه أن ينتزع كمية أكبر من السلاح . اي ازالة عدم التكافؤ عن طريق نزع السلاح . » .

ايريش هونيكر ١٦ / ١٢ / ١٩٨٧

ولقد تكلل هذا الجهد العام للمثقفين ولا سيما الأدباء والكتــاب في العالم كله وعلى الخصوص في دول المنظومة الإشتراكية بنجــاح واقتناع تامين بذلك التوجه وبعدالة تلك المعركة وبضرورة خوضها باخلاص حتى يتحقق خلاص للجنس البشــري وللأرض من الكارثة النوويــة ولقــد تجســد ذلك في نص تضمنته اتفاقيات الدولتين العظميين « الحــرب النوويــة يجب الا تندلع أبــدا وانها لا يمكن أن تسفر عــن منتصر . » ورد هذا النص في بيان واشنطن الذي تلا اتفاقية / ٨ / كانون الاول١٩٨٧ التي تأمل أن تكون مدخلا عريضا لتصفية الأسلحة النووية والكيمياوية والجرثومية ، وأن تأخذ بالاعتبار حقوق الشعوب بالعيش بسلام وحريــة وعدالة وتقدم ، ولا سيما في هذه المنطقة العربية التي ما زالت تدفــع الدم والجهد جراء أنواع الاستعمار منذ الحرب العالمية الاولى حتى اليوم.

اما قضايا الأدب والحرب بمفهوم ادب الحرب ، ففي كل مؤتمر للكتاب الالمان يتحدثون كما أشاروا عن الأدب والحرب ، وهم يرون أن « التاريخ يجب أن يفعل الكثير حتى لا يصبح العالم تحت وطأة الرعب » وعلى الرغم من كثرة ما يكتب من ادب الحرب فهناك موضوعات عديدة

لم تعالج ، وموضوعات تحتاج الى اعادة معالجة لتكون أكثر جلاء وأكثر خدمة للبشرية واكثر افادة للأجيال . حتى ان بعضهم يتساءل على الرغم من كل ما كتب عن موقف الأدب من الحرب ، يتساءل قائلا : « هل الأدب ضد الفاشية ؟ ! يوجد اليوم أناس يريدون الحرب . » .

السيدة ايدا تسنر

واعتقد ان الكلمة المنقذة للانسانية والمتأصلة فيها ستكون ضد الحرب ، إلا أن انواعا واشكالا من الحروب لن تتوقف ، فالصراع عصب الحياة ، والحياة تفرز الموت كما يفرز الموت الحياة ، واذا كان من تاريخ البشرية الطويل لم يخل من الحروب فاننا نريد ان نبقى أحياء في هذا العصر بعد نشوب حرب ، وحبذا حروبا تبقى حياة ، في عصر تسود فيه أسلحة تفي كل شكل من أشكال الحياة ولا تبقى غالبا ولا مغلوبا . وهذا لا يعني انني مع حرب ما ، ولكن يعني استقراء لدروس التاريخ التي تشير الى وجود الصراع والاقتتال والحرب في جوهر الحياة . ولذا فاذا كان لا بد من الشرور فلنختر اهونها .

الثقافة والأدب والمانيا :

سوف أتوقف عند سؤال طرحه كاتب الماني في المؤتمر ، وكنت في معرض الحديث عنه مع بعض الالمان ديمقراطيين واتحاديين هنا في دمشق ، وهناك في برلين ، قبل المؤتمر العاشر للكتاب وأثناءه وبعد انتهائه . سؤال ينحصر في الثقافة لا في السياسة ، وإن كان من الصعوبة بمكان الفصل بين الثقافة والسياسة .

والسؤال الذي طرحه الكاتب الالماني على نفسه وعلى سواه قصير ومحدد : أين يوجد الوطن الالماني ؟! واذا كان يهدف الى إثارة غبار الجغرافيا والتاريخ ، فانني اود أن اكتفي بشق يتصل بالأدب ، أو بالثقافة على شيء من التعميم .

ولا اود على الاطلاق ، وليس من حقي ان أخوض في الاجابة ، ولكنني أطرح السؤال الذي استمعت الى وجهات نظر حوله أثارت خلافا في الرأي بين اربعة كتاب طرحت عليهم السؤال في لقاء حميم ، في بيت اتحاد الكتاب البرلينيين . وكان بين أؤلئك : الشاعر فولكر براون ود. جينر بلا كرافت والناقد بنديكت .. وسأكتفي بطرح تنويعات على وتر السؤال :

ـ هل هناك شخصية ثقافية عامة ، وشخصية أدبية خاصة ، للأدب المكتوب باللغة الالمانية الواحدة ، في الالمانيتين ؟!

ـ هل يمكن أن يتم تقاسم غوته وشيللر وبريشت ، بيتهوفن وباخ وان يتجلى في مورثات مختلفة ؟!.

ـ واذا كان الحديث ممكنا عن نظامين سياسيين واقتصاديين مختلفين ، فهل يمكن الحديث عن أدبين مختلفين تماما ؟!.

إن هناك عالمين منفصلين ولدا بعد الحرب العالمية الثانية ، وانا ، لتحديد الاختيار مع المانيا الديمقراطية وتوجهها ، ولكن بالنسبة للألماني الذي يطرح موضوع « الألمنة » بين الجانبين في الفترات الاخيرة ، كيف يتعامل مع الارث الثقافي للعالمين الثقافيين المتجاورين في لغة والمستندين الى غوته وشيلر وكيف سينظر الى الوطن الالماني ؟! مع وجود : نيتشه وكانت وماركس وانجلز في الوطن الالماني ؟!.

ان السؤال بريء تماما من طرفي ، وقد طرحته بنوع من التنويع على وتر ، ولكن جوهره العام وربما الغائم طرح في جو العلنية والديمقراطية الذي يتفتح الآن ، وطرح بايجاز وربما على استحياء تام في قاعة المؤتمر من بعض الكتاب الألمان .

الأدب والحياة والنقـد :

لقد ركز الكتاب على دور الادب في الحياة ، وعلى نوع الادب الذي يريدون واهتماماته التي يجب أن تسود ، واعطوا القيمة الحقة للكلمة وبينوا بعض مواطن الشكوى ، كما رسموا خطوط التوجه من خلال تنوع في الراي يشير الى ثراء مع التقاء على نقاط مشتركة .

فالحياة تستحق أن تعاش وعلى الانسان ان يدافع عن حياتــه ، والادب يدافع عن استحقاق الانسان في الحياة ، وهذا الاستحقاق ليس ثابتا جامدا ، وانما هو افق يطوره ويحركه كما يوسعه ويضيقه ، الوعي المعرفي . والوعي المعرفي يرتقي بالحرية ويقتضيها ويؤثر في نوع فهمنا لها وفي تجديد افقها ، ولكي يحصل الانسان على الحق والعدل والحرية ، قد يحتاج للثورة أو لا بد أن يحتاج اليها ، ولا يمكن ، بعرف كثيرين ، أن تكون هناك ثورة دون سياسة ثقافية !؟. **فهل هذا** مسلم به . ؤ .

واذا كانت هناك سياسة ثقافية خلالها من وجود من يرعى شؤونها ويطبقها ، وهذا ينشيء طبقة « جنرالات أو مارشالات في الثقافة » الامر الذي تذمر منه ستيفان هرملين بشكل عابر .

ان الأدب في المانيا الديمقراطية ، كما عرض الأدباء وراوا متصل بالواقع اليومي لهذا العصر او هكذا ينبغي ان يكون ، متصل بما يجري امامنا عندما ننظر من النافذة ، وعلى الأدب ان يهتم بذلك الذي يجري وان يصوره ويعالجه . « كل الخبز من اجل الشعب ، يمكن أن يكون هذا منطلقا لأدبنا اليوم . » هكذا أراد بعض الأدباء ان يكون شعارهم ، وأراد آخرون التأكيد بشكل عام على أن « أدبنا يؤكد مسيرة الاشتراكية والسلام . وانه يجب أن يكون واضحا انه لا يمثل راي وزير الخارجية أو وزير الزراعة . » .

ولكن آخرين يذهبون في النظرة الواقعية الى مدى أوسع فيرون ان الادب المرتبط بالواقع يجب ان ينعش الخيال ايضا وأن ينعش الروح. ويعود بعضهم الى قول ماركس ليؤكد الواقعية على نحو ملائم للأديب حيث يعيد الى الاذهان قوله : « في الواقع يوجد مصدر الخيال . » ، والبعض يرى أن مهمة الادب ومهمة الفن عموما ليس هي فقط التعبير عن الحياة ، بل هي العلاقة الجدلية « الديالكتيك » بيننا وبين الحياة .

وايا كان المنحى فان الادب يعبر عن الناس في تطلعاتهم ومعاناتهم ولا يفصل قلبا عن دمه ، وفما عن رغيفه ، ولا روحا عن تألقه . وربما كان من أهم ما ينبغي ان يتحلى به الادب أن يحمل أملا أو ينعش ميت الروح اذ يكفي على حد قول غوته : « يكفي أمل ليحرك ملايين الناس » والأدب بذار للأمل . وربما كان الشاعر فولكر براون على حق حين قال : « اننا نكتب لنكون أكثر شجاعة تحت تأثير نور الكلمة . » . فالقضية بذار للأمل . وربما كان الشاعر فولكر براون على حق حين قال : واظن الا شجاعة دون وعي ، فالوعي الذي تصنعه الكلمة هو الذي يخرر الطاقة الابداعية البشرية من مكانها لتصنع الحرية والعدل وتمهد لعالم افضل ، ولتصنع الانسان في زورق الامن والسعادة مع الآخر وفي علاقة الوجود الحيوية معه ، انها لي وله في آن معا وفي عالم لنا جميعا . فمن المهم جدا أن تكون انسانا وان تعيش بحرية ، وأن تكون واحدا منا ، لنكون جميعا في مجتمع له وجود ومعايير ، في حياة تليق بالانسان . لقد تم التعبير عن هموم أخرى وعن اهتمامات وقضايا عديدة في المؤتمر ، منها ما يتصل بالنقد الادبي وبصعوبات النشر ذلك الذي يشكل تاريخه تاريخ الادب ذاته ، والذي يشكو في المانيا من غلاء وقلة اصدارات مما جعل

بعض الكتاب يتساءلون بخبث قائلين : « هل هذه مشكلة تتصل بالاقتصاد ام تتصل بالسياسة الثقافية ، ام انها في الحصيلة عجائب ثقافية ؟! » وأي وسط ثقافي وأدبي لا يشكو مر الشكوى من مثل هذه الامورفي العالم؟! فهل الثقافة في حالة اضطهاد أو كمون في العالم النامي شأنها في ذلك شأن الثقافة في العالم الذي يسعى الى النمو ، ام هي حالة بؤس لحقت بثقافة عصرنا من ساسة عصرنا ؟! واثيرت ايضا قضايا تتصل بضرورة الاسراع في اصدار الكتب ، وقضايا تتصل بالبيئة وبالدفاع الذي هو في النتيجة دفاع عن الحياة ، وكلها أمور تتصل بالحياة عموما وبالحياة الثقافية ومناخها ودورها وفعاليتها على وجه الخصوص ، في ذلك البلد الذي قدم ما قدم للثقافة .

وساد جو من الحرية والنظام والديمقراطية اكد لي جدارة الكتاب بمكانتهم وبدورهم ، وبأن يكونوا مؤتمنين على الكلمة ورسالتها وتاريخها . وقبل أن أصل الى نهاية هذا العرض الانطباعي الموجز عن الحياة الثقافية في المانيا الديمقراطية من خلال المؤتمر العاشر للكتاب الالمان اود أن اشير الى قضية النقد الادبي في سطور .

اشار هرمان كانت في تقريره الى ان هناك كتابا مهمين يتناولهم النقد ، وكتابا مهمين لا يتناولهم ، وهناك كتابا غير مهمين ومن الطبيعي الا يتناولهم والنقد بهذا يمارس دوره مع وجود خلل يلمسه اولئك الذين يعيشون في الساحة الادبية . واذا كانت جميع الساحات الادبية تنادي بنظرة موضوعية في النقد ، وبرؤية ايجابية له ، في الوضع في المانيا الديمقراطية لا يختلف عن أوضاع الساحات الاخرى .

ولكن يبدو ان لكل ساحة نقدية ـ ادبية معاييرها ومتطلباتهـا ، ولا يمكن ان نغفل مقومات الذوق في مرحلة ما وربما ما يسود من معطيات تكونه في عصر وبيئة ، ذلك ان النقاد على تواصل ثقافي مع المعطى العـام للايديولوجيات والسياسات اضافة للنظريات النقدية والعملية الاخرى .

وعلى حين نجد مطالبة : بأن يكون الادب واقعيا وان يقاس بالاشياء الموجودة في العالم ، نجد اولئك الذين يقولون : القصص موجودة في الشارع ويريدون ان يجمعوا الادب في « كاتولوغـات » ، والادب لا يجمع فـي « كاتالوغات » ونجد من يطالبون النقد لا بالموضوعية ، وانما يتمسكون بمذهب الواقعية النقدية ، ويصرون على ان تكون بين الادب والنقـد من جهة وبين الواقع الاجتماعي من جهة اخرى علاقة صريحة . وفريق من الادباء يريد ان يكون النقاد مثل الشرطة في الشوارع يرشدون الاديب ويساعدونه ويشيرون الى الادوات والاشياء الملائمة وغير الملائمـة . ولكن التساؤل يرفع راسه هنا : هل يقبل النقاد ان يكونوا مجرد شرطة مرور ، ام انهم يستمتعون بلعب ادوار اخرى : مثل المحقق والقاضي والسجـان وربما الطاغية ؟! وهل يرتاح الادباء لنقد يحدد الادوات والاشياء الملائمة؟! الا يؤثر ذلك على حرية الابداع لديهم ؟! تلك أسئلة يثيرها موضوع النقـد اينما طرح ، وليس فقط تلك النقاط التي يثيرها حوار هامش في مؤتمر الكتاب الالمان حول موضوع النقد . الا انني اتصور ان مشكلة النقد تبرز الآن في نوع من التبعية للايديولوجيا خصوصا وللسياسة عموما ، والمنـاخ الجديد يهيء الفرص لطرح مشكلة النقد وتوجهاته والرؤية العميقة التي ينبغي أن تكمن خلفه وتسهم في توجيه افكار الناقد وتحددها معاييره ، وتحكم أدواتـه ؟!؟

هل يبقى النهج السابق مفروضا ، أم ان تحررا شاملا من قوالب وقيود ونظرات ومناهج سابقة سوف يحدث ، ويؤسس لثورة حيوية في جسم الادب والنقد ، والابداع بوجه عام ؟! ان البوادر تشير الى شيء من ذلك بدءاً من مؤتمر اتحاد الكتاب السوفييت الذي سبق ، وبمواكبة لمناخ التغيير واعادة البناء الذي حمله غورباتشوف الى العالم الاشتراكي.

لا شكوك عندي في ان مستجدات كثيرة سوف تطرأ على الساحة الثقافية في جمهورية المانيا الديمقراطية ، وعلى الانواع الادبية جميعا ، وسيشمل ذلك جوانب الحياة المختلفة ، ويؤثر بحيوية وفعالية في توجهات الادب والفن والنقد ، وفي الحركة الثقافية ، الا انه لن يكون التيار الذي يتنكر للموروث الحديث ، ولا ذلك الذي يتمرد على كل ذلك الموروث ، ان أفكارا ومعطيات ومناهج سوف تتغير وفي العمق الحقيقي منها وسوف يكون مردود ذلك ايجابيا وحيويا على الحياة الثقافية ، اذا ما احسن استخدام ادوات المناخ الجديد ومعطياته وشروحه ونظر الى الدور الريادي للثقافة في التغيير وعمليات اعادة البناء ، لان كل تغيير يبدأ في الشخصية الثقافية بكل مقوماتها وقدراتها على التأثير وتغيير البنية القيمية وتوجه الوعي في الانسان ، وتوظيف المعطى المعلوماتي ، والمعرفي بالتالي ، لما فيه صلاح أمر الناس وأمر الحياة ، وهذا ما أتوقع أن يحدث وبفاعلية وسرعة في الحياة الثقافية للبلدان الشيوعية ، ومنها المانيا الديمقراطية التي ربما تبطىء قليلا في اجراء التغيير ، ولكنه سيكون اكثر عمقا . *

* * *

---

* القيت هذه المحاضرة في المركز الثقافي لجمهورية المانيا الديمقراطية في ١٢ كانون ثاني ١٩٨٨ بدمشق .

غوغول ـ مؤسس الواقعيّة النقديّة

في الأدب الروسي

زياد الملا

قصيدة «النيزك»

للشاعر الروماني

ميهاي إيمينيسكو

١٨٥٠ ـ ١٨٨٩

ترجمة: رياض هاني رعد

التحـــدي

حكاية أديغيّة قديمة

ترجمها بتصرّف:

عز الدين سطاس

الغراب

شعر:

إدغار آلن بو

تعريب: خالد داد آغا

غوغول ـ مؤسّس الواقعيّة النقديّة في الأدب الرّوسي

زياد الملا

يقول دوستيفسكي : « كلنا خرجنا من معطف غوغول » . بهذه الكلمات حدد لنا الكاتب الروسي العظيم المكان الذي يحتله غوغول في أدب القرن التاسع عشر .

يعتبر غوغول مع بوشكين مؤسسي المدرسة الواقعية في الأدب الروسي . فهو كاتب وطني بكل ما في الكلمة من معنى . وهو يسبق بوشكين الى مرحلة اعلى ليصبح رائداً للواقعية النقدية وواحداً من كبار ممثلي المدرسة الواقعية النقدية في الآداب العالمية .

يقول بيلينسكي : « غوغول ـ اديب الحياة الواقعية » . فبفضل غوغول اصبح الأدب الروسي قوة مادية عظيمة ، قادرة على فضح نظام

القنانة والإقطاع وعلى النضال من اجل تغييره كليا . ويرى تشيرنيشيفسكي في غوغول مؤسساً لفترة أدبية جديدة تسمى بالعهد الفوغولي في الادب الروسي نظرا للتأثير الهائل الذي تركه غوغول في الادب الروسي كله في القرن التاسع عشر .

ولد نيقولاي ڤاسيليڤيتش غوغول في العشرين من آذار عام ١٨٠٩ في ضيعة سورو تشينكي ـ منطقة بولتاڤا في عائلة ملاك غير ثري وشب في عزبة والده في ڤاسيليفسكي . وكان هذا الوالد من عشاق الفنون ومن محبي المسرح ، كما كان ينظم الشعر ويكتب الكوميديات اللاذعة . وكانت تزوره ايضا شخصيات من رجالات الآداب والفنون . قضى غوغول عامين في مدرسة المنطقة ثم انتسب الى المدرسة العليا للعلوم . وهناك اقتحم باب الآداب وشارك في مجلات المدرسة وفي التمثيليات كممثل موهوب في ادوار كوميدية حيث قام بدور بروستوكوف في « المراهق » لفانقزين .

كان مولعاً بقراءة الكتب وبشكل خاص كتب بوشكين . كما كان يحفظ الأمثال والأقوال المأثورة والكلمات الروسية ذات النكهة الخاصة والأغاني وغيرها . واستفاد من هذا كله في مجموعته القصصية عن اوكرانيا . وفي المدرسة كتب عدداً من الاعمال الصغيرة مثل « سمكتان » وقصيدة « روسيا تحت نير التتار » ومأساة « قطاع الطرق » والكتاب الساخر « لا شيء عن نيجين أو ليس هناك من قانون مكتوب للحمقى » . ونظم الكثير من الأشعار في مواضيع مختلفة . ويدخلها غوغول مرحلة جديدة من التثقيف الذاتي حيث يقرأ شكسبير وغوته وشيلر . وفي عام ١٨٢٧ كتب رسالة لامه يقول فيها : « انا امتحن قواي لكي اساهم في رفع مستوى العمل لصالح الوطن وسعادة المواطنين ولأجل رفاه الناس » . في عام ١٨٢٨ أنهى المدرسة وسافر مع احد اصدقائه الى

بطرسبورغ ليشق بنفسه طريق مستقبله . ولم تكن الحياة كما حلم بها في عاصمة القيصر نيقولاي . فكتب من هناك الى إمه : « لا روح تشع في الشعب على الإطلاق ، فالناس مهتمون بالمصالح التافهة والذاتية » .

لم تلق قصيده « غانتس كيوخيلكارتين » التى نشرها عام ١٨٢٩ النجاح . إنها قصيدة رومانتيكية . وقام غوغول بتمزيق اوراقها نظراً لشـدة الهجوم النقدي عليه رغم أن تشيرنيشيفسكى راى انهـا مفعمة بمشاعر الود والحب للحياة الواقعية .

ونظراً للحالة النفسية الصعبة التي بدأ يعاني منها غوغول فقد قرر السفر خارج البلاد كي يبعد السأم عن ذاته ولكنه سرعان ما عاد الى بطرسبورغ . وفي نهاية عام ١٨٢٩ فقط استطاع الحصول على عمل بصفة موظف صغير . ولكن هـذا العمل ايضا حقق له ما كـان يرجـوه من السـعادة .

في تلك الاثناء كان يطلب في رسائله الى أمه أن تجمع له الحكايات والأغنيات وان تشتري العملات والكتب القديمة . وفي عام ١٨٣٠ ظهرت أول قصة اوكرانية له بعنوان « بيسافريوك » نشرها فيما بعد بعنوان « أمسية عند ايفان كوبال » . وفي كانون اول من نفس العام نشر فصلا من الرواية التاريخية « غوتمان » . كما نشر في الجريدة الادبية فصلا من قصة « الخنزير البري » . وألهمه الفصل الاول من رواية « غوتمان » لكتابة « تاراس بولبا » . وغوتمان هنا هو أحد قـادة الكفاح البطولي للقوزاق الاوكرانيين ضد الغزاة البولونيين في بداية القرن السابع عشر . ولم يكملها بسبب ظهور فكرة تاراس بولبا لديـه .

وفي إحدى الامسيات في منزل بليتنوف جرى التعارف بين غوغول وبوشكين ، وكان هذا في العشرين من أيار ١٨٣١ . وهو حدث على غاية من الاهمية بالنسبة لغوغول بشكل خاص . وسرعان ما تحول التعارف الى صداقة وتركت هذا الصداقة تأثيراً حاسماً في تطور النظرات الاجتماعية لدى غوغول الشاب . فقد لمس بوشكين موهبة فذة لدى غوغول فقاده الى تلك الحلقة التي كان يلتقي فيها كريلوف وفيازيمسكي وجوكوفسكي واديفسكي والفنان برولوف . واعطى بوشكين لغوغول مواضيع لتاليف كتب حولها مثل « المفتش » و « النفوس الميتة » . يقول بوشكين : « لم تظهر بعد تلك الموهبة التي تستطيع الكشف عن دناءات الحياة مثلما يقدر على هذا الامر غوغول » . ويقول غوغول : « عندما كنت ابدع عملا ما ، كنت ارى أمامي فقط بوشكين . وانا لم اتخذ اي قرار ولم اكتب اي شيء بدون نصيحته . وكل ما لدي من أشياء جيدة اراني مدينا له بها » . وسار غوغول جنباً الى جنب مع بوشكين في النضال ضد أعداء الأدب الروسي التقدمي عن طريق كتابته للمقالات اللاذعة ونشرها في مجلة « المعاصر » لبوشكين .

يتمتع غوغول بموهبة غير عادية ، فذة وقوية . فهو يقف في طليعة الأدب والأدباء ويشغل مكان بوشكين بجدارة .

إن الحقيقة الكاملة عن الحياة ترتبط ارتباطا وثيقاً ببساطة الفكرة في قصص غوغول . فهو لا يتملق الحياة ولا يغتابها . إنه سعيد بالكشف عن كل شيء وعن كل ما في الحياة من جميل وإنساني . وفي الوقت نفسه لا يتجاهل القبح والقذارة . إنه صادق مع الحياة حتى النهاية . فهي بالنسبة له صورة حقيقية عن كل شيء .

إن قصص غوغول شعبية على أرفع المستويات . والشعبية ، كما هو معروف ، شرط ضروري للمؤلف الفني الواقعي . وهي أيضاً أصلية لا تزييف فيها . وهذا أيضا شرط لا بد منه للموهبة الحقيقية . ففي « مذكرات مجنون » استهزاء بالحياة البائسة والإنسان البائس . إنها صورة كاريكاتورية مع انها واقعية وإن كانت غير قابلة للتصديق في بعض الأحيان . فهي لوحة حية عن الإنسان المسحوق في المجتمع الطبقي . وفي « امسيات الغربة » صفحات شاعرية مشبعة بالحياة والفتنة . إنها شعر فتي وطازج مثل قبلة الحب الاولى . وإذا ما قرأ أحدنا « ليلة نوارية » في مساء شتوي قرب المدفأة فسوف ينسى الشتاء وصقيعه وعواصفه بل سوف يعجب بهذه الليلة المشرقة . وتعتبر قصته التي كتبها بعنوان « النقاد » برأي النقاد محاولة غير موفقة . فهنا تهبط موهبته . ولكنه في هبوطه يظل موهوباً وفذاً . وتبرز أمامنا « تاراس بولبا » كقطعة من ملحمة عظيمة عن حياة شعب بأسره . إنها نموذج عن ملحمة هوميروس .

ظهر الجزء الاول من كتابه « أمسيات العزبة القريبة من ديكانكي » في ايلول عام ١٨٣١ والجزء الثاني في آذار عام ١٨٣٢ . يقول بوشكين عن هذه الامسيات : « لقد اذهلني هذا الكتاب . إنه المرح الحقيقي المخلص والصادر عن القلب . وفي بعض الاحيان اشعر وكأنني اقرأ شعراً لا نثراً . ما أروع هذا الحس الموسيقي » .

كان غوغول بعيداً عن طريق المدرسة الطبيعية والمدرسة العاطفية (السنتمنتالية) كذلك . ويشكل هذا الكتاب انعطافاً كبيراً نحو الاتجاه الشعبي . وفي الوقت الذي امتدحه فيه بوشكين وبيلينسكي ، ثار النقاد الرجعيون ضده لانهم رأوا فيه كتاباً تفوح منه رائحة أذواق الشعب البسيط . ولهذا السبب بالذات قال غيرتسين : « ينتمي غوغول الى الشعب من حيث ذوقه وتكوينه الذهني والعقلي » .

وفي عام ١٨٣٥ ظهرت مجموعته القصصية « ميرغورود أو مدينة السلام » وهي تضم « الملاكون الزائلون » و « تاراس بولبا » و « الساحر » و « قصة كيف تخاصم ايفان ايفانوفيتش مع ايفان نيكيفوروفيتش » . وهذه القصص تكملة للمواضيع القصصية الاوكرانية . ويرى بيلينسكي في المجموعة الجديدة عمقاً وصدقاً اكثر بالنسبة لتصوير الواقع ، وخاصة لدى الحديث عن أخلاق المجتمعات الطبقية ومآسيها .

إن مصير الشعب الذي كان يستحوذ على اهتمام بوشكين وليرمنتوف كان في الوقت نفسه يشغل بال غوغول . وهنا ظهرت « تاراس بولبا » . لقد أعطى عصر التحرير الوطني للشعب الاوكراني في القرنين السادس عشر والسابع عشر المحتوى التاريخي لهذه القصة . وتكمن قوة الحركة الوطنية في طبيعتها الشعبية ومغزاها . ففيها تسطع عظمة كفاح الشعب الاوكراني في سبيل استقلاله الوطني والمأساة التاريخية لهذا الكفاح .

تاراس بولبا ـ تجسيد حي للنضال النموذجي للقوزاق الاوكرانيين وحبهم للحياة . فتاراس وطني غيور ، ومنتقم شديد لأجل حرية المضطهدين والمظلومين .

كتب غوغول عام ١٨٣٣ مجموعة اخرى من القصص عن الحياة البطرسبورغية وفيها ابرز موضوع ترسيخ العلاقات البرجوازية في المدينة . وتشكل هذه القصص خطوة جديدة على طريق تطوير الواقعية الروسية . ففيها يتناول الكاتب حياة الموظفين الصغار والحرفيين والفنانين والبسطاء . ومن هذه القصص « شارع النيفا » التي اعتبرها بوشكين افضل قصة أبدعها غوغول . ويرى بيلينسكي في شخصيات هذه القصص البطرسبورغية تعبيراً صادقاً ورائعاً عن تناقضات الحياة

الاجتماعية في ذاك العصر . وتدخل قصة « الصورة » ضمن هذه المجموعة. بطلها الفنان تشارتكوف . يهدف تشارتكوف للحصول على الثروة . لذا يحاول الخضوع لأذواق الزبائن فيصبح حرفياً وصولياً ويقتل مواهبه بنفسه . وهنا ينتقد غوغول الأسلوب التجاري في العلاقة مع الفن . فالفن معرض للهلاك عندما تسيطر سلطة الذهب الرهيبة .

كان استعراض غوغول للمشكلة سليماً . غير انه وجد الحل لإنقاذ الفن : في الأخلاق الدينية وليس في تغيير التركيبة الاجتماعية . وحاول غوغول تجسيد هذه الفكرة بالذات في قصته الثانية . ولكن اعاد غوغول ، تحت تأثير انتقادات بيلينسكي ، كتابة هذه القصة بحيث ضعف الجانب الخيالي وفكرة المغزى الديني الاخلاقي للفن وتم التشديد على الواقعية في تصوير أسباب مقتل تشارتكوف ، والتركيز على أن الفنان يجب أن يحافظ على صفاء الروح وان يرتفع فوق الأمور الصغيرة اليومية .

تعتبر قصة « المعطف » من اهم مؤلفاته ضمن مجموعة القصص البطرسبورغية . وقد ظهرت فكرتها لديه في عام ١٨٣٤ وبعد كتابتها قرأها مخطوطة أمام بوشكين في عام ١٨٣٦ ووضعها في صيغتها النهائية للنشر عام ١٨٤٢ .

يقول بيلينسكي : « استطاع غوغول ان يجد الشيء المأساوي ليس في الكوميديا بل في دناءة الحياة ووضاعتها » وكتب غيرتسين في رسالته الى تورغينف : « لليوم الثالث اعيد قراءة المعطف . إنه مؤلف هائل » .

بطل « المعطف » اكاكي اكاكيفيتش باشماشكين . إنه نموذج الإنسان المعرض للاهانة والاستهزاء . وهو لا يعرف اية سعادة او تسلية . وعندما كان يعود الى البيت كان يفكر بأن سعادته كامنة فقط في الحصول على

معطف . وكان يشعر بانه اخ لجميع الناس وأن أساس الحياة هو الخير . إن غوغول لا يضحك من بطله بل يشفق عليه . وتثير القصة الاستياء من عالم الظلم والعبودية . إنها احتجاج غاضب وعنيف . وقد تركت هذه القصة تأثيرها الكبير عند دوستيفسكي الذي كتب « الفقراء بهذه الروح الغوغوليـــة » .

لقد اعطى بوشكين لغوغول فكرة « المفتش » فكتبها غوغول وقرأها أمام جوكوفسكي . وقد مثلت للمرة الاولى في ١٩ نيسان ١٨٣٦ على مسرح بطرسبورغ ولاقت نجاحاً باهراً . بيد أن المؤلف لم يكن راضياً أبداً عن تمثيل أبطال المسرحية ، وحتى أن الممثل الروسي العظيم شيبكين لـم يستطع ايفاء الدور حقه كاملا . ولم ينجح في هذا الدور إلا في عام ١٨٣٨ . وكان نجاحاً باهراً لدرجة ان بيلينسكي قال : « لقد فهم الممثل الشاعر » . تتناول هذه المسرحية الكوميدية المسائل الحية والملحة في ذاك العصر . وقد راى ممثلو الأدب الروسي التقدمي فيها نقداً لاذعاً لروسيا في عهد نيقولاي مع بروز فكرة رفض الحياة القائمة . واعتبر تورغينف هـذه الملهاة إحدى اكثر الكوميديات التي ظهرت في عالم المسرح سلبية وان غوغول قد أشار من خلالها الى الطريق الذي يجب ان تسير فيه الدراما الروسية » . وتقف « المفتش » في الواقع في قمة تطور الكوميديا الروسية كانعطاف نحو مرحلة جديدة من تاريخها . إنها ملهاة على غاية من الصدق ومشبعة بالمرح والنكتة اللاذعة . « المفتش » تعرية كاملة للرشوة والفساد والظلم والوضع الصحي والمعاشي المرعب . فالفقير اذا مات مات واذا عاش عاش ، ومسؤول الصحة والمرافق العامة زيمليانيك مثال للانسان العديم الضمير والوجدان . وأما مسؤول المدرسة خلوبوف فيرتجف من الخوف عندما يسمع بوصول مفتش جديد لأن المدرسة في وضع يستحيل فيـه

تسميتها مدرسة ، ومسؤول البريد شبيكين أتفه إنسان ولا يعشق سوى الاخبار والوشايات . فهو نمام من الدرجة الممتازة . وأما خليستاكوف فهو من أسطع النماذج التي أبدعها غوغول إنه طبيعة جديدة كلياً في الأدب العالمي . فهو تافه وسخيف ويعيش مما خلفه له أبوه الملاك وتتجسد فيه الوقاحة . وهو ، اقل ما يقال عنه بالمفهوم العامي : خفيف . إنه مجرد احمق كما وصفه غوغول . فهو ثرثار وكذاب ومنافق وجبان وليس لديه أدنى مفهوم عن الخير والشر . وهو ليس مضحكا ، بل هو في الواقع وريث النظام البيروقراطي كما أنه وريث التفاهة والانحطاط المترسب من مجتمع القنانة . هذه هي الصفة الملازمة للآلاف من معاصريه ولاحقيه . وهذا يضفي اهمية كبرى على جوهر الموضوع .

غوغول كاتب واقعي . فهو لم يتناول أحداثاً طارئة بل اخذ ظواهر تعكس جوانب الواقع الاكثر جوهرية . إن شخصياته الفنية واقعية حقيقية دون خيالات ولا مبالغات . كما انه لا يوجد بطل ايجابي في أدبه . ولكل بطل من أبطاله لغته المتناسبة مع موقعه وموقفه .

بعد عرض هذه الكوميديا جرى هجوم عنيف عليه من جانب الرجعية . فغادر البلاد وانتقل في البداية الى سويسرا ومنها الى باريز . وهناك تابع عمله في كتاب « النفوس الميتة » والذي كان قد بداه وهو بعد في روسيا . وهناك في باريز سمع عن موت بوشكين فهزه النبأ وكتب الى بليتوف : « لا يمكن تلقي أي خبر من روسيا أسوأ من هذا الخبر لقد ذهبت متعة حياتي كلها مع ذهابه » .

وفي آذار ١٨٣٨ انتقل غوغول الى روما . وهناك اعجبته الطبيعة الايطالية والفن الكلاسيكي . وفي الوقت نفسه شاهد الفقر والفاقة وحالة

الشعب البائسة في ظل الحكم النمساوي المتحكم في رقاب الايطاليين .
ويعود غوغول الى الوطن لنشر كتابه « النفوس الميتة » .

تعتبر « النفوس الميتة » احد المؤلفات العبقرية والفذة في الآداب الروسية والعالمية . لقد ظهرت فكرة هذا المؤلف العظيم وترسخت في ذهنه تحت التأثير المباشر لبوشكين . وهو نفسه يعترف في مذاكرته بهذه الفكرة ـ المضمون . وقرأ غوغول أمام بوشكين الفصول الاولى من هذا الكتاب . وبعد أن أتم قراءتها قال له بوشكين الذي كان يصغي بانتباه شديد : « ما اتعس بلادنا الروسية ! » . لقد عمل غوغول خمس سنوات في كتابة المجلد الاول من النفوس الميتة » والذي انجزه في كانون أول عام ١٨٤٠ . وفي كانون أول ١٨٤١ وقعت النسخة الاصلية ـ المخطوطة في أيدي لجنة الرقابة في موسكو ـ وبدأت الصعوبات فكتب الى بيلينسكي ليعمل على تقديم المخطوطة ونشرها في بطرسبورغ . ووافق بيلينسكي على هذا الطلب بكل سرور . وتراجعت الرقابة البطرسبورغية تحت ضغط الاوساط الادبية وان كانت قد حذفت الكثير منها وخاصة النقاط اللاذاعة وخرجت الرواية الى الوجود في نهاية أيار عام ١٨٤٢ وقال غيرتسين معلقا عليها : « هزت « النفوس الميتة » روسيا بأسرها » . وشنت الرجعية هجوما عنيفا عليه متهمة إياه بانه لا يحب روسيا وانه يستهزىء بالمجتمع الروسي . لقد هاجموه بسبب النزعة الديمقراطية والافكار التحررية المسيطرة على روح القصة . فالسخرية لدى غوغول ليست سوى مفهوم عن الرفض لما هو قائم وليس هدفه الاستهزاء كما يدعون . إنهم يستنكرون هذه الآراء لأن اللوحة التي رسمها لنا غوغول ، والتي يدعون أنها ليست سوى لوحة كاريكاتورية ، ما هي في الواقع إلا لوحة فنية واقعية انتقادية لاذعة ، لوحة إنسانية تسعى الى إزالة الزيف والرشوة والفساد والقضاء على الظلم الاجتماعي بجميع أشكاله .

كتب بيلينسكي : إن غوغول ، بإبداعه هذا العمل الأدبي ، قد خطا خطوة عظيمة لدرجة ان كل ما كتب وأبدع قبله يبدو هزيلاً وباهتاً بالمقارنة مع هذا المؤلف . لقد ابرز غوغول تلك الطبيعة الطفيلية لوجود بضع عشرات من المالكين الكبار لنفوس الاقنان . ويشكل هذا الوضع الاساس لنظام الاقطاع والقنانة بأسره . ففي أحاديث ملاكي الاراضي نرى ان النفوس الحية والنفوس الميتة عبارة عن بضاعة عادية . إنهم يتكلمون عن الاحياء كما عن الاموات . . . مانيلوف ، من حيث طبيعته ، طيب وخلوق ومهذب . ولكن كل هذه الصفات اتخذت اشكالاً مضحكة وهجينة . فهو لم يفد الناس بشيء . وحياته كلها مليئة بتوافه الامور . وكارابوتشكا ملاكة غير ثرية جداً تشكو من قلة المحصول على الدوام ، إنها ليست ضد الثقافة العالية مثل ماينلوف . وينحصر همها كله في التوفير والتخزين . . . فهي معدومة الشعور الانساني بحيث تحولت الى عبدة للمال . فالاقنان بالنسبة لها ليسوا سوى بضاعة لا اكثر لذا لا ترى فرقاً بين النفوس الحية والنفوس الميتة . ونوزدريف يحب التسلية والعربدة ولعب الورق وحب الشجار . وهو ثرثار وذو لسان أحمق ومتهور عدا عن انه كذاب . ويعمل ماباكيفيتش (يمكن ترجمة هذا الاسم الى العربية بكلمة : المستكلب) على جمع الثروة والحصول على كميات وافرة من الطعام . وبلوشكين مثال نموذجي للتفاهات والدناءات والوقاحات . وهو بخيل وجشع لدرجة انه تنكر لزوجه ولطفلته كما انه كان يرفض استقبال اي ضيف في حياته . بطل القصة الرئيسي باقل ايفانوفيتش تشيشيكوف . إنه بطل نموذجي للاقتصاد الراسمالي البدائي . وهو يمثل رجال الاعمال الذين ظهروا في روسيا في الثلاثينات لذا نراه يتمتع بكل الصفات والطبائع التي يتمتع بها الراسمالي في بداية حياته . فهو ذكي وحاذق في تفهم وإدراك اساليب التعامل مع كل إنسان وليست لديه اية مشاعر وطنية تجاه الوطن والشعب لانه لا يهمه سوى مصلحته الذاتية الانانية .

لقد اختار غوغول موضوعاً أعطاه الحرية الكاملة للسفر مع بطله عبر روسيا بأسرها واستخراج طبائع على غاية من التنوع وإن شراء نفوس الأقنان ـ هو أفضل موضوع يساعد الكاتب في الكشف عن روح العصر وتبيان الطبائع النموذجية وتناول أهم مسائل العصر الحاحاً .

صور لنا المؤلف في هذا العمل الأدبي الرائع لوحة مروعة عن مجتمع الاقطاع والقنانة ، عن المجتمع الذي تنعدم فيه عناصر الشرف والواجب الاجتماعي والأخلاقي .

شرع غوغول في كتابة المجلد الثاني من هذا الكتاب قبل انهاء الأول . وجرت هذه الكتابة في فترة الازمة النفسية التي مر بها الكاتب عندما كان يحاول حل مسائل التطور الاجتماعي دون نتيجة .

لقد اشتدت في تلك الفترة ازمة القنانة وبدات تبرز اتجاهات التطور البرجوازي . وكان غوغول ، الذي يكره ، بل حتى انه يحتقر ، سيطرة النفوس الميتة ، يعارض ايضاً وبشدة عالم الرأسمالية الذي تبلور في الغرب . لذا اراد غوغول في المجلد الثاني الاستمرار في عرض اللوحة الساخرة واللاذعة ، لكنه لم يكن على وعي كامل بمسائل التطور ولم تبرز له الصورة الاجتماعية بكل عمقها واتساعها مما أدى به للابتعاد عن بيلينسكي وغيرتسين والوقوع تحت تأثير الناس ذوي الأمزجة الرجعية فبدأ البحث عن ابطال ايجابيين في صفوف هؤلاء الذين كانوا بنظر الكاتب بالذات ، ومنذ فترة غير بعيدة ، مثالاً للحطة والدناءة . لذا يبرز في هذا المجلد بطل جديد على قراء غوغول . إنه ملاك اقطاعي ، مثالي هدفه ، كما يدعي غوغول ، ليس الحصول على الثروة بل الاهتمام بالفلاحين وبرفاهية البلاد الروسية . ويتراجع الكاتب عن الواقعية تدريجياً ، وإن كانت هناك جوانب ايجابية في المجلد الثاني لها اهمية سياسية كبيرة حسبما لاحظ تشيرنيشيفكي .

يقول تشيرنيشيفسكي : « استطاع غوغول ، رغماً عن كل حالات الضياع في السنوات الأخيرة ، الاحتفاظ بجانب كبير من احتجاجه ومن حقده على مجتمع الظلم والاستبداد » . تكمن مأساة غوغول في انه لم يدرك المخرج من الظروف القائمة . ففي الوقت الذي ادرك فيه انهيار المجتمع القديم ، لم يستطع الارتفاع الى مستوى ادراك ضرورة الكفاح الثوري ضد روسيا القديمة والنضال من أجل الاشتراكية ، ولو بشكلها الطوباوي.

وقع غوغول في ظلمات التصوف ومتاهاتها حتى انه وصل الى حالة أصدر فيها في عام ١٨٤٧ كتاباً سيئاً بعنوان « أماكن مختارة من رسائل مع الاصدقاء » فبعث له بيلينسكي برسالة اشتهرت فيما بعد في النقد الروسي كعمل أدبي وسياسي كبير . وقد انتقد بيلينسكي فيها الأفكار الرجعية التي يحتويها الكتاب ودعاه للتبرؤ منه . ويعترف غوغول أن الرسالة تتضمن « جزءاً من الحقيقة ، كما أنه يعترف بابتعاده عن روح روسيا بسبب عيشه لفترة طويلة من الزمن خارج حدودها » .

يقول بيلينسكي في رسالته : « لقد ادى ظهور كتابك الى استياء وسخط عميقين من جانب القلوب الطيبة جمعاء وحتى انه يعتبر تراجعاً عن مواقف كتاباتك السابقة كلها . إنك تعرف روسيا بعمق ولكن كفنان فقط وليس كمفكر . إن روسيا لا ترى أن انقاذها يتم عن طريق التصوف والتنسك والزهد بل في التقدم وفي نجاحات الحضارة والتربية والروح الانسانية. فهي ليست بحاجة الى الادعية فيكفيها ما سمعته، ولا الصلوات فيكفيها ما صلته . إنها بحاجة الى ايقاظ مشاعر الكرامة الانسانية في الشعب . إن المسألة الملحة الآن في روسيا هي الغاء نظام القنانة والغاء العقاب الجسدي . إنك تريد تعليم الملاك البربري طريقة نهب الفلاح بقدر ما يستطيع وذلك باسم المسيح والكنيسة.وهل تريد مني أن لا استاء...؟

إنك لو كنت ممتلئا فعلاً بحقيقة المسيح وليس بالتعاليم الشيطانية لما كتبت ما كتبت في كتابك الجديد عن ان الفلاح أخو الملاك . وهل يمكن للأخ ان يكون عبداً لأخيه . . . » .

وتحت تأثير هذا النقد بدأ يحاول من جديد التراجع والعودة الى حياته الماضية الشريفة في مجال الابداع الأدبي . ولقد أبلغ غوغول أصدقاءه بأنه قد أحرق ثمار ما انتجه خلال خمس سنوات في وضع المجلد الثاني وبدأ الكتابة من جديد . وانهى هذا المجلد في عام ١٨٥٠ . ولكن قبل عشرة ايام من وفاته وفي ليلة الثاني عشر من شباط عام ١٨٥٢ أحرق غوغول هذه النسخة الجديدة أيضاً . ولم يبق منها سوى خمسة فصول مخطوطة . ويفارق غوغول الحياة في الرابع من آذار عام ١٨٥٢ . وتتخذ السلطات الإجراءات اللازمة لمنع اية مظاهرة معادية للحكومة في يوم تشييع الجنازة . ورغم المنع خرجت موسكو عن بكرة ابيها لتوديع الكاتب العظيم .

يقول تورغينيف : « مصيبة مؤلمة أذهلتنا . لقد مات غوغول . وليس هناك من قلب لم يدم في هذه اللحظات. فهو بالنسبة لنا اكبر من كاتب. . يجب أن يكون الانسان روسياً حتى يفهم من الذي فقدناه » . وبسبب هذه الكلمات تم اعتقال تورغينيف بأمر من نيقولاي الأول ونفيه من العاصمة . ونظم الشاعر الديمقراطي الثوري نيكراسوف قصيدة مكرسة لغوغول بمناسبة وفاته ورثاه تشيرنيشيفسكي بكلمات مؤثرة للغاية ، ورأى فيه معلماً للكتاب الديمقراطيين جميعاً .

غوغول فنان واقعي عظيم . ولإبداعه اهمية كبيرة في تطوير الأدب الروسي كله . وقد استحق لقب زعيم المدرسة الواقعية النقدية في الأدب بكل جدارة وذلك باعتراف جميع النقاد .

لقد اثر غوغول في تورغينيف ونيكراسوف وتلستوي الذين رأوا فيه معلماً كبيراً تأثيرا واضحاً . يقول تشيرنيشيفسكي : « كل كتاب عصرنا الموهوبين ولدوا من غوغول . وسار ساليتكوف شيدرين على النهج الغوغولي وقلده كلياً لدرجة ان النقاد سموه تلميذ غوغول الأول .

تقوم أهمية غوغول في مجال الآداب العالمية على أن ابطاله يعيشون فيما بيننا في كل مجتمع رأسمالي .

في الرابع من حزيران عام ١٩٥٢ وبمناسبة مرور مئة عام على وفاته القى الكاتب الانكليزي التقدمي جيمس اولدريج كلمة بهذه المناسبة في مسرح البلشوي بموسكو قال فيها : « لو اراد غوغول ان يصور المنافقين والأفاكين والظالمين في ايامنا لكان عليه أن يبحث عنهم في أماكن تواجدهم أي ليس في وطنه الحالي بل خارج حدود بلاده » . وقد اطلق عليه الكاتب البلغاري ايفان فازوف لقب « الفنان الساحر » وأنه ابو المدرسة الواقعية النقدية بلا منازع . إنه عبقري فريد من نوعه .

* * *

قصيدة « النيزك »

للشاعر الروماني
ميهاي إيمينيسكو
١٨٥٠ - ١٨٨٩

ترجمة : رياض هاني رعد

الشاعر ميهاي ايمنيسكو **Mihai Eminescu,**

١٨٥٠ — ١٨٨٩

من عظماء الشعراء الرومانيين ، ولد في ١٥ ك٢ / ١٨٥٠ في بلدة ايبوتشي حيث قضى فيها طفولته ودرس في مدرستها الابتدائية . ثم انتقل ليكمل دراسته الثانوية في تشيرناوتس وبلاج . سافر بعدها الى فيينا وبرلين لمتابعة التحصيل العلمي .

مارس مهنة التفتيش في ملاك التربية ثم مهنة الصحافة .

نشر اولى قصائده في مجلة الاسرة عام ١٨٦٦ ، له دراسات متعددة، وروايات ادبية باسلوب نثري متميز . مات الشاعر ايمينسسكو في سن مبكرة بعد ان ترك اكثر من عشرة آلاف صفحة من الادب الرائع .

ترجمت اشعاره الى عدة لغات عالمية .

القصيدة المترجمة « النيزك » تعتبر من اشهر اعماله الشعرية دون منازع .

« النيزك (١) »

الشاعر الروماني ميهاي ايمينيسكو

كان يا ما كان في غابر الزمـــان
شيء لا يخطــر في الاذهـــان
فتـــاة رائعـــة الجمـــال
تنحـــدرُ من اشهـــر الاصـــال ..

وكانت وحيـــدة لوالديهـــا
فخـــورة معتـــدة بنفسهـــا
كالعـــذراء بين القديســـين ..
كالقمـــر بـــين النجـــوم ..

من بـــين ظـــلال القناطر الفخمـــة
تتمشـــى قـــرب النـــافـــذة ..
وكان في الانتظـــار ..
نيزك وسيـــم ..

وكـــان يرقبهـــا من بعيـــد ..
ويرســـلُ اشعتـــهُ اللامعـــة ..
على الطرق المتحركـــة ..
ويظهـــرُ في البحـــار ..
مراكـــب ســـوداء ..

---

(١) النيزك ـ هو الشاب الوسيم او « نجمة الصبح » .

ما زالت ترقبه اليوم ..
وستبقى ترقبه أبدا ..
وبهذا تحقق رغبتها ..
ويراقبها منذ أسابيع ..
يتمنى أن تأتي إليه ..

ها هي بالحلم مفكرة ..
راسها بين ذراعيها ..
والنيزك وحده في الحلم ..
في القلب يعيش وفي الروح ..

وعندما تبدو له
تراه يشع في كل مساء
نحو ظل القلعة السوداء ..

ويسير بضوء يتبعها ..
حتى لو دخلت غرفتها ..
يتمايل شوقاً يترنح ..
والشرر البارد يتهادى ..
فيشكل وهماً من نار ..

وعندما تتمدد في سريرها
كي تنام
تضع يديها على صدرها ،
وتغمض أجفانها بهدوء

مــرآة تعكس صورتهــا
والضــوءُ يشع على الجســم
والعين الوسنى والوجــه ..

راقبتــهُ بابتســامــة
فارتجف الضوء على المرآة ..
فهو في حــلم يتبعهــا
كي تصبح روحهــا بــين يديــه ..

وهي تتحــدث في الحــلم
تتنهــد قائــلة :
يا فارس أحلامي دومــاً ..
لماذا لا تأتي الي .. ؟
ايهــا الخطيئــة ..!

اهبــط الى الاسفــل
ايهــا النيزك الجميــل
انحــدر بأشعتــك ..
اخترق البيت والفكــر
وأضىء حيــاتي !..

ها هــو ذا يصفي ويرتجفُ ..
ويشــع ، يتــلألا أكثــر ..
ويقــذف كالبرق بنفســه ..
ويغيبُ في قــاع البحــر ..

ودوائر عائمـة ظهـرت .
اذ سقط النيزك في المـاء ..
ومن الاعمـاق المجهـولـة ..
ظهر شاب فخـور ..!

اقترب النيزك بهـدوء
وتمهـل بقـرب النـافـذة
حامـلا بيــده عصـاً
مقصبـة ..

النيـزك ذو جسـم صلب
ذو شعر ذهبي اشقـر
والجرح مغطى بحريـر
في الكتف العاري ، كالكفن ..

وظـلالُ الوجـه الشفـاف ..
كانت بيضـاء كالشمـع
والميتُ جميـل ذو اهداب ..
بالنـور تشـع الى العـالم ..

قد جئت من عالمي بصعوبـة ..
كي اتبـع بالشوق نـداءك
فالسمـاءُ ابـي ..
وامي البحـر ..

ولدتُ منهمـا وأتيتُ .
كي أدخل غرفتـك ..
وعن قرب اتأملك ..

تعـالي ايا جوهرتي الغالية
واتركي دنيـاك ..
انا النيزكُ السمـاوي
وانت انت عروسي ..

وهنـاك في القصـور المرجانيـة ..
سـآخذك ونعيش قرونـاً عديـدة
وكل النـاس في هـذا المحيط
ستصغي اليـك ..

انت جميـل كمـا الاحـلام
تبـدو كمـلاك حقيقي ..
لكنـك عبر هـذا الطريق ..
لن تحقق الهـدف المنشود ..

انت غريب اللغـة ..
وغريب انت عـن المينـاء ..
تشـع ضياء من دون حيـاة ..
ميت انت .. وانا حيـة ..
وعينـك تجمـدني ..

□ النيــــزك □

يوم مــرّ .. ومــرٌ ثـلاثـة ..
والليـلة تأتي ثانيــة ..
والنيــزكُ في الاعلى يبـدو ..
نجمـاً بشعــاع ذهبي ..

يحتــاجُ اليهــا في النــوم
وعنــدما يذكرهــا ..
يكابدها الشــوقُ لرؤيتــه ..

اهبط للاسفــل ..
ايهــا النيزك الجميـــل ..
انحــدر باشعتــك
اخترق البيت والفكــر ..
واضىء حيــاتي ..

وعندمــا يسمعهــا في السمــاء ..
تنــادي ..
ينطفىء بالــم ..
وتبــدا السمــاءُ بالدوران ..
حتى النهــاية ..

في الكون الملتهب الاحمــر
سيبــدى النيــزك .. يتحـير ..
في جو من فوضى ..
أغبــر ..

وانعكس الضوء على الشعـر
الاســـود
فبــدا يتمــاوج كالنــار
والنيزك يتهـادى حقـاً
في وهج الشمس الذهبيـة ..

في الكفن الاســـود تظهـر
اطراف سواعـد من مرمر ..
وحزينـاً يأتي ومفكـر ..
ذا وجه مصفر شاحب ..

في الليل الداجي في الظلمـة
عينـاه الواسعتـان تشعـان
بشكل وهمي ساحـر
كعاطفـة حبلـى بالشوق ..

من دنيـاي أتيت
كي اسمـع صـوتك يا حبـي
فالليل والدتي .. والشمسُ أبي .

تعـالي يا جوهرتي الغاليـة
واتركي دنيـاك
انا النيزكُ السمـاوي
وانت .. انت عروسي ..

تعـالي بشعرك البراق الجميـل ..
والمتوج بالنجـوم ..
ولتشرقي في سمـائي
فانت شمسي دون النجـوم ..

انت جميـل كمـا الاحـلام
قوي كالجني ..
لكنك عبر هـذا الطريق ..
لن تحقق الهـدف المنشـود ..

الحب القاسي يؤلمنـي
ليتغلغـل دومـاً في صـدري ..
اما العينـان
فتحرقنـي ..

كيف علـيَّ ان اهبـط
وانا والمـوت ضـدان
لا يمكنـهُ ان يأخذني
اما انت .. فالى المـوت ..

لا ابحثُ عن كلمـات جوفـاء
لا اعرفُ من اين سأبـدا
وكلامك مفهوم واضح ..
وانا مـع ذلك لا افهـم ..

ان كنت ترغبُ ياحبـي
ان ابقى في قربك دومـاً ..
اهبط بسلام للارض
فتكون كالبشر مثـلي ..

انك تطلبـين ذلك
مقـابل قبـلة
فعليـك ان تعـرفي ايضـاً
كـم احبـك ..!

سوف أولد من الخطيئـة
وسأحصـل على قانون آخر
فأنا مرتبـط بالقـدم ..
واريد ان أعتق نفسي ..

وتمر الايـام
من أجـل طفـل ..
اقتطـع من بـرج عـال
وفقـد لعـدة أيـام ..

انـه كاتالـين ..
انه رجل من السمـاء ..
طفـل بيتي ماكـر ..
يمـلأ الاكـواب بالنبيـذ ..

والخـادمُ يثقـل خطوتـهُ
بملابس قصـر ملكيـة
صبي من الـورد
تائـه ..
يمتـازُ بجـراة نظرتـه ..

وخـدود حمـر ورديـة ..
وببطء يزحـفُ منتظـرا ..
وهو يراقبُ « كاتالينـا » ..

اصبحت جميلة كالوردة .
تتلظى بشـوق كالنـار ..
اقتربي الآن .. اقتربي
لتجربـي حظـك ..

وبشكل ناعم امسكهـا
وبسرعة عاشق بادرهـا .
ما تبغي مني « كاتالين » ؟
اذهب للعمل وانصرف ..

آمل الا تفكـر ..
دومـاً ..
وآمل ان تضحك اكثر
وامنحني من روحك قبلة .

لكني لا اعرف ..
ما تبغي ، ما تطلب مني ..
امنحني سلاماً وابتعـد ..
آه .. الشوق تملكني ..
من هــذا النيزك .. للموت ..

ان كنت لا تعترفـين
فبودي ان اريك الحب ..
من برعم ناعم ..
فلا تغضبي
واجلسي بهــدوء ..

ارجو ، بذراعك ضميني ..
من يدي اليسرى وخذيني ..
كالصائـد اذ ينشر شبكا ..

عينـاك الجا مدتـان
لعيني كظـل ..
واضحك مشتاقا للاعلى
حتى من اخمص قدميـك ..

للاسفل لينحـدر وجهي ..
عيناك للاعلى نحوي
ونراقب في نهم نفسينا
ونغيب بحياة حلوة ..

ولكي تتأكدي من صدقي ..
من شوقي اليك يا حبي ..
اطبع قبلاتي منحنيا
فتردي بالقبلة أخرى .

فهي تستمع للطفـل ..
مندهشة والطفل خجول ..
يتردد من رفض القبول ..

وتقولُ بهـدوء دومـا
اعرفك ثرثارا مثلي
انت لا تصلح في شيء
مع هذا انت تناسبني ..

لكن النيزك قد أشرق ..
من صمت النسيان تألق ..
ووهب الآفـاق ..
وحـدة البحـارة ..

وبشكل سري نامت ..
وامتلأت عين بالدمع ..
في وقت رحيل الامواج ..
نحو النيزك ..

بالحب الأبدي توّهج
وليتعبني الألم ويصعد
حتى لا أصل إليه ..

من ذاك العالم من بعدٍ ..
أرسلُ اشعاعك اخترقِ
اشعاعاً ينصحُ بالحزنِ ..
سأبقي احبه للأبدِ ..
ما دام يحيا في البُعد ..

ولهذا السبب ايامي
خالية مثل الخطواتِ
لكن ليالي غنية ..
بالسحر القدسي مليئة ..
وهذا ما عَدُت أفهمهُ ..

نعـم ..
انت طفـلة
فلنهرب في هذا العالم ..
بلا اثرٍ .. بلا اسمٍ ..

نحنُ الاثنانِ سنبقى ..
نتمتع بالصحة والقوة ..
ولسوفَ انسيك ابداً
شوقك للأمِ وللنيزك ..

□ النيـــــزك □

انطلق ايها النيزك ..
وحلق بأجنحتك في السماء ..
ففي كل تلك اللحظات ..
مرت آلاف السنين ..

السماء والنجوم ..
تبدو كبريقٍ واسع ..
والنيزك منطلق تائه ..

ومن اختلاط الوديان
في السماء
حول ذلك النيزك
الوضّـاء
كان يبدو كعهده الأول
ذا ضيـاء ..

والنيزك في الضوء الواسع
كالبحر المائج من حوله
ويطيرُ النيزك في تيهٍ ..
فكراً محمولاً بالشوقِ
إلى الأبدِ ..

ويطير من غير حدود
وعيون تمنعهُ النظر
ويحال الزمن في عبثٍ
أن يولدَ من وسط فراغ ..

لا يوجد شيٌ .. بل يوجد
عطش يرشفه النيزك ..
كالعمق الساحق ..
نسيانٌ أعمى ..

من ثقلِ أبديِّ اسود
الوالدُ يفصلني ..
واصبحُ مشهوراً دوماً ..
العالم يمدحني أجمع ..

اطلب مني ايها الإله
اي ثمن ..
لكن أعطني قَدَراً آخر
فأنتَ نبعٌ للحياة ..
ومانحٌ للموتِ أنتَ ..

استرجع مني ..
الغيمة الماطرة والرؤية ..
وامنحني لقاءَ ذلك ..
ساعةً من الحب ..

ايها الإله ..
لقد ظهرتُ من الفوضى ..
واليها ارغبُ في العودة ..
وبعثتُ من الراحة ايضاً ..
واليها دوماً أشتاق ..

هيبريـون ... (١)
تشرق كعالم كامل
من جهنم ..
لا تطلب اعاجيب
اورموزاً ..
دون شكلٍ .. واسماء ..

وتريد أحـداً من بشـرٍ ..
يشبهك ..
فتصبح كالبشـرِ ..
لكن الناس يموتونَ
وربما يولـد آخـرون ..

وفي الريح جميعهم يتيهون ..
كصحارى واسـعة تائهـة ..
وحين تتلاشـى امـواجٌ
تنهض امـواجٌ أخـرى ..
تتلوهـا امـواج ..

هـؤلاء محظوظون ..
من قبل القـدر محاصرون ..
ونحـنُ لا نملـك ..
لا الوقـتَ ولا المكـان ..
حتى الموت لا نعرف ..

---

(١) هيبيريون Hyperion : في علم الميثيولوجيا الاغريقية هو واحد من العمالقة كالشمس والقمر وهنا يقصد الشاعر : النيزك تماما . (المترجم)

مـــن صـــدر الأمـــس
يحيـــا مـــا ســـيموت اليـــوم
ان تعرضت شمسٌ في الســـماء ..
للانطفـــاء
تضـــيء شمسٌ مـــن جديـــد ..

ومـــن الأزل تظهـــر الحيـــاة ..
وعلـــى التـــوالي ..
تطعـــم المـــوت الحيـــاة ..
الكـــل ، يولـــد ليمـــوت ..
ويمـــوت ليولـــد مـــن جديـــد ..

لكـــن انـــت يـــا هيبيريون ..
ســـتبقى حينمـــا تســـقط ..
اطلـــب منـــي الكلمـــة ..
كي اعطيـــكَ الحكمـــة ..

هـــل تريدني ان أعطـــي ..
ذلـــك الفـــم كلامـــاً
حيثُ تتداخـــل الجبـــال مـــع الغابـــات ..
والجـــزر في المحيطـــات
بعـــد أن يطلق الأغنيـــة ..

ربمـــا تريـــد ان تظهـــر ..
عـــدالة ثـــم قـــوة ..
ارغـــب في اعطائـــك ..
الارض مجـــزاةً
فتجعلهـــا امبراطوريـــة ..

سـأمنحكَ أسـاطيل
تجـول البحـرَ عرضـاً ..
جيشـاً وسـلاحاً
يغـزو الأرض طـولاً ..
لكـن المـوت !..
هــذا شـيءٌ مسـتحيل ..

ولأجـل مـن تريـد المـوت ؟..
عـدْ وانحـرف ..
باتجـاه تلـك الأرض التائهـة .
وانظـر الى ما ينتظـرك ..

الى مكانـه المقصـود في السـماء
هيبيريون يعـود ..
وكمـا في الأمـس ..
سـينبثق النـور ..

المسـاء يكـادُ يـزول ..
ويبـدأ الليـل
ويظهـر القمـر بصمـتٍ
مرتجفـاً مـن المسـاء ..

ويبعـث ضـوءه ..
عبـرَ الطـرق الضيقـة ..
خـلالَ البسـاتين ..
وتحت أشـجار الزيزفون الباسـقة ..
جلسَ عاشـقان وحيديـن .

ايتهـا الحبيبـــة
دعي راســي على صـــدرك
لينـــام ..
تحت اشــعة العــين الصافيــة ..
الجميلـة الرائعـة ..

ومع اضــواء الليـل البــاردة ..
والســاحــرة ..
تدخــل الأفكــار قلبــي ..
وتقلــب الصمــت القديــم
على ليلتــي المــلأى
بالعواطف والأحاسيس ..

ويبقــى يخيــم علــيَّ
الــم يعتصر قلبــي ..
لانــكِ حبــي الأول
وحلمــي التــالي ..

ينظــر هيبريون من اعلى ..
حيثُ الدهشـــة في الوجــوه ..
وضــع ذراعــه حــول عنقهــا
فضمتــهُ بذراعيهــا ..

ورائحــة الورود الفضيّــة
تفــوحُ ..
ويســقطُ مطــرٌ حلــوٌ
على تاجــينِ لطفلــين ..
بضفائرهمــا الطويلــة ..
الجميلــة ..

هي ، سـكرى مـن الحـب
ترفـع عينيهـا وتشـاهد
ذاك النيـزك
وببـطء تبـوح برغبتهـا ..

اهبط الى الارض
أيهـا النيـزك
انحـدر بشعاعـك ..
واخترق الغابـة والفكـرِ ..
واضـيء حظـي ..

كان يرتجف كعادتـه ..
في الغابـات ..
وفـوق الهضـاب ..
يرشـد وحـده ..
الأمـواجَ المتحركـة ..

لم يعـد النيـزك كالماضـي ..
يسـقط في البحـر وعـن بُعـدً ..
مـاذا يَهمـكَ .. أيهـا الشكل الطينـي ..
ان كنـت انا او احـدٌ غـيري ؟

نعيشُ في دائرتنـا الضيقـة ..
الحظُ يسـعدكم ..
امـا انـا .. في عالمي ..
فأشـعرُ بالخلـود والسـرمدية ..

* * *

التحـــــدي

حكاية أديغيّة قديمة

ترجمها بتصرّف :

عز الدين سطاس

كان « امكوت » يهزأ كثيرا من الشباب المتزوجين حديثا . لسان لاذع لا يرحم ، يتحاشاه الشباب خوفا من ملاحظة تعقد اللسان ، وهربا من سخرية غير محمودة العواقب . سريع الملاحظة لا يخفى عليه شيء .

ـ كسالى ، تخرجون من بيوتكم وقد اسودت قمصانكم من الوسخ ، ولا يرف لكم جفن من الخجل ، اتعجزون عن اخضاع امراة صغيرة لاوامركم ؟ وانا المتقدم في السن تهابني قرى المنطقة .

طويل ممشوق القامة ، عريض المنكبين ، فولاذي القبضة ، حاد النظر ، حاجبان كثيفان وكذلك الشاربان ، في مشيته خيلاء ، وفي سلوكه تواضع ، لون اشقر ، عينان عسليتان اذا وعد وفى .

ذات يوم ، تشجع احد الشباب وقال له :

ـ سأزوجك اختي امتحانا لمدى صدق كلامك ، تفاهم معها ان كنت رجـلا .

احس « آمكوت » بالحرج فكر قليلا وغامر قائلا :

ـ اقسم ، ان لم انجح في جعلها طوع بناني ، لاقبلن على نفسي العبودية واجلس على المقعد الخشبي الصغير في عتبة بيت الامير .

الترحال والتجوال عادة قديمة شبت عليها الاجيال المتلاحقة من الاديغة ، يغيب الشباب عن الاهل اشهراً ، يخوضون غمار حياةالاغتراب، يقيمون صداقات حميمة هنا وهناك تكون بيوتا وملاجىء عند الضرورة .

تزوج «آمكوت» من الفتاة ، بعد ان عاد الشباب من الترحال ، وبقي في البيت اسبوعا لا يبارحه ، يحاول ان يبني مع زوجته الجديدة علاقة وطيدة ، تقوم على التفاهم والاحترام كان التحدي شغله الشاغل .

قطعان الماشية طوابير طويلة تدخل القرية من مداخلها المختلفة تملأ الازقة وفي الأماسي تعود من الحقول والمراعي شبعة مرتوية تحمل الخير الوفير مطمئنة راضية .

جلس مع زوجته على شرفة البيت يتسامر معها ، يستعرض القطيع فخورا بـه .

ـ انظري الى هذه البقرة ، لكم هي جميلة ؟ قال هذا واشار بيده الى بقرة ، تداخل في لونها الابيض والاسود في لوحة اثارت اعجاب سكان القرية ، وكان يحبها ويعتز بهـا .

تجاهلت الزوجة كلام الزوج وكأنها غير معنية به ، فأعاده عليها ثانية ، بينما البقرة تتابع طريقها ، وكانت محاولة عقيمة ، فانتفض واقفا ، وامسك ساعدها بقوة دفعتها الى الالتفات قبل ان تغيب البقرة عن الانظـار :

ـ انظري كم هي جميلة تلك البقرة ؟

ارتسمت على شفتي المراة ابتسامة فيها سخرية واستهزاء :

ـ اهذا هو الجمال ؟ بقرة ملونة ... ارجو ان يبعدها الله عني ...

دهش « آمكوت » وبقي في مكانه لا يحرك ساكنا كأن صاعقة نزلت عليه ، وما هي الا لحظات حتى نهض وخرج من الدار يبحث عمن يفرج كربته ، ولم يعد حتى منتصف الليل .

عاش الاثنان معا منذ تلك اللحظة والتفاهم ابعد ما يكون عنهما :

ـ هذا ابيض .

ـ لا ... ذاك اسـود .

ـ هـذا اسـود .

ـ لا ... ذاك ابيض .

الحت على معاكسته في كل شيء ، طلب منها تنظيف ملابسه ، اجابت انها مشغولة حتى ارتدى جميع قمصانه النظيفة واحدا تلو الاخر ، واضطر فيما بعد ان يبحث بين القمصان الوسخة عن اقلها وسخا .

أخذ الشباب يتهامسون كلما التقى بهم كانت اياما عصيبة ، فهو مضطرب ، حرج ، يغزو الخجل اعماق كيانه وعلى مسامعه يردد الشباب : القبة سـوداء كالفحم .

ادرك « آمكوت » الامر ، فقرر ان يقامر برصيده المتبقي ، وطلب من اصدقائه ومعارفه ان يسمحوا له بالترحال وحيداً .

خرج من القرية كمن لا يلوي على شيء ، دخل الغابة صار في وسطها ، رآته مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق كانت تعيش في الغابة ، هاربة من وجه العدالة ، تعيث في الارض فساداً ، وتنشر الرعب والخوف اينما حلت .

استغرب اللصوص ان يتجول فارس وحيداً في منطقة نفوذهم وتساءلوا ما الذي جاء به في مثل هذا الوقت الباكر من النهار ؟ من يكون ؟

قال رئيسهم :

ـ كيف تجرأ هذا الفارس على ذلك والفرسان تخاف الدخول الى هنا . . . اسرعوا اليه واستكشفوا وضعه .

عاد المستطلعون بسرعة وقالوا لزعيمهم الذي كان على احر من الجمر :

ـ حسامه يتململ ، يردد اغنية بصوت خافت ، اذنا حصانه منتصبتان ، الشرر المتطاير من منخريه يحرق العشب الاخضر .

ـ دعوه وشأنه ، قال الزعيم هذا واضاف : « ابعد عن الشر وغنِ له » .

تابع « آمكوت » طريقه ، واضعا نصب عينيه ، مائة من الخيول الصباح كانت لضابط كبير في الجيش القيصري اشتهر بثرائه الفاحش وتسلطه .

سـاق الجياد امامه ، وما أن ابتعد مسافة حتى قال للراعي :

ـ اسمع ، لن الحق بك اذى ، فانت عبد فقير . ويكفيك ما انت فيه ، كل ما عليك أن تعود الى معلمك وتخبره بما رايت ... ليطمئن قلبه ، فالجياد أصبحت عند « آمكوت » .

ارتعش الراعي حين سمع الاسم ، ولم يصدق نفسه انه ما زال حيـا ، تجمد في مكانه ونظرات « آمكوت » الثاقبة تخترق جسمه .

تابع « آمكوت » طريقه ، يسوق امامه المائة الصباح ، وسارع العبد، فرحا بنجاته ، وروى لقومه ما جرى معه ، هز الجنرال راسه وقطب حاجبيه ، والقى نظرة في الافق البعيد دون أن ينبس ببنت شفة . كان اسـم « آمكوت » كافيا لشل اكبر العمالقة عن الاتيان بحركة .

رآه اللصوص حين اقترب من الغابة ، أسال القطيع الاسود لعابهم ، وتساءلوا عن عدد الفرسان المرافقة ، عشرة ، عشـرون ، اربعون ... اختلفت التقديرات ، وتدخل زعيمهم :

ـ اذهب واستطلع امر هذا القطيع ، قال هذا مشيرا الى احدهم ..

ـ فارس واحـد ....

دهش الجميع وذهلوا ، فارس واحد يقود كل هذا القطيع ؟ مغامر يحتاج الى درس قاس ... مغرور لا بد من تمريغ انفه في التراب ... غنيمة دسمة ساقها القدر ... واتجهت انظار الجميع الى الزعيم الذي قال في غمرة هذه الدهشة وهذه الاراء التي تبلورت في ذهنه :

ـ اريد التأكد من حالته ... اذهب حالا يا ... واشار بيده الى انشطهم عاد النشيط بعد أن تلصص على .. « آمكوت » وراقبه عن كثب ووقف امام الزعيم :

ـ كأن القطيع يقود نفسه ، تمشي الخيول على جانبي الدرب وهي ترعى العشب ،أذنا جواد الفارس الوحيد مسترخيتان ، الفارس مثقل بالهوم ، يغالبه النعاس ، يتدلى راسه بين الحين والاخر ، يكاد يلامس عرف الجـواد .

ـ اذن ، ليذهب اربعة منكم الى هذا الابله ... اريده حيا ...

احضروا « آمكوث » مقيدا ، ربطوه على جـذع شجرة ضخمة ، نحروا فرسا ، اوقدوا النار لاهبة ، وضعوا القدر على مثلث الاحجار ، وجلسوا ينتظرون الوليمة ، الكتل الجبلية الضخمة ، القمم الشاهقة ، الوديان السحيقة ، الغابات الكثيفة ، الانهار الهادرة ، السهول الخصبة ، العادات والتقاليد دستور ارتقى الى مراتب القدسية ، « آمكوث » ابن هذه الطبيعة الخلابة ، والمناظر القاسية ، والعادات والتقاليد العريقة ، بات أسيرا مغلولا ، تحت رحمة مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق .

شم الدب رائحة اللحم ، فخرج من وكره منفتح الشهية وقف على مرتفع قريب ، فهقه الدب وعربد ، وأزبد وارغى ، واخذ يقذف المجموعة بالاحجار وجذوع الاشجار ، وكتل الطين التي انهالت كالحمم البركانية .

اختلطالحابل بالنابل ، تصايحوا : هيا نرحل ... لن يدعنا هـذا الخبيث نهنأ ... فكوا وثاق الاسير ، واربطوه بأحد الخيول ... وحين اقتربوا من الاسير وجدوه يذرف الدمـوع ضحكوا واستهزؤوا منـه ، وتراكضوا الى الزعيم : اسيرنا يبكي كالنســاء .

جاء الزعيم متعجبا :

ـ لماذا تبكي ايها الكسول ... كنت مغرورا حين خرجت للغزو وحـدك ...

ـ لست مهملا (تنبلا) .. ولا أبكي خوفا .. ولا انكر وجود من هو اقوى مني واشجع .. لم تتوقف النساء عن الانجاب .. الرجل تلده المراة ... انما ابكي رجالا اقويا .. أدخل دب الرعب والفزع في قلوبهم .

ـ ما العمل ؟

ـ دعني أصارع هذا الملعون ، اقسم بشرفي الاديغي أن لا أهرب .

تشاوروا فيما بينهم ، وقرروا بعد نقاش لم يدم طويلا :

دعوه ... سنرى ماذا يفعل ..

طلب منهم « قامة » (٢) ، اقترب من شجرة بلوط ، قطع غصنا ، شذب طرفي قطعة منه أكبر من قبضته قليلا ، عرضها على اللهب ، اصبحت قاسية ، فانطلق نحو الدب بخطى واثقـة .

عبثا رشقه الدب ، أخطأ الهدف ، احس بالخطر الداهم فحاول الهرب . سارعه الاسير وامسكه من ذنبه الصغير . هاج الحيوان وماج وأدار راسه غاضبا يريد ان يلتهمه .

أدخل الاسير قبضته اليسرى الى الشدق الفاغر ، وضرب الفك السفلي بمقبض القامة ، فانغرز طرفـا القضيب الحاديـن في الفكـين المنطبقين . شد يده اليسرى فمد الدب راسه مرغما ، وهوت القامـة كالصاعقة على الرقبة الممدودة .

رمى آمكوث الراس جانبا ، وعاد محملا بالجسد الملطخ بالدماء ، القاه في القدر متباهيا ، وأعاد القامة الى اللصوص ، واستند الى جذع الشجرة ، فجاء أحدهم وأوثقه ثانيـة .

---

(٢) سـلاح ابيض خاص بشعوب القفقاس ولا سيما الاديغة . طوله وسط بين السيف والخنجر ، حـاد مستقيم .

بينما كان اللصوص يلتهمون الطعام ، قال احدهم :

ـ وددت لو ارى فروسيـة ذاك الذي يدعى « آمكوت » انه ذائع الصيت .

ـ من رآه منكم ؟ قال الزعيم وتفرد في الوجود ، غير ان احدا لم يدّعي معرفته ، فأضاف : اسألوا الاسير ، ربما رآه يومـا فهو كثير التجـوال .

ـ بلى رأيته ، وعرفته عن كثب ، رعيت الخيل معه مدة ، كان يقول لي : انت سريع التعلم ، سوف تحل مكاني في الفروسية .

ـ لم لا ... فكوا وثاقي ...

ابلغوا الزعيم فرحين ، ولكن الزعيم ابدى تحفظا على هذه الاندفاعة :

ـ يا قوم ، اخشى من عاقبة ان تركناه حرا ... رأيتم ماذا فعل بالـدب .

تضاحك القوم وقالوا : ماذا عساه يفعل ، وحيد ونحن جمع من الفرسان ، قد يحاول ، وحينذاك سوف يلقى مصيره الاسود .

تجاوب الزعيم مع رغبتهم ، وطلب الاستفسار عما يريد .

ـ حسامي وحصاني الافكح .

مطلب متواضع ، نقل الى الزعيم الذي حذر القوم من مغبة هذا الامـر :

ـ يا قـوم ، لا تتغافلوا ، نصبنا كمينا ، والقينا القبض عليـه غـدرا ..... ان اطلقنا سراحه سوف يفلت من ايدينا ولن نتمكن منه ثانيـة ....

تقدم احدهم وقال :

ـ والله ، لن يتحمل أكثر من ضربة واحدة ... ماذا بمقدور هذا الحقير ان يفعل ؟ وقد تكاثف حاجباه وتدلى شارباه .

تجاوزوا رأي الزعيم ، واطلقوا سراحه ، واعادوا له حسامه العتيق وحصانه الافكح . وتركوه وشأنه محاصرا بين اربعين فارسـا .

صاح صيحة مدوية ، اجفلت الخيل ، اتبعها بضربة سوط ، احدثت صوتا حادا أرعب الخيل ، وثارت ثائرة جواده ، انتصبت أذناه كالسهم ، وانطلق بقوة نحو الزعيم .

شد آمكوث اللجام ، وقف الجواد على طرفيه الخلفيين ، دار في المكان يحفر الارض الصلبة بحافريه . ضربة ثانية ، فقفز الجواد من فوق فارس كان امامه . أطلق له العنـان .

حاول الفرسان اللحاق به ، وكانوا مغرورين ، وحين ابتعد عـن المكان وتوارى عن الانظار . ربت على كتفه وهدأ من سورته ، وظل يجامله الى ان استعاد الجواد وعيه .

يئس الفرسان بعد ان خاب املهم . وانتشروا في الغابة فرادى ، كانوا جهلة . وما هي الا دقائق حتى كر عليهم ، واسقطهم ارضا ، الواحد بعد الاخر ، كل يئن من اصابته ، واقترب من الزعيم والشرر يتطاير من عينيـه :

ـ يا ابن الكلب ... اعد الي قامتي .. فلست من يحمل سلاحي .

فــك الزنار المرصع بالفضة المزركشة وقدمــه مع القامــة بيدين مرتجفتين ، لم يكن امامه اي خيار آخر ، ائتمر فأطاع ينشد السلامة . كان في حالة يرثى لها .

ليس جميلا ان ادعك وشأنك دون ان اترك لك ذكرى خالدة ، قال هذا وبلمح البصر جدع أنف الزعيم بالقامة واضاف :

ـ منذ الان لا تصاحب من لا يأخذ برايك والا سوف أقتلك .

احس الزعيم بالاهانــة ، ولكنه تقبلها برجولــة واستأذن منه ان يسألــه :

ـ ما اسمك ؟

ـ أنا المدعو « آمكوث » .

هز الزعيم رأسه كمن تيقن من شكوكه وقال :

ـ لماذا تفاقلت هكذا ، فوقعت بين ايدينا ؟ في الذهاب توجسنا منك الخوف ، فلم نتحرش بك ، وفي الاياب شجعتنا حالتك المزرية فالقينا القبض عليك ، فما سر ذلك ؟

ـ لا بأس ان اشرح لك ... لا اهاب مائة فارس حين ادير ظهري للبيت . وحين أقبل على البيت يكفي ان يجفل حصاني من ارنب صغير لاسقط من صهوته . الهموم تطاردني ، تدفعني في الذهاب وتثقل كاهلي في الايــاب .

انتشر غياب « آمكوث » الطويــل في البلدان المجاورة وراى امــير القالموق في هذا الغياب فرصة سانحة لغزو بلاد الاديفة وسلبها ، وسار على رأس جيشه ، تراوده أحلام النصر .

عسكر الجيش بالقرب من بلدة « آمكوث » وارسل رسولا يحمل مطالبه . رحب به امير القرية واحسن استقباله .

قال الرسول : اوفدني اميرنا المفدى ، ويطلب منكم ان تقدموا له ربع خيولكم وماشيتكم ، وخمس نسائكم ، وان رفضتم لن يبقي أديغي واحد على قيد الحياة .

كانت مطالب قاسية ، يصعب على الابي ان يقبل بها ، وطلب الامير الاديغي ان يمهل اسبوعا حتى يتدراك الامر . وعاد الرسول الى اميره محملا بالهدايا .

جلس الامير الاديغي يفكر في حل يحفظ ماء الوجه ، وتمنى لو لم يعش هذه اللحظة . عدو لا يرحم على ابواب القرية ، يمنن النفس بالغنائم والسبايا ، وقرية صغيرة بوغتت على حين غرة ، والبطل « آمكوث » غائب من الحمى لا أثر له .

أستمر الامير الايغي قواه المحدودة استعدادا ليوم حاسم ، وعقد مجلسا حربيا يتابع آخر تطورات الموقف ، وارسل بعض الكشافين بحثا « آمكوث » ولكن انتظاره طال وشارف الاسبوع على الانتهاء

في اليوم ما قبل الاخير ، راى الامير الأديغي فارسا يعدو باتجاه القرية ، فخرج من الدار على عجل :

ــ لك البشرى أيها الامير المفدى .

ــ ما الخبر ... قل بسرعة .

ــ أصبح « آمكوث » في مراعي القرية .

تنفس الامير الصعداء وكافأ عبده .

ـ وهبتك الحرية ايها ... لك عشرة من أجود الخيل أيها الحر .

وصل « آمكوث » مع الغياب ، يسوق امامه الصبـاح وجيـاد اللصوص ، وهب سكان القرية عليه مرحبين بعودته سالما غانما ، وآملين بنصيبهم من الغنائم .

وقف وسط الحشد ، وخاطبهم قائلا :

ـ يا قوم ، عودتكم ان اوزع عليكم كامل الغنيمة ، يا ابناء قريتي الحبيبة ، يا اعزائي لكم الاحصنة ولي الافراس ... استميحكم العذر ...

التقى زوجته في الدار ، فبادر « آمكوث » زوجته قاطعاً عليها اسئلتها :

ـ كيف ترين هذه الخيول الرائعـة ؟

ـ لكم عقلك صغير يا كثير التجوال والغياب قليل الغنائم ... اي جمال تراه في هذه الخيول السوداء ؟ اهذا ما عدت به بعد طول غياب ؟

احتار آمكوث في امر زوجته ، اسودت الدنيا في عينيه ، وتمنى لو لم تلده أمه ، وبينما هو في هذه الحيرة ، والزوجة تهم بالانصراف تاركة زوجها الاتعب شاردا هائما ، أتاه الامير وهو يلهث :

ـ هيا اسرع ايها البطـل ....

مشى « آمكوث » مع الامير دون ان يستفسر او يسأل كما هي العادة عند الاديغة ، وحين وصلا بيت الامير عرض المجلس الحربي المشكلة امامه . وبعد ان سأل عن التطورات المتبلورة عندهم قـال :

ـ اخبر امير القالمون ان الموعد انتهى ... وقل لهم ان كنتم ترغبون في العودة الى بيوتكم سالمين ، سلموا هذه الليلة جميع اسلحتكم وخيولكم . الويل لكم ان اشرقت الشمس عليكم .

ـ ثارت ثائرة امير القالمون ، وقبل التحدي جاهلا بعودة (آمكوث) البطل ، وهدد وتوعد باقتلاع الاديغة من جذورهم ، وتدمير بلادهم عن بكرة أبيها ، ويحولها الى خراب يغطيه نبات القرّيص .

مضى الليل ، وتقابل الجيشان ، وصال (آمكوث) وجال ، يصب جام غضبه ، وتقهقر جيش القالمون ، يجر اذيال الخزي والعار ، تاركا وراء مئات القتلى والجرحى وعــاد جيش الاديغة ، بعد ان سطر صفحة مــن صفحات المجــد والفخــار .

كانت ليلة رهيبة ، ثقيلة الظل ، بطيئة الحركة ، سوداء ، صامتة صمت القبــور .

كانت معركة حامية الوطيس ، دامت ساعات معدودات خيل للبعض دهرا طويلا لا ينتهي ، وللبعض الاخر لحظات لا يتنسى المرء انقضاءها .

نشوة النصر العارمة هربت من يدي « آمكوث » حيث اقبل على البيت . نادى زوجته ، اسرعت على غير عادتها ، رسمت القامة على وجهها صليبا ، لم تتحرك ، كانت عنيــدة :

ـ ليس من عادة الاديغي أن يرفع يده على امراة ، وانا كذلك ... انما أردت أن أترك لك ذكرى تخلدني في أعماق اعماقك . قال هذا ونادى الخادم بصوته الجهوري :

ـ جهز العربة ، ولكن دون وسادة او فراش . وخذها الى اهلها مع الخيول الصباح .

سرعان ما أدركت المراة معنى العربة الخالية من الاثاث ، اكفهـر وجهها ، وأرادت لو تصيح ملء شدقيها . ألقت نظرة الوداع على كل شبر من الدار ، وانطلق الخادم يقود العربة التي كان وزنها يخف كلما ابتعدت عن القريـة .

وتوجه « آمكوث » الى بيت الامير حاملا المقعد الصغير ، وجلس عليه امام العتبة والنشوة تغمره .

قام الامير والنبلاء متأثرين بالمحنة التي اصابت بطلهم وكادت تقضي عليـه :

ــ ليس هنا مكان أمثالك أيها العزيز « آمكوث » . . . هيا تفضل ، لك الصدارة دون الاخرين .

اغرورقت عينا البطل ، ولكن الدمعة ابت ان تسقط . وتزوج من ابنة الامير ، وعاش معها بقية العمر سعيدا .

* * *

الغُراب

شعر:
إدغار آلن بو

تعريب: خالد داد آغا

في ليلةٍ موحشةِ الدجى
غادَرَها حبيبُها القمرْ
وبينما كنتُ ، على ضنى
مؤرَّقاً ، أقلّبُ الفكَرْ
في كتبٍ غريبةِ الرؤى ،
منسيّةٍ ، باهتةِ الصورْ
وبينما أوشكتُ أن أغفو
إذا بنقرٍ زانه اللطفْ
يطرقُ بابَ حجرتي
يردُّني عن غفوتي
تمتمتُ في فتورْ :
« لعل زائراً أتى يطرق باب الحجرة المقرورْ » .

* * *

اذكـرُ أنَّ ذاكْ
قـد كـان في كانـونْ
اذكـر كل جمـرة في الموقد المحزونْ
قـد رسـمتْ ظـلاً
على بـلاط الحجـرةِ المقـرورْ
قـد رسـمتْ ظـلاً
اذكـر اني تفتتُ للصبـاحْ
انْ يطلـعَ الصبـاحُ أنْ أرتـاح
أن تهـدأ المخـاوف المجنونـةُ الجمـاحْ
وعبثـاً بحثـتُ في الكتـابِ عـن عـزاءْ
فامتنـع العـزاءُ في لَيْنـوَرْ
في غـادةٍ نـادرة ، باهـرة البهـاءْ
ملائـكُ السـماء في السـماء
يدعونهـا لَيْنـورْ
لا تحمـل اسمها هنا على مدى الدهـورْ

* * *

واهتزت السـتائر الحريـرْ
تنـذرُ بالثبـورْ
حزينـة محيَّرةٌ ،
تثـير أشـجاني
بلونهـا القـاني
تهـزّني ، تملـؤني رعبـا
رعبـاً غريبـاً أرعـدَ القلبـا

مـا عـرف الشـعور
شـبها لـه مـا عـرفَ الشـعور
ورحـت كي اهـدىء الوجيـبْ
في قلبـي المكـروبْ
مـــردّدا
مخـاوفي مبـدّدا :
« لعـل زائـراً أتـى
لا ريـب زائـر اتى يطـرق بـاب الحجـرةِ المقـرورْ

* * *

تبـددتْ هواجسـي
وانقشـعتْ وسـاوسي
وقلـتَ كالمخمـورْ :
« معـذرةً يـا سـيدي
أو ربمّـا سـيّدتي
قـد ردّني عـن غفـوتي
نقـرٌ علـى بـابي
لامسـ أعصـابي
فيـه مـن الفتـور
مـا لـم اكـد احسـّهُ
كـان رفيقـا مسـّهُ
لعلكـم أدركتـم بأنني مغـدورْ
هنـا فتحـت البـابْ
فلـم أشـاهد خلفـه شيئاً سـوى الديجـورْ

* * *

وفي ظـلام الليـل رحـت أنظـرْ
محـدّقاً ، أفكّـرْ
أخـافُ ، ارتـابْ
والقلـبُ وثّـابْ
احلم أحلاماً على اعتابها ينتحر الشعور .
لكن صمت الليـل ظل جاثمـا ،
كالطود ، كالكابوس ظلّ جاثمـا .
همست : « يالَينوُرْ »
ردّد باقتضـاب ،
ولم يزد عن قول : « يالَينوُرْ »

* * *

ولم اكـد أرتجُ باب مخدعي
والذعر مشبوبُ اللظى في أضلعي
حتى توالت ضربة الطارقِ
اقوى من السابقَ
فقلت : « لاريب اذن بذاكْ
شيء يهزّ سلكة الشبـاكْ
دعني إذن أكتشف السرا
دعني إذن أستطلع الامرا
دعني أهدىء لحظة فؤادي المذعور .
لا شيء غير الريح والضبابْ
لا شيء غير الريح والضباب والديجورْ »

* * *

هنا دفعت باليدين دَرْفةَ الشباكْ
فاذا غراب حالك كلشؤم كالهلاكْ
يدخل مختالا كالفارس الجسورْ
يسير مزهو الخطى ، لا يعرف الخضوع
يحتل فوق الباب والتمثال مقامه الرفيعْ
ويطمئن جاثما كالقدر المقدورْ
له وقار سيد من سالف العصورْ

* * *

ثم أحال الطائر الابنوسْ
كآبتي الى ابتســـامْ
أحالها بالصمت ، بالوقار ، بالعبوس
أحالهـا الى ابتســـامْ
فقلت مثنيـاً عليه في حبورْ .
« نبيء أخاك أيهـذا الطائر العظيمْ ،
نبيء أخاك باسمك الكريمْ ،
في عالم الظلام والرياح والبحورْ ،
فأنت رغم ريشـك المنتوفْ
ورغم مالاقيته من الدجى المخوفْ
تبـدو جليلاً رائعـا ،
ولست بالحقـودْ
أجابني الغراب باقتضاب :
« لا ، ذاك لن يكون على مدى الدهـور »

* * *

ورغم أنّ ردّه قد جاء مختصرْ
وكان غير مقنع بل غــير منتظر ،
لكنــه أدهشني ،
أدهشني جــدّاً
أن يسمعَ الغـــراب
أن يحسنَ الردّاً .
أنتم معي على اتفــاقْ
جميعنـــا على اتفاقْ
بأنــه ما من بشرْ
تباركت عيونه بنعمة النظرْ
الى غراب قادم من عالم مسحورْ
يجثم فوق بابه مدعيا أنّ اسمــه
« لا ، ذاك لن يكون على مدى الدهور »

* * *

وظل بعدها الغراب ظل جالسا
بغير ذلك الحديث ليس نابســا
كأنمــا قد سكب الروح
في قوله المأثور ،
ولم يحــرك ساكنــا
بل ظلّ ثمّ آمنــا
فقلت في فتــور :
« يترك بابي في غــد
يمضي مع البكــور
كما مضت من قبله

رفاقــه الطيــور
كما مضت آمالي العراض
يمضي مع البكــور
اجابني الغراب باقتضابْ
« لا ، ذاك لن يكون على مدى الدهور . »

* * *

افزعني أن يصدع السكون
جوابه الموزون
فقلت : « لاريب بأن ما لديه من مخزون
جميع ما لديه من مخزون
افرغه في قوله المأثور
قول تلقاه عن سيد مقهــور
لاقى من الوبال والثبــور
ما لم يغادر عنده شيئا من السرور
الا اكتئابا عمره يطوى مع النشور
ملخصا انشاده بقوله الغراب :
« لا ، ذاك لن يكون على مدى الدهور . »

* * *

لكنمــا الغــرابْ
ظلَّ بتلك الحــالْ
مراودا بالابتسـام حلكة الخيالْ
لذا دفعت نحوه ونحو ذاك البابْ
ونحو تمثال أثينا المعقد الوثير
لاصل الخيالَ بالخيــالْ

لاتبع السؤال بالسؤالْ
عما عسى يقصده ذاك الغراب الاكمْ
ذاك الغداف الاشـأمْ
بذلك النعـاب :
« لا ، ذاك لن يكون على مدى الدهور.. » .

* * *

غرقت بعدها في الظن والتخمـين
ولم أوجه لفظة للطائر اللعـين
تحرق مقلتـاه
حشاشة الحيـاة
في قلبي المكسـورْ
والراس فوق المخمل الاثير
يعادو الظنون والتفكير
ودفقـة من نورْ
تمسح وجه المقعد الوثيرْ
المقعد الذي يشتاق أن يثابْ
بلمسة تمنحها حوريتي لينور

* * *

ثم بدا الهـواء في المكانْ
اثقل مما كـان
مباخر غابت عن العيـان
قد عطرت انفاسه
بأنفس البخـور
تديره ملائك السمـاء

أحسّ وقع خطوها وسحبة الجناح
على بساط الحجرة المقرورْ
مخاطبا ذاتي صحت :
« أيهـا التعيس ،
الهك الرحيم في العـلاء
ارسل هـؤلاء
لتمنح العـزاء في لينورْ ،
لتمنح العـزاء ،
فعبّ من سلوانها ، عب من الحبورْ ،
ولتنس لينور الهوى ،
ولتنس ذياك الجوى ،
على مدى الدهـور »
أجابني الغرابْ باقتضابْ :
« لا ، ذاك لن يكون على مدى الدهور . »

* * *

يا ايهـا الرسولْ يا كريـم
بل أيها الشيطـان يا رجيم
سيان عندي من تكون
مجربا ، أو هاربا يخشى من المنون
نبىء أخاك أيهذا الطائر العظيمْ
نبىء أخاك الصدق بالئيمْ
نبىء أخاك
نبئه هل هنـاك
من بلسم في أرض جلبادا

يحمل اسعادنا
كبرا به الجراح
تشفى مع الصباح
من فقــده لينور ؟
اجابني الغراب باقتضاب :
« لا ، ذاك لن يكون على مدى الدهور . »

* * *

يا ايها النبي يا كريم
بل ايها الشيطان يا رجيم
بالحب بالسماء تظلنا بربك الغفور
نبيء فؤادا حزنه عظيم
هل سيرى في جنة النعيم
معانقا حسنــاء
ابهى من البهــاء
ملائـك السمــاء
يدعونهــا لينــور
اجابني الغراب باقتضاب :
« لا ، ذاك لن يكون على مدى الدهور . »

* * *

تلك اذن يا أيها الغراب
عــلاوة افتراقنا
هل تسمعني ايها الشيطان ؟
علامــة افتراقنــا
وقمت واقفــا

اهز قبضتي في الهواء راجفـا
وصحت كالمسعـور
« فلترجعن الى الرياح ،
الى شواطىء الجنون والجراح
لا تتركن ريشة سوداء واحـدة
رمزا لما فاحت به منك الشفاه البارده
دع وحدتي يا سيدي !
دع وحدتي !
ولتهجرن حجرتي
ولتنزعن منقارك اللعـين
من قلبي المكسـور
ولتنزعن رسمك المهين عن بابي المقرور !
أجابني الغراب باقتصاب :
« لا ، ذاك لن يكون على مدى الدهور . »

* * *

وظل ذلك الغراب ظل جاثمـا
ولم يحرك ساكنا بل راح حالمـا
يحلم فوق الباب والتمثال
يغمره نور من المصباح كالشلال
كانما في محجريه مقلتا شيطان
وظله على المكان يمـلأ المكان
يلفني ، يغتالني ، يغتـال دفق النـور
في قلبي المكسور
يسكن روحي ظله على مدى الدهور

* * *

آفاق وتنوع الأدب الجديد في جمهورية ألمانيا الديمقراطية

- بقلم د. فرناتي كفيلينس
- ترجمة نزار عبد الله
- مراجعة: هند خوري

عصر يوم في حزيران

تأليف كريستا فولف

ترجمة: أكرم محمد

لقاء رحلة

○ بقلم: آنّا زيغرز
○ ترجمة: د. نبيل حفار

الرّبيب

- تأليف: غونتر روكز
- ترجمة: ذهني قوطرش

المسمار الثّالث

بقلم هرمان كانت

ترجمة: أكرم محمد

آفاق وتنوع الأدب الجديد
في جمهورية ألمانيا الديمقراطية

• بقلم: د. فرانك كفيلينتس
• ترجمة: نزار عبد الله
• مراجعة: هند خوري

لقد وضع تأسيس اول دولة للعمال والفلاحين عام ١٩٤٩ على ارض المانية حجر الاساس لنشوء علاقات ادبية جديدة في نوعها ، تلك التي حملت الكتاب ، مثلهم مثل مسؤولي السياسة الثقافية والناشرين والنقاد وعلماء الادب وملايين القراء ، درجة عالية من المسؤلية والمشاركة في بناء المجتمع الاشتراكي . ولقد ازدهرت الحركة الادبية خلال اربعة عقود من السنين ، وساهمت بشكل فعال في اعطاء سمعة طيبة لالمانيا الديمقراطية ، عبر تقديم صور عن الحياة في ظل الاشتراكية للكثيرين من الذين يعيشون خارج حدود جمهورية المانيا الاتحادية . يرى « هرمان كانت » رئيس اتحاد الكتاب في جمهورية المانيا الديموقراطية تاثير الادب الكبير في كونه اصبح قضية جماهيرية واجتماعية وشخصية مترابطة . وفي كونه اصبح

قضية علنية ، تربط الاجتماعي بالشخصي : « لقد ساهمت كتبنا في تشكيل وعي مواطني هذا البلد ، وبتفتح شخصياتهم . ودعمت هذه الكتب عمليات التفهم والاستيضاح ووضعت النزاع والمزاح في حركة دائبة ، وخدمة المساواة بين البشر ، وشحذت الشعور بالمواطنية ، وقوت التضامن والترابط الاجتماعي . كما ساعدت البعض في اكتساب الرغبة في الحياة ، او في اكتشافها مجددا . وقامت كتبنا بنصيبها في تقوية العزم للدفاع عن هذه الحياة بقوة أعظم » .

وفي هذه الاثناء دهش الناشرون واصحاب بيع الكتب في الجزء الراسمالي من العالم من خبر ان « جمهورية المانيا الديمقراطية هي بلاد القراء » . نذكر في هذا المجال انه يطبع حوالي ٦٥٠٠ عنوان سنويا في المانيا الديمقراطية بمعدل ١٥٠ مليون نسخة ، هذا من الجانب الكمي . واذا اخذنا في اعتبارنا ان الكثير من الكتب تنفذ خلال ايام او اسابيع ، نستطيع ان نأخذ فكرة عن جودتها . بالطبع ليس الاهتمام بالكتب واحدا عند جميع شرائح الشعب في المانيا الديمقراطية . بيد ان ذلك ليس حكرا وامتيازا للمثقفين ، بل انتشر في جميع الاوساط الاجتماعية . ولا شك ان الدعم الذي جعل اسعار الكتب متدنية ، يسر ذلك الانتشار الواسع ، وان يكن بدرجات مختلفة ، ولان الناشرين راعوا في اعتباراتهم الرغبات الثقافية لشتى الشرائح الاجتماعية . يمتلك اليوم اعتمادا على احصاء نشره السيد « كلاوس هوبكي » نائب وزير الثقافة حوالي ٤٠ ٪ من الاسر في المانيا الديمقراطية حتى ٥٠ كتابا . اما بالنسبة لـ ٢٠ ٪ من الاسر ، فيصل عدد الكتب بين ٥٠ ــ ١٠٠ كتابا . وبالنسبة لـ ٢٠ ٪ اخرين يتراوح عدد الكتب بين ٢٥٠ ــ ١٠٠ كتابا . في حين ان ٩ ٪ من الاسر تملك بين ٢٥٠ ــ ٤٠٠ كتابا ، و ٧ ٪ من الاسر تملك اكثر من ٤٠٠ كتاب .

وهكذا يبلغ مجموع ما يملكه ١٧ مليون نسمة في المانيا الديمقراطية ٦٥٠ مليون كتاب ، يضاف اليها ١٢٠ مليون كتاب في مكتبات الدولة والنقابات موضوعة تحت التصرف للاعارة دون ما مقابل .

ثمة دعامة ثانية مهمة دعمت ازدهار الادب بنجاح ويسرت تطبيق العملية الثقافية، الا وهي سياسة السلام، التي تتبعها باصرار الدولة الاشتراكية. وقد صادق المؤتمرون في المؤتمر العاشر لاتحاد الكتاب على أيضاح يتضمن مـا يلـي :

نؤمن بالسلام ، ولقد حققت الانسانية ، المهددة بالفناء الذاتي الحلم الطوباوي الا وهو نزع السلاح ، وفي هذه اللحظة المشجعة نعزز تضامننا مع جمهورية المانيا الديمقراطية والتي شعارها السياسي الحكومي والأعلى « السـلام » .

لا ينفي وجود توافق اساسي بين المصالح والاهتمامات الشخصية والاجتماعية ، وجود تناقضات وتوترا في حالات فردية ، ولا يحفز باي شكل من اشكال اهمية الجهود المستقلة ، التي تبذل في حقل الادب ، انما يجعلها اكثر فعالية . كتاب رواد امثـال « هيرمان كانت » و « كريستا فولف » ، يتصدون دون كلل كاصحاب مبادرة وكداعين لمؤتمرات دولية للكتاب ، أو كمشاركين في مثل هذه اللقاءات من أجل الحفاظ على السلام ، ومن أجل نزع السلاح ومن أجل العودة الى الانفراج وتخفيض حدة التوتر . يستطيع اتحاد الكتاب في المانيا الديموقراطية بالنسبة لموضوع تحمـل المسؤليات الاممية، ان يشير الى سلسلة طويلة من التراث بدءاً من مؤتمرات الكتاب الدولية في أول الثلاثينات في باريس ومدريد ، وصولا الى لقاء فايمار عام ١٩٦٥ وبرلين عام ١٩٨١ حتى الوقت الحاضر . ان لقاءات

الكتاب بمناسبة مرور ٤٠ عاما على التحرير من فاشية هتلر في عام ١٩٨٥، و « برلين مكان للسلام » في عام ١٩٨٧ بمناسبة عيد ميلادها ٧٥٠. يضعان العمل المشترك ، الذي اثبت فعاليته ، فوق كل ما يسبب التباعد والفرقة بالطريقة التي طبقت بين الجمهورية العربية السورية وجمهورية المانيا الديموقراطية وقبل ذلك في صوفيا وبودابست وموسكو . يتحمل كل كاتب مسؤولية رفيعة حيال الكلمة المكتوبة ، في مجال مساهمته الادبية الشخصية . وقد انتشر في المانيا الديموقراطية الراي القائل ان الاديب يناضل من أجل السلام ، اذا انصرف للاهتمام بوظيفته الاصلية ، وهي اعادة تشكيل الواقع بكل انعكاساته ، وتناول جميع جوانب حياة الانسان . لقد كان الادب في المانيا الديموقراطية ولا يزال وسيظل يعمل من أجل السلام ، وسيظل معاديا للفاشية والعنصرية والامبريالية ، كما وسيظل يسهم بشكل فعال من أجل سيادة الانسانية .

عندما احاول فيما يلي التعرض بالايجاز المتاح لتطور الادب المعاصر في المانيا الديموقراطية ، فلن استطيع التحدث الا بشكل جزئي ، ومقتصرا على الاتجاهات الاساسية فقط . ولا يمكن ايضاح سمات عملية التطور ، الا عبر امثلة . ولا يمكن ان يطرح السؤال على الشكل التالي : ما هي السمات المميزة للادب في الثمانينات ؟ لان فصلا حادا عن عملية التطور في السبعينات غير ممكن ، فالادب يتأثر ، تأثراً حساسا بالتغيرات الاجتماعية ، واحيانا تأثراً سريعا ، واخرى بعد مرور سنوات فحسب . ولا يتقيد بالتقويم السنوي . وهكذا يمكن القول ان عملية تطور الادب في الثمانينات تتميز بتطور ديناميكي متواصل ومتقطع . استمرت الملامح التي تشكلت في السبعينات ، لكن موقعها النسبي تبدل واضيفت اليها ملامح جديدة . ساعتمد عند التحدث عن الاتجاهات الرئيسية للادب :

والتي تتبدى حاليا في أدب المانيا الديموقراطية على تحليلات عالم الادب الاستاذ الدكتـور « هانس كاوفمان » والدكتـور « انفريد هينيل » . وساحاول ان اوضح الظواهر العامة بواسطة اعمال نثرية ملائمة ، كلما كان ذلك متاحـا .

يتيح القاء نظرة على الكتب الجديدة الصادرة في الاعوام الاخيرة ، تبين التنوع المستمر . وينطبق ذلك على شتى مجالات الابداع الادبي وصولا الى الصحافة الفنية . كما ويلاحظ منذ منتصف السبعينات ثراء ومزيداً من التنوع في المواضيع واساليب الكتابة ، بالاضافة الى وجود انواع أدبية مختلفة الى جانب بعضها ومتداخلة مع بعضها ، والى مزيد من النقاش العلني بشكل اكثر قوة حول مهمات الادب . وقد تصاعدت الرغبة بالتجريب وازدهر البحث البناء عن الجديد ، بما يتلاءم مع واقعية عصرنا والصيغ الفنية الوثيقة الصلة له . وقـد اثارت « انا زيغرز »في قصتها « لقاء في رحلة » اعادة التأمل والتفكير في العلاقـات التقليدية ، وأساليب الكتابـة . يلتقي في قهوة بـراغ في العشـرينات « هوفمان » و « نيكولاي » و « جوجول » و « فرانس كافكا » ، ويطور كل واحـد منهم رأيه في الادب ، على الرغم من اختلاف الحقب الزمنية التي عاش فيها هؤلاء الشعراء ، فانهم متفقون في نقطـة واحـدة ، وهي الاخلاص للواقع ولأنفسهم . ان « آنا زيغرز » لا تدافع في هذه القصة فقط عن الخيال في الفن ، بل تدافع كذلك بعمق عن تنـوع وكبر حجم الكتابـة الواقعيـة .

يصـل التنوع في يومنا هـذا من نقل صور الحيـاة مباشرة الى غربتها اعتمادا على اساليب الخيال والرمز والاسطورة . وقد نشأ وترعرع جيل من الكتاب الشباب ، وولد في الدولة الالمانية الاشتراكية كالمخطط ،

والذي اخذ مواقعه الخاصة وراح يتطلع بشكل نقدي الى اعمال « الاباء » . وتفهم التناقضات بشكل متنام ، ليس كعيوب ، بل كمحرك لكل حركة تقدم اجتماعي . ومما يلفت النظر في الوقت الراهن ان العديد من الكتاب، انطلاقا من رؤيتهم الفنية الخاصة للعالم ، يهدفون الى تعلم مواجهة الصراعات وتقبل التناقضات التي لا ينتظر توقع حلول لها في الامد المنظور . ويعود ذلك الى حد كبير الى المناخ السياسي والفكري المتغير منذ بداية الثمانينات . والجهود التي تبذلها جمهورية المانيا الديموقراطية لمتابعة بناء المجتمع الاشتراكي المتطور ، ولتدعيم وحدة الاقتصاد والسياسة الاجتماعية ، تجري ضمن شروط صعبة خاصة . ويتشكل حقل التوتر ، الذي يتضمنه الابداع الادبي لكتاب المانيا الديموقراطية ، والذي ينجزون من خلاله اعمالهم من شقين اولهما سباق التسلح النووي لدول حلف الاطلسي (ناتو) وبشكل خاص للولايات المتحدة وثانيهما سياسة السلام والامن التي تتبعها الدول الاشتراكية وحركة السلام العالمي وجميع القوى الواسعة الانتشار التي تطالب بالحوار العقلاني .

اية مواضيع اساسية تناولها ؟ واية اسئلة سيتم طرحها ؟

اود التركيز على خمسة مجموعات من المشاكل الاساسية .

١ ــ يتم النظر الى العلاقات المتناقضة بين الفرد والمجتمع ، انطلاقا من وجهة نظر ديموقراطية متقدمة للحياة الاجتماعية . يؤدي ذلك الى تفص اقوى للواقع بجميع ابعاده .

لقد ظهر في السنوات الاخيرة ، في اعقاب الكاتبة المتوفاة « ماكسي فاندر » ما يدعى ادب البروتوكولات او الادب الوثائقي ، والذي يؤدي وظيفة مهمة في وسائل الاتصال الاجتماعية . وقد تضمن كتاب « ماكسي

فاندر » ، « صباح الخير أيتها الجميلة » مجموعة بروتوكولات نسائية صريحة ، مبرهنة بذلك على ان كل حياة من ناحية المبدأ هي شيقة وجديرة بالعرض . وفي هذه الاثناء حذت الكاتبات الشابات حذوها ، واللواتي تتوجه اعمالهن بطريقة مباشرة جدا الى القراء ، متوخيات جعلهم يعيدون التفكير بالمعايير الاجتماعية واساليب التصرف الشخصية ، بنوع من التحدي . ولا يتم فقط عرض حالات شخصية ، انما عرض مشاكل لا تعرض بشكل علني ، او تطمس معالمها ، بل تتم مناقشتها كالمرض والموت والحب والاجهاض والجنس وذلك في صيغة مذكرات يومية ومجموعات من الرسائل وبروتوكولات مسبطة على اشرطة معدة بشكل أدبي . فعلى سبيل المثال تتبع « كريتيني مولر » في كتابها الصادر عام ١٩٨٥ « بروتوكولات رجالية » التحولات التي طرات على العلاقات بين الجنسين داخل المانيا الديموقراطية . في حين تحاول « ايرينا ليبمان » في كتابها الصادر عام ١٩٨٢ « بيت برليني للأجرة » استكشاف حكاية بيت يقع في ضاحية من ضواحي برلين تدعى « برينتس لاور برغ » ، عن طريق سؤال قاطنيه . أما « فولف غانن نوا » فيرسم في كتابه الصادر عام ١٩٨٣ « حياة في بروسيا » تاريخا لعجائز ترعرعوا في عهد القيصر « فيلهيلم » ، وعاصروا حربين عالميتين . بينما تلتفت « كريستياني بارك هاوزن » في كتابها الصادر عام ١٩٨٥ « اخوات » للخبرات النسوية المكتسبة في الصراع الطبقي في سبع دول تتحدث الاسبانية . ان هذا النوع من الادب الذي يحاول عكس الواقع بشكل اقرب الى الوثائقية ، يشكل مجالا حدوديا بين الفن والوثائقية ، لكنه يجد شعبية كبيرة لدى القراء الذين يكافحون من اجل مضمون شخصي لحياتهم .

ازدادت أيضا كتب السيرة الذاتية ، وقصص حياة من يعيشون على هامش المجتمع والمنبوذين اجتماعيا ، لان التعامل معهم ومع المرضى

والمعاقين ، الذين ينبذون في المجتمع الاشتراكي ، يوضح بجلاء الانسانية الحقيقية للنظام الاشتراكي . اريد في هذا المجال ذكر عملين ادبيين فقط ، معبرا عن سلسلة بحالها من الاعمال الادبية :

« هرب الى الغيوم » لـ « زيبيلي ماتيسيوس » (ملاحظات أم تعيش مع ابنة متخلفة عقليا) و « قميص الرقيص السابع » لـ « انفريد يوهانيس » (مختارات من مذكرات مريض بالكحول) .

يعتبر هذا الادب والذي هو في الغالب ذا هيكل بسيط ، موسعا للافق بالنسبة للكثير من القراء ، و « مساعدا على الحياة » .

يبذل كتاب رواد في المانيا الديموقراطية ، جهودا لانجاز اعمال ادبية صعبة الاسلوب ، انطلاقا من الخيال ، في سبر جدلي للعلاقات بين الاشخاص والطبقات والشرائح . ويسخر « هرمان كانت » في مجموعته القصصية « المسمار الثالث » الصادرة عام ١٩٨١ و « الزمن البرونزي » الصادر عام ١٩٨٦ بأسلوب فكاهي لاذع من التفكير الاناني الاستهلاكي ، ومن قصور فهم البعض في تعاملهم مع الاخرين . اما « غونتردي برون » فيصف بصراحة لا تعرف الهوادة في عمله « روائع جديدة » الذي صدر عام ١٩٨٥ كيف تتحول نقط ضعف شاب ذي امتيازات ، الى انتهازية وانعدام الشخصية ، فيصبح عديم الاخلاق .

لقد ظل عرض حياة الانسان العامل محور الادب ، كما في السابق ، في المانيا الديموقراطية ، بيد ان تنوعا اكثر غنى قد طرأ الآن ، بالمقارنة مع الاعوام السابقة . تبرهن على ذلك اعمال « فولف ايكرت » و « بينيتو فوغاتسكي » و « انفيلاكراوس » و « ايبرهارد بانيتس » . وابطال الروايات ليسوا روادا مخترعين في مجال التطور الاجتماعي ، بل هم على

الاغلب مطبوعون برتابة عملهم اليومي ، الذي يمارسونه . والقليل مما يحدث في الروايات مثير . ولا يتم عرض صقل وعيهم وشعورهم بالمسؤولية ، عبر تشكيل حالات متطرفة للصراع والنزاع . ودوافع السرد القصصي ، التي تفضي الى جرد مقاطع مهمة من الحياة ، هي على الغالب ذات طبيعة شخصية ، بل حتى خاصة :

فمثلا مناسبة القصة عند « انجلا كرائوس » في كتابها « التسلية » ، الذي صدر عام ١٩٨٤ ، هي عيد ميلاد عاملة قوالب فحم الثامن عشر ، والذي يصادف مرور ٧٠ عاما على تأسيس المصنع الذي تعمل فيه هذه العاملة . وتأمل الخبرات الفريدة ، التي لا تتكرر لشخص ما ، يفسح المجال لروية العلاقة المشبعة بالصراعات بين المسار التاريخي والحياة الفرديـة .

يهتم القاص والدرامي والشاعر « فولكر براون » منذ بداية الثمانينات بتأزيم العلاقات بشكل ساخر بين القادة والمقلدين . وقد ذاع صيته عام ١٩٨٣ مع عمله الادبي « تقارير من هينتسي وكونتسي » ، والذي تضمن نصوصا نثرية قصيرة ومنمطة وطريفة . يطالب « فولكر برلون » باعتباره تدرج الرتب الاجتماعي في الاشتراكية المبني على تقسيم العمل الاجتماعي كنظام ديناميكي وليس كنظام ساكن . وكلا جانبيه مطبوع بالفوارق . تذكرنا « تقارير هونتسي وكونتسي » عبر تعابيرها ، بقوة ، بـ « حكايات كوينر » لـ « برتولد بريشت » . وقد قدم « فولكر براون » بعد ذلك بعامين روايته « هونتسي وكونتسي » ، والتي تعتبر عملا ذا ترتيب اكثر تعقيدات لاحداثه ، وابطال الرواية ذوو سمات شخصية اكثر قوة . يدخل الراوي الذي يتحدث عن نفسه في حوار مباشر مع القارىء ويضع مشاهده الدرامية أو انعكاسات الحوار مع الذات التي يعرضها باسلوب الطرف ، مما يضع نتائج قصصه المروية موضع التساول.

وهكذا يتضح على مثال حالة القائد السياسي « كونتسي » وسائقة « هينتسي » والعلاقة بينهما المبنية على دوافع السيد ـ العبد ل « ديدي روت » المحوَّرة ، كيف يتم التفاوض باسلوب ديموقراطي بينهما حول القضية المشتركة .

٢ ـ السؤال عن معنى الحياة ، ضمن الظروف الاجتماعية المعاصرة .

ينصح الكاتب الصربي « يوري بريزان » في روايته « صورة الاب » التي صدرت عام ١٩٨٣ باعتبار القيم التي نمت عبر التاريخ ، جديرة بالتطلع اليها والاعتماد عليها في اتخاذ مواقف معاصرة ، وتبنيها كمضمون للحياة . يتهيا عامل مقالع لملاقاة الموت ، حيث تجتمع عائلته حوله للمرة الاخيرة . وكما كان طوال حياته ، يبذل جهده كيلا يهرب من مواجهة اية صعوبات ، يواجه الموت بثبات . يستعرض مراحل حياته المهمة مرة اخرى ، ويتأكد العجوز من الموقف البناء لابنائه ، والذين يشاركونه قلقه على الكوكب الارضي . وفي الوقت ذاته ، يستمر دافع اساسي عبر هيكليه التذكر : « ماذا اذن : ان يحيا المرء عزيزا ؟ » .

بشكل مغاير وبتحد يعرض القصاص والدرامي « كريستوف هاين » وبطريقة غير تقليدية ، كيف أن على المرء أن يعيش اليوم . لم يلق أي عمل نثري صدى عنيفا متناقضا ، مثل قصته القصيرة « الصديق الغريب » التي صدرت عام ١٩٨٢ . انها حصيلة الجرد ، الذي جرى بشكل عفوي ، عبر وفاة الصديق ، لحياة طبيبة في الاربعين من عمرها ، تعيش بمفردها ، متفادية كل انواع الصلات الشخصية مع من حولها . تعيش دون اية توقعات من الحياة ، منطوية على نفسها ، دون اي قسط من السعادة ، وعامرة بالرضى الظاهري . لا يستطيع المرء فهم هذه القطعة النثرية ، اذا نظر اليها بشكل ميكانيكي ، وقد اثبت النقاش ذلك . بوسع النقاد

ان يعترضوا لان الكاتب لم يبرز بشكل مقنع اسباب تدمير الشخصية ، اذ لم يكن ذلك هدفه ببساطة . ان فكره « هاين » هي ان يجعلهم يشعرون انهم مصابون ، كي يتصدوا لذلك . « عندما يقول الشخص انه راض ، وانه بخير ، يريد في الواقع ان يقول شيئا آخر ، ليس العكس ، لكنه يريد أن يروي شيئا مختلفا ... » وعلى ما يبدو ، فقد نجح ذلك ، « اذ كلما تقوقعت هذه المرأة ، كلما اصبحت الصيحة أوضح » .

يظهر « فولف ايكارت » في روايته « البوم الاسرة » الصادرة عام ١٩٨٢ أن معنى الحياة بالنسبة للكثير من الناس ، هو الموقف الايجابي من العمل ، وايضا في العلاقات العائلية المنظمة الى ابعد حد ، وان لم يكن يحدث ذلك دون صراعات . يتم عرض انواع من الشخصيات لاناس بسطاء ، اعتمادا على شخصية حائك ، لم يؤهل ليصبح معلم مهنة او مديرا للمعمل ، انما يريد « فقط » ممارسة عمله ، وهو واع لمسؤليته .

٣ ـ دراسة تاريخ المانيا الديموقراطية والماضي الالماني :

ظل هذا الاتجاه الذي ظهر في السبعينات ، وهو البحث عن معنى للحياة ، عبر فهم تاريخ الذات وتوضيحه ، مستمرا في الثمانينات (نذكر هنا فقط بالروايات التي لاقت صدى دوليا « نموذج الطفولة » لـ « كريستا غولف » و « الاقامة » لـ « هيرمان كانت » و « ضوء المساء » لـ « شتيفان هيرملين ») . وليس المقصود من ذلك كتابة الروايات التاريخية ، بل تشكل وعي للتاريخ ، يصبح بعدا لاحداث معاصرة .

يحاول « ايريك نويتش » برواياته ذات الاجزاء المتتالية « السلام في الشرق » والتي سيصدر جزؤها الرابع عام ١٩٨٧ ، تتبع طريق جيله بدءا من الايام الاولى لنهاية الحرب ، حتى وقتنا الراهن . وخلافا لما كان يجري في الخمسينات والستينات ، لا تحدد الصراعات ومجرى الاحداث،

تحولا من المواقف الفاشية الى المواقف الديموقراطية انما يتم تبني المواقف الاشتراكية ، خلال عملية بناء المجتمع ، بالاضافة الى اثبات فاعلية هذا التبني في حالات الازمات .

في حين يروي « ايريك نويش » باسهاب وترتيب زمني تاريخي ، متوخيا مقارنة المواقف تاريخيا ، يعمد « غونتر روكر » المخرج السينمائي وكاتب المسرحيات الاذاعيـة ، الذي اشتهر بها ، الى الايجـاز ، والى تسليط الضوء على مصائر افراد ، انطلاقا من خبرة تاريخية رفيعـة المستوى .

يضيء « غونتر روكر » بأسلوب العرض السريع صورا للحياة العادية واخرى للحياة غير العاديـة في مجلداته القصصية ، التي صدرت تباعا في عامـي ١٩٨٥ و ١٩٨٦ « السيد الامير او هيلدي » و « الخادمـة » و « انتون بوبر » ، والتي تعتبر من انضج الاعمال الفنية للنثر الموجز في المانيا الديموقراطية . ترعرع « غونتر روكر » في « بومن » ، وانتقل الى القطـاع الشـرقي عـام ١٩٤٥ . وقـد تولى نقـد الفاشية بطريقتـه الخاصة . وقد بذل جهده للحصول على رؤية جديدة ورزينة ، محطما بذلك تجليات الخمسينيات وكليشيهاتها ، انطلاقا من معرفته الوثيقة بالماضي الالماني المبنية على الالمام بالوقائع الكثيرة ، تلك التي أعتمد عليها .

يروي « غيرهارد باومرت » في كتابه « قرابة حدباء » الذي صدر عـام ١٩٨٧ بواسطة تاريخ عائـلات ، تاريخ المانيا وجمهوريـة المانيـا الديموقراطية ، باسلوب يوصر فيه حياة الكادحين بتفاصيلها وبتعاطف لايضاهيه به احد ، ولان الكاتب يشرح كيف تغلغلت العقيدة الفاشية الى هذه الدوائر ، يمكن اعتبار كتابه الى حد ما نقيضا لكتاب « كريستـا فولف » ، « نموذج الطفولة » .

و « ارفين شتريت ماتر » ، الذي اصدر ١٧ كتابا ، ويعتبر اكثر كتاب المانيا الديموقراطية انتاجا ، يروي احداث طفولته في روايته « الحانوت » ، التي صدرت عام ١٩٨٣ ، والتي ستصدر تتمتها في عام ١٩٨٧ بمناسبة عيد ميلاد الكاتب الـ ٧٥ . ويشير تاريخ ميلاده في عام ١٩١٢ الى مرحلة تاريخية اخرى ، والى عالم وجيل آخر للخبرات . فوق ذلك يستعمل « شتريت ماتر » سلطة الراوي ، التي تتفرع باستمرار ، فتارة هي منظار الفتى الساذج ، الذي هو نتاج الكاتب ، وليس الكاتب ذاته ، وتارة منظار الرجل الضليع والذي بلغ اليوم السبعين من عمره . تبعث بواسطة هذه الاضاءة الشعرية المتغيرة وغير المألوفة ، نمطا منقرضا من الناس ، لا ينضم الى المعارضة ، على الرغم من تغير السلطات ، والذين بقيت اثارهم حتى ايامنا الراهنة . كثيرا ما يؤدي هذا التغيير الذي يشبه قفزات فجائية في منظور الراوي الى تأثيرات غريبة تؤدي الى الابتسام وفي الوقت ذاته تستدعي التفكير .

٤) البحث عن امكانيات غير مستعملة واكتشاف قوى جديدة

يجب في هذا الموقع على ابعد حد ، اكبار الاعتبار الدولي لانتاج كاتبات المانيا الديموقراطية . تعتبر اعمال « كريستا فولف » و « ارمتراود مورغنر » و « هيلغا شوبرت » و « فالتراوت ليفين » و « هيلغاكونيغس دورف » وغيرهن ، اعمالا لا يمكن الاستعاضة عنها في ادب الثمانينات . ووضع المرأة في المجتمع الاشتراكي والحد الذي وصلت اليه المساواة بين الجنسين في الحياة اليومية ، هو الموضوع الرئيسي الذي تتم معالجته ضمن مختلف الترابطات . اما الخلفية الاجتماعية بالنسبة لهذا النتاج الادبي ، فهي الموقع المتقدم للمساواة بين الجنسين في المانيا الديموقراطية، انطلاقا من المقياس العالمي . تعبر حقيقة ممارسة المزيد من النسوة مهنة

الكتابة عن عملية مساواة حقيقية . وتعالج الاعمال الادبية الجديدةموضوع المساواة بين الجنسين مع مراجعة الشروط والاهداف بشكل نقدي جزئيا .

تشرح « هيلفا كونيغيس دورف » في قصتها التي يغلب عليها طابع السيرة الذاتية والصادرة عام ١٩٨٧ بعنوان « تصرف دون احترام » اعراض مرض خطير ، تتحاور الراوية بين الحلم واليقظة ، تحت تأثير الادوية مع عالمة الذرة الالمانية المتوفاة « ليزي ما يتنر » ، وكون الكاتبة قد حصلت على الدكتوراه (بدرجة هابيل) التي تؤهل للتدريس في الجامعات في العلوم الطبيعية ، يسمح لها ذلك باستخدام الحوار في الحلم ، لابراز مسؤولية العالم اليوم ولامعان التفكير بشكل حاد بهذه المسؤولية . والكاتبة تختبر في الوقت ذاته حقل الصراع الذي تعبره المراة، والذي ينشأ من تطلع المراة لتصبح عالمة وزوجه واماً في نفس الوقت .

يصل الامر الى انقسام الشخصية ، في كتاب « اماندا » للكاتبة « ايرم تراود مورغنير » الذي صدر عام ١٩٨٣ « رواية سحرة » . يتصف هذا العمل بتداخل اساليب الرواية ، اذ تارة يتم بصيغة الغائب وتارة بصيغة الراوي ، وهذا العمل هو الجزء الثاني من اصل ثلاثة اجزاء ، لثلاثية « سالمان » . تعيش « لاوراسلمان » وحيدة ولديها طفل وهي غير متزوجة . تعمل سائقة لقطار ديزل ليلا فقط ، كي تتمكن من اخذ ابنها الى روضة الاطفال عند الصباح ، ولتحضره عصرا ، مما يودي الى الوجود الذي ينوس بين الخيال والحقيقة للساحرة « اماندا » ، المراة المتسلطة المتعالية على الرجال . بالاضافة الى تداخل الاشياء اليومية مع الاسطورية والخيالية ، تأتي عوامل ساخرة ، تلك التي تدعم بحث الكاتبة عن قوى جديدة ، تعجل بالمساواة بين البشر . لقد قام الفلاسفة ، حتى الان ، بتحليل العالم من وجهة نظر الرجال ، والمطلوب الآن تحليله من وجهة نظر انثوية ، ليتسنى تغييره بشكل اكثر انسانية .

دخل في هذه الاثناء كتاب رجال حقل المساواة بين الجنسين . هنالك الى جانب قصة « الصديق الغريب » لـ « كريستوف هاين » المذكورة آنفا، قصص « فرص الرجل » لـ « غونتر غورليش » ورواية « حلم الشر » لـ « هربرت اوتو » . يتم النظر الى علاقة حب في الرواية الاخيرة بين ممرضة ومدير معمل من وجهة نظر كليهما . وجدت المرأة المطلقة التي تعيش لوحدها في « الشر » شخصية خيالية ، اكثر مما هي واقعية ، معيارا تقارن بها شريكها الرجل في الرواية ، على الرغم من « الشر » لا يظهر في الرواية بتاتا . بيد انها لم تتمكن من فرض تصورها على الواقع ببساطة وهو « ان تعكس المالوف ، فتستعمل الآخرين ، عوضا عن ان تستعمل » أما مدير المعمل ، فليس الشخص الذي تحلم به ، بل هو الشريك الواقعي: وهو متزوج ومرفه وخامل الذهن بعض الشيء ، تقيده واجباته الاجتماعية كصاحب منصب قيادي وكرب اسرة ، فلا يستطيع تحقيق كل ما تتوقعه منه . تظل المرأة منقسمة بين ما تتطلبه وبين الواقع ، بين العطاء واثبات الذات . ويتضح في هذا الكتاب ، كما في مثيلاته ، ان تحقيق الذات بالنسبة للمرأة ، هو عملية حافلة بالصراعات ايضا في الاشتراكية ، اذ قد ينجم خسائر ايضا الى جانب الكسب .

٥) التوجه الى قضايا العالم والانسانية :

ظل التركيز على قضايا داخلية ، تخص المانيا الديموقراطية تاريخيا واجتماعيا حتى منتصف السبعينات . لكن مع بداية الثمانينات الى ابعد حد ، يلاحظ انفتاح على المواضيع العامة والمشاكل الدولية . مرد ذلك الى الصدمات القوية ، الناجمة عن اخطار الحرب النووية المتفاقمة . لقد حصل الوعي الكوكبي ، الذي يهدف الى انقاذ الكرة الارضية من الدمار النووي او البيئي على زخم هائل . ونجم ذلك عن تطبيق الاتحاد السوفيتي

ومجموعة الدول الاشتراكية « للتفكير الجديد » في السياسة الخارجية وهو انه يجب وضع مصالح البشرية في الصف الاول قبل المصالح القومية لكل دولة على حدة . وقدم ادب المانيا الديموقراطية في هذا المجال سبقا فنيا حقيقيا متوقعا الاخطار العامة .

يفهم كتاب مثل « ايرمترا ودمورغنز » و « كريستا فولف » و « هيرمان كانت » و « فولكر براون » و « هاينر مولر » اعمالهم الفنية ، كمساهمة في ابحاث السلام والتربية المسالمة بالمعنى الواسع ، ويتم في كتبهم استكشاف ترابط بين التعايش السلمي وبين بقاء الجميع احياء ، وبين مشاكل الاشتراكية الداخلية . يتم لتوضيح الاخطار ، استعمال نماذج انسانية عامة او نماذج من التاريخ الثقافي وتلقي هذه الاعمال ، يتخطى حدود المانيا الديموقراطية .

تحاول « كريستا فولف » في قصتها « كاساندرا » الصادرة في عام ١٩٨٣ ان تبرهن على وجود صلة بين الحروب ونشوء النظام الرجالي الأبوي ،و تتابع ذلك حتى جذور « مجتمع الرجال » تتنبأ المتنبئة « كاساندرا » منذ العصر القديم باندثار « ترويا » لان مصالح التسلط تتغلب على الحكمة والمنطق ، ولهذا يعلن القصر الملكي انها قاصرة . تتحقق النبؤة ، وتتقبل « كاساندرا » الموت . تتحدث مع نفسها ، وكان ذلك كتحذير للاجيال القادمة . تطرح الكاتبة كبديل للصراعات الحربية ، التي تودي الى انهيار العالم ، نظاما قديما تسيطر عليه النساء بكون منسجماً، بيد ان هذا التصور يفضي بالضرورة الى الطوباوية .

اصبحت المشكلة البيئية ، قضية عالمية ، تتخطى حدود الدول والانظمة ،تلك المترابطة بسباق التسلح والجوع في « العالم الثالث » ،

يظهر تفكير نقدي جديد للعلاقة بين الانسان والطبيعة سواء في قصص « سانتوف » للشاعر « هانس سيبولكا » التي صدرت على شكل مذكرات في عام ١٩٨٣ او في مقالات الكاتب الصربي « يوريج كوخ » أو في نثر القصاص « يواخيم نوفوتني » من « لا يزيغ » ، او في اعمال حديثة عديدة .

تجرب « كريستا فولف » في قصتها « عصر يوم في حزيران » ١٩٦٧ اسلوب بيان في الكتابة القصصية وتتخلى فيه عن كثرة الحوادث ، ففي عصر يوم عادي في حزيران في بيئة ريفية مريحة عائلية يتواجه التفكير في ومعنى الحياة مع التهديد المختبىء للوجود البشري . تثير الكتابة في ذاتها ولدى القارىء قوى المقلومة ، وذلك يكشفها لدستورها العاطفي والدقيق وعرضها الصريح لوعيها الشخصي المتمثل « بالأنا » القصصية ، تعرض « كريستا فولف » في قصتها الحدثية « حادث ازعاج » ١٩٨٧ المصداقية الشخصية لا الشكلية .

تتصدر قصة « كريستا فولف » « حالة خلل » الصادرة عام ١٩٨٧ في الوقت الحاضر ، والتي سبب عنوانها الفرعي « اخبار يوم ما » الرواية النسائية التي تتحدث عن نفسها قلقا فكريا . هما حدثان في الواقع : يجبران على موازنة فوائد واخطار العلم والتكنيك الحديثين : عملية جراحية دماغية معقدة ، يتوجب اجراؤها للأخ ، والاخبار المخيفة التي تتواتر من ساعة لاخرى عن الحريق الذي شب في مفاعل « تشيرنوبل » النووي بلورت « كريستا فولف » اسلوب العرض لكل من الحدثين ، بشكل يتسنى لها الانتقال الى تاريخ البشرية ومعالجة مواضيع العرف والاخلاق الاجتماعية . اذ ثمة آلية تربط بين القتل والاختراع

برباط مباشر ، عندما يتعطل الضمير الانساني عن العمل . وهي بهذا تضع المسؤلية الانسانية للعالم والفنان حيال بعضهما البعض فهذان هما اللذان يشعران بالمسؤولية . فوظيفة الادب ستكون في المستقبل هي ان تجعلنا نحب الحياة وان تجعلنا قادرين على ان نحيي بعقلنا وشعورنا الى ابعد حد ، وان تزيد ارتباط الانسان بالاشياء المشتركة للبشرية والحفاظ على العالم للاجيال القادمة . وفي النهاية تودعنا الكاتبة التي تتكلم عن نفسها بهذه الجملة : « ما اصعب ان نغادر هذه الحياة يا اخي » .

* * *

الملاحظـــات :

(١) هيرمان كانت ، مسؤوليـة الكاتب في صراعات عصرنـا الحاضر . في الادب الالماني الجديد ، العدد ٧ / ١٩٨٧ .

(٢) قارن كلاوس هوبكي ، « أسطورة » المانيا الديموقراطية بلاد القراء ؟ في : زونتاغ مجلة الرابطة الثقافية في المانيا الديموقراطية ، ١٢ / ٧ / ١٩٨٧ ، صفحة ٢ .

(٣) بيان وفد المؤتمر العاشر لاتحاد الكتاب عام ١٩٨٧ .

(٤) الادب في تراثه الكبير ، الذي يقوي الاشتراكية والسلم . حديث مع غيرها رد هينيغر السكرتير الاول لاتحاد الكتاب . في : نويس دويتشلاند ٩ / ٤ / ١٩٨٧ ، صفحة ٤ .

(٥) قارن انغريد هينيل / هانس كاوف مان ، ادب الثمانينات ؟ أعمال نثرية في بداية العقد . في : مجلة الادب الالماني ، العدد ١ / ١٩٨٥ .

(٦) بدا الذكاء يدير ، وتوقف عن العمل ـ حديث مع كريستوف هاين . في : جريدة الشعب الالمانية ٩ / ٣ / ١٩٨٤ ، صفحة ٩ (دويتشي فولكس تسايس تونغ) .

(٧) هيربرت اوتو ، حلم الشر ، برلين وفايمار ١٩٨٢ ، صفحة ٧٠ .

(٨) كريستا فولف ، حالة خلل . اخبار يوم ما . برلين وفايمار ١٩٨٧ ، صفحة ١٢٠ .

عصر يوم في حزيران

تأليف كريستا فولف

ترجمة : أكرم محمد

قصة ؟ شيء محسوس يمكن للانسان أن يمسك به كوعاء بمقبضين يتناوله ويشرب منه ؟

ربما كان ذلك سرابا ، عندما تدركون ما أعني . على الرغم من أن الحديقة لم تكن رائعة كما هو العام ، وذلك منذ عرفناها قبل ثلاثة أعوام فقط ؛ لم تستطع أن ترينا ما يكمن فيها . تبدى الآن أن ذلك لم يكن اكثر او أقل من حلم ، أن تصبح حديقة خضراء برية نضرة ، الشكل الحقيقي لحديقة ، حديقة ، بكل معنى الكلمة ؛ يجب أن أقول ان ذلك كان مؤثرا جدا . تبادلنا بعض العبارات حول نموها ، وتفهمنا بهدوء أنها تبالغ في نضارتها ، ولا تستطيع الآن سوى أن تبالغ ، فكيف لها الا تفتنم ، بنهم ، الفرصة السانحة وتستفيد من هطولات الامطار الغزيرة .

ما يسميه بعضهم شبحا يرى فيه الآخرون بلبلا !

ما هو الشبح ؟ جلس الطفل عند قدمي وانصرف بشغف الى تشكيل قطعة من لحاء الشجر ، في البداية أراد صنع سفينة ، بعد ذلك خنجرا ، بعدئذ ما يشبه المظلة ، والآن ، اذا لم يخب ظني ، شبحا ؛ وسيلاحظ عندئذ ماهية هذا الشيء الملعون المدعو شبحا . لكن عليك ان تقر انه لا يمكن التشكيل بهذا السكين الثلم ، كما لو انه لم يكن معروفا ان المرء سيعرض نفسه للجرح بواسطة سكين ثلم بشكل أكبر من سكين حاد . من ناحيتي ، وقد اعتدت على تجاوز التعليقات المبطنة ، استلقيت على كرسي الحديقة وتابعة القراءة ، بغض النظر عن الاعتراضات على السكين الثلم .

قلت بعد قليل لزوجي ؛ لم اكـن لمراه ، ولكن صوت مقصه كـان مسموعا بين عرائش العنب ؛ يجب تقليمها هذا العام ، فقد كانت تنمو كما لو انها على منحدر على نهر الموزل وليس على سور شبكي مهترىء تحت صنوبرة شمالية .

قلت : انت على حق .

قال : طبعا ، لماذا لم ترغبي في قراءتها قبل الآن !

قلت : بامكانها الكتابة بشكل جيد .

قال : على الرغم من ان ما كل ما تكتبه جيد ، حتى لا اخاطر وابالغ في إطرائهـا .

شيء رائع ! ولكن كيف تتعامل مع هذا البلد .

قال بزهو : نعم ! إيطاليا !

سألته بتحد : والبحر ؟

هتف وكأنه برهـان غير قابل للنقض : نعم ، البحر المتوسـط ! ليس هذا المقصود . الاختيار الدقيق للتعابير ، ذلك ما يجعل كتابها رائعة.

قال : على المرء الا يفضل البحر المتوسط تماما !

قالت الطفلة بنوع من اللوم : تلك المفردات الغريبة !

الشمس ، على ندرتها ، بدأت تدخل اللون الاشقر في شعرها ، خلال الصيف ، وخصوصا أثناء العطلة على بحر البلطيق ، ستنشأ خصلة الشعر الشقراء ، والتي كانت الطفلة تحملها بوقار كشيء استحقته وكنا ننساه عاما بعد عام .

قلبت الصفحة ، فانبعث عبير رائع من أشجار الاكاسيا التي شارفت أزهارها على السقوط ، واختلط بعبير الصنوبر والبطم ؛ لكني تمالكت نفسي وامسكت عن ذكر مفردات غريبة اخرى ، اكتفيت بدس انفي في حفنة الاوراق الشائكة التي قدمتها لي الطفلة بشماتة مبدية استغرابها من اصل النعنع المتواضع . وقفت كلقلق وسط جزيرة من الاعشاب البرية اطويلة ، وحكت إحدى ساقيها النحيلتين بالاخرى . انبعث منها رائحة العشب المجفف والنعنع وكل الاعشاب البرية المختلفة التي لا نعرفها، لكنها موجودة ، فرائحتها كانت تنبعث من الطفلة .

الحلزون يسير ببطىء ، شديد ، الا تعتقد في ذلك ايضا ؟ قالت ذلك حيث لم يكن بالامكان إنكار حقيقة أن الحلزونة لم تستطع ، خلال ساعة كاملة ، الزحف من كرسي الحديقة الى خزان المطر . يشك المرء أنها استمعت الى رهاننا ، أو انها وضعت لنفسها هدفا كهذا خزان المطر . الخ ...

بالمناسبة ، هل تعلمين أنها تلتهم ورق الخوخ بنهم ؟ لقد راقبت ذلك لاعلم ذلك ، لم أر في حياتي حلزونة تأكل ، فما بالك بأوراق الخوخ . لكني احتفظت بجهلي وشكوكي لنفسي وتركت الطفلة تذهب باحثة عن

شيء آخر أقل إثارة للخيبة من هذه الحلزونة . عندما ابتعدت ولم يعد يسمع لها حس ، أطبق صمت مفاجيء على كل شيء ، لا الطير ولا الريح ولا اي صوت آخر ، لكم ان تصدقوني أن الهدوء في منطقتنا الهادئة امر مثير للقلق . هذه المرة لم تكن سوى طائرة مدنية قديمة من النوع الجيد، لا اقول انها لاتطير بسرعة فائقة أو انها غير مريحة ، ذلك أن الشركات التي تطير فوقنا تتنافس وبكل حدة . اعني فقط : كانت تطير ، وهذا كان باديا للعيان ، من الشرق الى الغرب عندما يقصد المرء ، بشكل استثنائي فقط، جهات السماء الاربع . اقلعت من برلين الغربية ، والممر الجوي ـ كلمة يمكن للمرء أن يتوقف عندها مليا ـ يمر بالضبط فوق حديقتنا وخزان المطر وكرسي الحديقة ، راقبت هذه الطائرة وهي تسحب وراءها ليس فقط ضجيجها ، وانما كل الاصوات التي تنتمي الى حديقتنا .

لا ادري اذا كانت السماء مزدحمة بهذا الشكل في اماكن اخرى ، عندما يستلقي المرء على الارض ويحدق في السماء ، يستطيع خلال ساعة ان يتعرف على انواع طائرات من مختلف بلدان العالم ، هذا لاينفعني شيئا ، فحتى خلال الحرب العالمية لم اتعلم كيفية تمييز الطائرات مختلفة المنشأ والنوع من بعضها ، حتى اني لااتذكر فيما اذا كانت الطائرات تضيء يمينا بلون أخضر ويسارا بلون احمر ، او بالعكس ، عندما تطير ليلا فوق بيتنا ومن ثم تختفي في الظلمة خلف الاشجار ؟ هل تهتم بنا البتة ؟ لقد طرت بما فيه الكفاية كي اعرف انه ليس للطائرات عيون لترى او روح لتهتم بالآخرين ، لكني اراهن ان اكثر من وزير دولة او رجل مال او احد رواد الاقتصاد يمر عصر هذا اليوم فوق منطقتنا . لقد قام بعمله خلال الاسبوع الفائت وادخل الشعور في نفسه والى الآخرين انه على راس عمله ، يعود يوم السبت الى بلدته بضمير مرتاح ، يراقب المرء ذلك البلد

بشكل عابر لدى صعود الطائرة ، طرقات ، قرى ومدن ، انهار وبحيرات، حدائق وبيوت ، وفي مكان ما على ساحة خضراء ثلاث نقاط (دون اخذ الحلزونة بالحسبان) ، انظر : بشر ، ترى كيف يعيشون هنا ! بالمناسبة موقع غير مناسب ، لايمكن فعل الكثير من الجو فقط !

قالت الطفلـة : لا تتوهمي اني سادعك تنامين . انسلت الـى جانبي كالهنود الحمر وسرت كثيرا عندما ارتعشت من الفزع .

جلست القرفصاء امامي،ونظرت الى السماء باحثة عن سفن وقلاع ، عن سلاسل جبلية موحشة وعن بحار السرمدية المذهبة . لاتظهر في الافق سفن حربية ولا وعيد زوبعة ، فقط ضجيج المحركات الآتي من البعيد ، في السماء تشكلت واحة صحراوية اخاذة ، كانت الشمس تستلقي على قمم اشجارها ، الحيوانات في هذه الواحة تتحول بسرعة عجيبة ، تعلموا هناك كيف تبرز الاشكال من بعضها وتتحول فيما بينها : الجمل الى أسد وحيد القرن الى نمر ، والشيء المستغرب نوعا ما ، الزرافة الى بطريق، راودنا شعور بعدم الثقة بعدم امانة المناظر السماوية ، اخفينا ذلـك عـن بعضنا .

سألت الطفلة : هل تذكرين انك كنت دائما تقولين ترطيق ؟ عوضا عن تطريق ؟ اكنت حقا حمقاء لهذه الدرجة ! ابدا ! كم تستمر كلمة ابدا بالنسبة لطفلة ذات ثماني سنوات ؟ وكم تستمر كلمة أبدي ؟ ٤ سنوات ؟ عشر ؟ أو ذلك الفارق الكبير الذي لايمكن تصوره بين عمرها وعمري ؟

قلت باصرار : برطيق . إسألي اباك .

لم نستطع سؤاله ، لم اتمكن من رؤيته كيف ابتسم وقال برطيق ، بنفس اللهجة التي قالها قبل اربع سنوات ، لم استطع مبادلته نظرته التي كان سيرميني بها ، فقد كان يتحدث عبر السور مع جارنا في الحديقة الاخرى . يتبادلان بعض النصائح . قال زوجي : ماذا ؟ تريد أن تقطع الفطر الاحمر أكثر من ذلك؟ أليس معقولا ! أصغينا الى الجدال بتلذذ بالغ، رغم انه لايهمنا في شيء . لكننا شاركنا الوالد رايه ، من حيث المبدا اولا، وثانيا لان جارنا فقد احترامنا نهائيا في الربيع ، عندما طلب وبجدية واضحة ان تقوم طفلتنا بقطف بضع مئات أزهار الاقحوان التي تنمو في حديقتنا كي لاتتحول الى (كسّار الزبادي) وتهدد ، على شكل بذور ، حديقته المنظمة بعناية .

راقت لنا تلك الفكرة ، جيوش من مظلات (كسّار الزبادي) تغزو حديقة جلوفة في يوم تهب فيه ريح جنوبية خفيفة ، ويقف الجار ، وهو يحشرج بسبب سمنته ، مسلحا حتى الاسنان بالشوكة والمعول وخرطوم الماء ، واضعا قبعة القش على رأسه ، وعند قدميه يقف كلبه الاسود الهائج ، هؤلاء كلهم لا يستطيعون القيام بشيء ضد (كسّار الزبادي) ، التي تتهادى وتتداعى حيث . تجد مكانا ، دون عجلة او تلكؤ ، ذلك انها ستجد ، ولابد ، قليلا من التراب والرطوبة حيث تثبت قدمها وتبرعم . كنا بكليتنا الى جانب (كسّار الزبادي) .

لكن الجار كان على حق عندما يشكو من (الفراولة) التي تتعفن عند سوقها ، ولا احد يدري إلام يؤدي ذلك ، اذا بقي عصر مشمس كهذا نادر الوجود .

وسط هذا الحديث المتعب ، وسط الضحك الخافت الآتي من حديقة مجاورة ، وسط الحوار الكئيب في الكتاب الذي أقرؤه ، انطلق ذاك الانفجار الجاف والحاد الذي يهز الاعصاب ، والناتج عن اختراق طائرة نفاثة لجدار الصوت . قالت الطفلة غاضبة دون ان يبدو عليها الرعب : دائما فوقنا بالضبط . لم أدعها تلاحظ شعوري أن الارض مادت تحت قدمي بسبب تلك الصدمة .

قلت : ليس له خيار في ذلك ؟

ــ ماذا يعني هذا ؟

ــ يجب أن يخترق جدار الصوت .

ــ لماذا ؟

قلت : لقد صمم خصيصا لذلك ، فعليه اذا أن يخترقه ، حتى لو سبب انفجارا آخر . بالتأكيد شيء محرج بالنسبة له ، ربما يضع قطنا في اذنه ؟ لكنه لايسمع شيئا ، فالصدى يبقى خلفه .

شيء عملي ، الا تعتقدين ذلك ؟ تابعت بنفس اللهجة : اشعر بالملل . أعلم جيدا أن على المرء ان يخشى ملل الاطفال الذي لايقارف بملل البالغين ، فقط عندما يصبح ملل هؤلاء مميتا : مالذي يخشى اكثر من الملل المميت لشعوب بأكملها . لامجال هنا للحديث عن ذلك . علي ان أجد مخرجا لملل الطفلة ، قلت بشرود وتردد : افعلي شيئا .

قالت : قرأت في الجريدة ، على المرء ان يكلف الاطفال بواجبات ومهمة معينة ، فيصبحون عندئذ مثقفين .

ــ أتقرئين الجريدة ؟

ـ طبعا ، لكن الوالد يحرمني افضل الصفحات ، مثلا : « جثة زوج في درج السرير » .

ـ اردت ان تقرئي ذلك حتما ؟

ـ سيكون ذلك مثيرا . هل قتلت تلك المراة زوجها ؟

ـ لا اعلم .

ـ من الذي اخفاه في درج السرير ؟ .

ـ لكني لم اقرا تلك المقالة !

ـ عندما اكبر ساقرا كل هذه المقالات . اشعر بالملل .

طلبت من الطفلة ان تحضر خرقة وماءً كي تمسح الطاولة والكراسي، ورايت جثة الزوج في درج السرير تسبح في مخيلتها ، رايت زوجات يَحمْن مستعدات لقتل ازواجهن ـ ولكن بماذا ؟ بالبلطة ؟ بواسطة سكين المطبخ ؟ بحبل الغسيل ؟ رايت نفسي واقفة امام سريرها ، ما الأمر ؟ هل رايت كابوسا ؟ عيناها المرتعبتان : لاشيء ، ليس بي شيء ؟ هل انتم جميعا موجودون ؟

في أحد الايام ستروي هذه الطفلة لأطفالها الكابوس التي راته في طفولتها . الحديقة تكون قد اختفت منذ فترة طويلة ، ستهز راسها محتارة امام صورة قديمة لي ، ولن تعرف شيئا عن نفسها . لكن جثة الرجل ستحافظ على شكلها ، شاحبة ووقحة ، كذلك الرجل الذي مازال يعذبني ، روى جدي حكايته لي : حكم عليه بالجنون، بسبب جريمة قتل، من خلال قطرة ماء كانت تسقط على راسه الحليق بشكل منتظم كل يوم .

قال زوجي : الا تسمعيني هذا اليوم ؟ مابالك ؟

ـ كنت أفكر في جدي .

ـ أيهما ، ذلك الذي كان في الثمانين من عمره يقف على يديه ؟

ـ بذلك الذي مات بالحمى التيفية عام خمسة وأربعين .

ـ ذا الشاربين المتدليين فوق شفتيه كعجل البحر ؟

ـ نعم ، هو ذاك .

ـ دائما اخلط بين أجدادك !

ـ العلة تكمن فيك ، لاداعي للخلط بينهم .

تابع الهجوم على أجدادي ، وتابعت الدفـاع عنهم ، وكأننا نريد إخفاء نوايانا أمام مشاهد خفي .

وقف الى جانب شجرة المشمش الصغيرة ، التي استطاعت أخيرا ان تنطلق هذا العام من إسارها ، لكنها لم تتمكن ان تحمل أكثر من ثمرة واحدة : تابعنا المخاتلة لدرجة اننا اصطنعنا النظر الى تلك الثمرةالخضراء الصغيرة ، لكنني لاأدري إلام كان ينظر في الحقيقة ، فقد دهشت لذلـك النور الذي أحاط بشجرة المشمش وكل مابقربها ، يمكن للمرء ان يمتـع ناظريه دون الشعور بالملل ، على الرغم من أننا انتقلنا من الحديـث عـن الأجداد الى أشياء أخرى ، على سبيل المثال ، ذاك الكتاب الذي مازلـت اقرأ فيه ، والذي لايشغلني عن التمتع برؤية شجرة المشمش ، علىالعكس كان يخلق لدي انطباعا رائعا ، كما يجب ان يفعل الشخص الثالث . لكن كثرة من المهاجرين والأنبياء والمنبوذين وردوا في هـذا الكتاب ، هـذا ماتوصلنا اليه ، سمحت لنفسي ان اتجاوز قصة يصور فيها بتفاصيـل

دقيقة انتقام شعبي رهيب من أحد الخونة . لقد اعترفت بأني غير قادرة على تحمل مناظر التعذيب والقتل أمام الزوجات المقيدات بالسلاسـل ، اعترفت بأني خائفة من القطرة القادمة التي ستسقط على رؤوسنا . في تلك اللحظة ظهرت ابنتنا ، وعلى الجانب الآخر اخرج المهندس سيارته من الكاراج لغسلها ، لم يكن أحد ليملك تلك الشجاعة الكئيبة ليقول له أن لون سيارته أخضر كلون الضفادع ، كتب في أوراق السيارة : اللون: أخضر زيزفوني ، وهو يتمسك بذلك بشدة . هذا المهندس يعتبر كـل مايكتب في المجلات هاما . انظروا فقط الى تسريحة شعره لتتعرفوا على أحدث نصائح مجلة (حلاقتك) ، والى مسكنه لتعرفوا ماكان عصريا قبل سنتين في مجلة (الديكور الداخلي) . مهندسنا هذا إنسان لطيف ، اشقر، لايهتم بالسياسة ، لكنه يقف فاغرا فاه عندما نعتبر أن الافتتاحية الاخيرة دون مغزى . لايترك مجالا لأحد ليلاحظ عليه شيئا ، ونحن لاندع أحدا يلاحظ علينا شيئا ، ذلك اننا نؤمن بأن ذلك المهنـدس الأشقر بسيارته الخضراء كالضفادع له نفس الحق في الحياة على هذه الارض ، مثلنا نحن تماما بأزهار اقحواننا ومناظرنا السماوية وهذا أو ذلك الكتاب الكئيب .

لولا أن ابنتنا ذات الثلاثة عشر عاما والتي دخلـت الآن مـن باب الحديقة لم تضع نصب عينيها أن ترى في كل مايتعلـق بالمهنـدس شيئا عصريا ، ولولم يكن لهذه الكلمة تأثير سحري عليها .

سألتنا وهي تقترب : اما رايتم ، كم هي أنيقة تلك النظارة التـي يحملها ثانية اليوم . التفت الى الوالد ، وبنظرة واحدة منعته ان يقـول أن تلك النظارة ، التي لم يلتفت اليها ، لاتطاق . راقبناها بصمـت وهي تتبختر وترمي ظلا طويلا فوق العشب ، وكيف افترشت الارض بطريقـة

غير مريحة تحت شجرة المشمش، ومن ثم كيف مسدت قميصها وشدته، كي ترينا أن تلك الكائنة أمامنا لم تعد طفلة .

ــ هل أخبرتك أنها عائدة من بروفة الحفل المدرسي ؟

قالت : الأمور جميعها لاتسير على مايرام ، مارأيكم ؟

قال الوالد : شيء عادي . مازلت اعتقد جازمة حتى اليوم أن الجواب لم يكن الا انتقاما من نظارة المهندس الانيقة .

قالت البنت مهتاجة : حتى انت ! ترى طبيعيا الا يحفظ المنشدون قصائدهم ، والا يستطيع الكورس الأداء بطبقة الصوت المطلوبة ، وان تتعثر الراقصة دائما وتسقط على مؤخرتها ! .

ــ هذه الكلمات والتعابير أتعلمها منك ، اكدت ذلك الطفلة الجالسة على حافة خزان المطر ، ولم تدع كلمة تفوتها من الحياة الصاخبة لأختها الكبرى . وهذا مادعا الوالد الى إيضاح أن سقوط الراقصة علىمؤخرتها امر مؤسف ولكنه ليس تعبيرا لائقا .

السؤال الفعلي : هل يحتاج المهرجان المدرسي الى راقصة . كيف لي أن أوضح بكلمات قليلة أن الجدال الذي بدأ لتوه له جذور عميقة تستقي غذاءها ليس من الظهور العرَضي لراقصة ، وإنما من خلاف مبدئي حول ذوق المعلمة التي تنظم كل مهرجانات المدرسة منذ دخول طفلتينا إليها . كانت تجد دائما في الصف التاسع أو العاشر تلميذة قوية البنية ، ومستعدة لأن تنطلق عبر المسرح في وشاح أحمر ، وتبدو ، على إيقاع موسيقا البيانو ، كأنها تتوق لشيء ما .

لو أبديت رايي لقلت : لاتستحق هؤلاء الفتيات لا الرفض القاطع ولا الاعجاب المطلق ، ولكن كما قلت سابقا ، ليست تلك هي القضية ،

والقضية ايضا ليست في ميل المعلمة للإضاءة الملونة الخافتة ، فقد تعودنا على تحمل انواع مختلفة من الإضاءة : كان الوالد في الواقع لايتحمل تعلق ابنته اللامحدود بكل ماتعتبره مكتملا ، لايتحمل رؤيتها مجروحةالشعور، يقف بحماقة في العراء اثناء العاصفة كي يضلل عنها البروق الموجهة إليها ويحرفها اليه ، ويحصد جزاء لذلك إما عناقا عاصفا أو نكرانا غاضبا ، ورغم انه يقسم للمرة الألف : لن اتدخل منذ الآن وصاعدا في أمور النساء، إلا اننا لانصغى لايمانه ، لقد تدخل ، مع أو دون قسَم . المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

قالت الطفلة مترددة : حِجر الفأر . هل سيتركونني طوال الوقت صفرا على الشمال ؟ ربما تعتبرون الإجابات التي تلقتها بتعاقب سريع ، والتي أسجلها هنا بحرفيتها ، غريبة ، قلت : دون المطر ، قال الوالد : فطر السعادة ، قالت البنت : شبح الليل . بإمكان اللعبة اذا ان تبدا دون تأخير بهذه المجموعة المناسبة من التعابير . الجولة الاولى بدات : حِجر المطر ، فطر الفأر ، شبح السعادة ، دود الليل ، بعد ذلك توصلنا الى دود الحِجر وشبح الفأر وسعادة المطر وليل الفِطر ، لم نتوقف بعدها، فقد تحطمت كل السدود وغمرت الارض بأروع التشويهات ، شبح الدود، مطر الفأر ، حِجر الليل ، واندفع دود الفطر وسعادة الحِجر ومطر الليل وفأر الفطر .

ارجو المعذرة ، من الصعب الا ينجرف الإنسان ، من المحتمل وجود كلمات أفضل ، ومن الطبيعي ان خمسة أو ستة لاعبين افضل من اربعة. لقد جربنا ذلك مع المهندس ، اتدرون ماذا قال ؟ لن تحزروا ، خدعناطبعا، فمن قواعد اللعبة الا يفكر المرء مليا ، عليه ان يقول الكلمة التي تخطر على

باله فورا . لكن المهندس ولثوان طويلة فكر وفكر ، أجهد نفسه بشدة ، الى ان طلع علينا بساعة البناء ، طبعا لم ندعه يهزأ بنا ، فقد قدمنا له ورشة العمل ، وردية اضافية ، جريدة النقابة ، حتى الطفلة قالت محتارة: مشرف طليعي . لكن اللعبة لم تنجح مع بناء النقابة وساعة الورشة والعمل الإضافي ومشرف الوردية وطليعي الجريدة ، مارسنا اللعبة دون رغبة ، وضحكنا قليلا عند كلمة نقابة المشرفين ثم قطعنا اللعبة . لم ينبس أحدنا ببنت شفة عن هذه المحاولة الفاشلة ، لكن شيئا ما كان يعتمل في نفس ابنتنا الكبرى ، الى أن قالت في المساء : لكنه يتمتع بوعي رفيع !

قال الوالد آنذاك : إوزة ثلج ! نفس ماقاله اليوم لان البنت تدافع ثانية عن الراقصة الفاشلة ، وتؤكد لتبرئتها انها ستظهر رائعة بوشاح ذي لون اخضر بحري . إوزة ثلج خضراء ! اخذ الطفلة من يدها وانطلقا ، كأنهما يغادران الى الأبد ، وليس كي يذهبا الى موضع البرسيم السري ، ذلك لأنهما انتقلا ، ولا ريب ، من فطر السعادة الى برسيم السعادة. لكن البنت نظرت خلفهما بنشوة قائلة : إوزة الثلج ! يقولها عندما لايبقى لديه حجة ؟ هل أجد لديك مشطا ؟

أعطيتها المشط ، ومن حقيبتها سحبت مرآة وعلقتها بصعوبة على أغصان شجرة المشمش الصغيرة . سحبت الشريطة من شعرها وبدات بتمشيطه . تمهلت قبل أن أبدأ بصفحة جديدة ، رأيتها وهي تحاول ان تتمالك نفسها ، لكن يجب القول : الا ترين ان تمشيطه صعب ؟

ــ ماذا ؟ شعري .

ــ هذا مايحصل عندما يغسل المرء شعره قبل النوم مباشرة ، تلك التسريحة أظهرت جليا أنفها الكبير ، تداركت بسرعة : لكن انفك ليس كبيرا جدا ! ولو أن حاملته تبدو اكبر من عمرها .

بدا الجابي في الباص بكلمة (آنسة) قائلا : يا آنسة ، هل لك أن تضمي ساقيك قليلا ! لقد أحرجها ذلك .

ـ لكن ذلك لم يحرجني فقط ، هل تفهمين ؟

ـ كان بإمكانك ببعض الذكاء أن تردي له الاهانة ، قولي له مثلا : اتعنيني أنا بهذه اللهجة المؤدبة ؟ لكن لا ، هذا مالا يخطر على بالها عندما تحتاجه، والقضية لم تكمن في وقاحة جابي الباص ، وإنما في كلمة(آنسة). ولكي تعود الى الشعر ، قالت ابنتي : ماذا تفضلين أن تكوني ، جميلة أم ذكيـة . ؟ .

اتعرفون هذا الشعور ، عندما يكون السؤال وقع القنبلة ؟ أدركت فورا انه سؤال مصيري ، وانه أوقعني في مأزق مستعص.

تحدثت بإسهاب ، ولاحظت من وجهها أنها تعتبرني مسؤولة تباعا عن كل الانتهاكات الممكنة في إجابتي ، وفي اللاوعي رجوت قوة غير موجودة ان تمنحني الإلهام ، وفكرت : إنها تصبح شبيهتي ، أرجـو الا تلاحظ ذلك منذ الآن ! قلت فجأة وبحدة : اصغي إلي ، مابك تحملقين هكذا ،اذا كنت لاتصدقيني ، فلماذا تسألين إذا ؟

تعلقت عندئذ برقبتي ، فقد كانت تهدف الى ذلك من هذا السؤال. وقع المشط في العشب ، كما لو ان ذلك للأبد ، طبعت شفتيها الغضتـين على كل بقعة في وجهي ، وهمست في اذني تلك الكلمات المحببة ، أحبـك أنت فقط ، وسأبقى الى جانبك دائما ، وسأصغي لنصائحك ، تلكالأيمان المغلظة التي يقسم بها المرء كنوع من الدفاع عن النفس قبل ان ينكث بها نهائيا . لقد صدقت كل كلمة ، وسخرت من ضعفي ومن تعلقي بذلـك الخداع الرخيص .

قالت الطفلة بازدراء ، إنهما تلعقان بعضهما ثانية ، رمت في حضني باقة صغيرة من زهر البرسيم ، سبعة أغصان برسيم ، على كل واحد من هذه الاغصان السبع نمت اربع وريقات ، على المرء التأكد مـن ذلك ، لم تكن خدعة بصرية ، حظ رباعي الوريقات متين .

هتفت البنت وانتفضت فرحة ، سبعة ! السبعة هي رقمي السعيد. باختصار : ارادت الحصول على الوريقات ، السبع وريقات لنفسها . لم نجد فورا الكلمات المناسبة لهذا الادعاء ، ولم نتذكر أن ننبهها الى انها لم تهتم قبل الآن ببرسيم الحظ ،وانها لم تجد حتى الآن غصنا واحدا لبرسيم رباعي الوريقات . حملقنا اليها بدهشة وصمتنا ، لكنها كانت مشغولـة بحظها ، لدرجة انها لم تتردد ولو للحظة واحدة .

أخيرا قالت الطفلة : نعم ، سبعة هو رقم الحظ لديها . فعندمـا نذهب الى المدرسة ، تمشي سبع خطوات بين شجرة واخرى . شـيء محير ، وكأنه تنفيذ لعدالة لاترد ، أخذت الوريقات من حضني وقدمتها لأختها ، لكنها اعيدت لي فورا ، بعد ان ضغطتها البنت على انفها ،المزعوم كبيرا ، عليّ أن أضعها في الكتاب . لقد راقبتني وانا اضعها بين الصنوبر والبطم ، على طرف البحر المتوسط الغريب ، على عتبات دَرَج المنجم ، الذي كذب رافة بذلك الساقي الشاب الذي كان يخدم زبائنه ، سعيدا، قبل أن يعلم انه سيصبح ضحية لمؤامرة دنيئة . لقد تخطيت تلك الصفات حيث جرى ذلك الانتقام الشنيع ، ماذا أعرف عن البرسيم رباعي الوريقات وعن رقم الحظ سبعة ، وما الذي يعطيني الحق بأن أستثير قوى معينة؟

على الانسان أن يتأكد دائما مما يفعله .

ـ من منكم أخفى خيوطي ؟ بضربة واحدة نزلت الطبيعة النباتية والحيوانية الغريبة من الأفق ، عادت الى حيث تنتمي ، ماكان يشغلنا هو وجه الوالد العابس .

قلنا بشجاعة : خيوط ؟ لا احد ، ايه خيوط ؟

أليس لدينا عيون في رؤوسنا لنرى ان الورود كانت مربوطة ؟ سحبت الطفلة حبلا من تلك الحبال التي كانت تحملها دائما في جيبها وقدمتها للوالد ، ادركنا عندئذ ان الامر جدي فعلا .

اقترحت البنت أن يحضر خيطا جديدا ، لكن الوالد رفض الخيط الجديد ، وأراد القطع الست التي قصها بعناية ووضعها في مكان ما ، ونحن أخفيناها طبعا . ادركنا اننا سنمضي بقية الوقت في البحث عن الخيوط ، وفوق ذلك ان نتحمل الوالد وهو يندب حظه الذي رماه بين ثلاث إناث . تنهدنا ولم ندر ماذا سنفعل ، في تلك اللحظة دخلت السيدة (ب) .

تأرجحت السيدة (ب) فوق العشب مقتربة منا ، كان عليها أن تنقل كامل ثقلها من إحدى ساقيها الى الاخرى ، تحمل في يدها اليسرى سلة لاتخرج الى الشارع دونها ، وقد امسكت في يمناها الخيوط الستة. قالت : لقد نسيتموها على السور ، وعندما ستبحثون عنها ، لاأحد يدري ماذا سيحدث .

قال الوالد :آه ، لقد أتت في الوقت المناسب . اخذ الخيوط وذهب باتجاه الورود .

قلنا لها : شكرا جزيلا ، ولكن تفضلي بالجلوس .

احضرت البنت كرسيا ، من التي نظفتها أختها قبل قليل ، راقبنا بهلع كيف اختفى الكرسي تحت جسم السيدة الثقيل ، زفرت السيدة (ب) قليلا ، الى ان تمالكت انفاسها ، فالمشي مشقة كبيرة بالنسبة لها ثم اخبرتنا ان ذبول (الفراولة) سببه التسميد الزائد . لايوجد تصرف لكائن حي يستعصي على فهم السيدة (ب) ، فمن النظرة الاولى تشخص المرض واسبابه ، حين يبحث الآخرون طويلا عن العلة . كان علينا أن نحصد العشب منذ مدة طويلة، وان نقلع الاعشاب الضارة في حوض الجزر، لم نجرؤ على مناقشتها ، لكنها اثارت دهشتنا بالسؤال عما اذا حاولنا النظر داخل تلك الوردة التي تنمو على يسار المرج .

ـ لا ، لم ننظر الى داخل الوردة ، راودنا شعور بأننا ندين لها بشيء . ركضت الطفلة لتستدرك ذلك وعادت قائلة : شيء رائع .

التبلات الداخلية تتحول الى صفراء غامقة الى ان تصبح وردية ، لون وردي لايوجد في كل مكان ، والأروع من ذلك هو عمق تلك الوردة ، شيء لايتوقعه المرء .

قالت السيدة (ب) : قلت لكم ، هذه الوردة من نوع نادر ، شجرة البندق تحمل ثمارا كثيرة هذا العام .

الآن فقط ، وبعد أن لاحظت السيدة (ب) ذلك ، حملت شجرة البندق ثمارا كثيرة فعلا ، وبدا لنا أن كل مايقع عليه نظر السيدة (ب) سواء بالإيجاب أو الاستنكار ، حتى الفراولة الذابلة ، قد حصل على بركة حقا .

فتحت السيدة (ب) فمها قائلة : سيفسد المحصول هذا العام على الأغصان .

هتفتا بدهشة : ماذا تقولين !

قالت دون تأثر : هكذا سيكون الحال . فالتقويم المئوي يقول إن هذا العام حافل بالعواصف والزوابع والامطار والفيضانات سيفرق المحصول ويتعفن .

داهمنا الصمت ورأينا المحصول يهلك امام نظرات السيدة (ب) الهادئة ، وبدا لنا لثوان كأن السيدة (ب) هي التي تتحكم بمصير المحصول والبندق و (الفراولة) والورود . ليس مستغربا أن يحصل المرء على حق المشاركة في التحكم بمصير منتجات الطبيعة ، بعد أن يكون قد اشتغل فيها طيلة عمره . حاولت دون جدوى ان أتخيل انهار عصير الفواكه وجبال المربى والجيلية التي مرت على طاولة السيدة (ب) خلال اربعين عاما ، رأيت العربات المحملة بالجزر والفاصولياء والتي غسلتها بيديها وقشرتها بأصابعها ، آلاف الدجاجات التي علفتها والخنازير والأرانب التي سمنتها والعنزات التي حلبتها ، ورأيت أنه من العدل أن يخاطبها إنسان ما أمام الآخرين قائلا : أيتها السيدة المحترمة ، بالنسبة لمحصول هذا العام ، نحن نعتقد . . .

لايوجد إنسان رأى التقويم المئوي بأم عينيه .

قالت السيدة (ب) بارتياح : هاهم قد عادوا ثانية ، مايثير دهشتي، ألم تسأموا ذلك بعد !

ــ ممن ، ولماذا ؟

لكننا رأيناها طبعا : الحوامات . أعتذر لها بسبب الطيران الناشط فوق منطقتنا ؟ الحقيقة أن حوامتين تطيران في هذه الساعة فوق الحدود، بغض النظر عما يأملون رؤيته أو مايخشونه خلف الاسوار الشائكة .

عندما يكون لدينا وقت ، نشعر بالقرب الشديد من الحدود ، نرى أذرع المروحة الطويلة وهي تدور ، ونتطلع صوب البقع المضيئة في المقدمة، وجوه الطيارين ، ونتساءل فيما اذا كان هؤلاء نفس الطيارين انفسهم دائما للمراقبة ، أم أنهم يتبادلون . ربما كلفوا بمهمة التحليق كي نعتاد عليهم ، فالانسان لا يخاف من الشيء الذي يراه يوميا . لكن لا شيء يقرب الحدود إلينا كتلك الحوافات التي لاتخشى ضوء النهار ، حتى تلك الكشافات الضوئية والطلقات المضيئة ، الحمراء والصفراء ، التي تنطلق من أبراج المدينة .

قالت السيدة (ب) : يظن المرء أنه قادم من تكساس ، حيث يتواجد ابني حاليا .

من ؟

ذلك الطيار ، من الممكن ان يكون من تكساس ، أليس كذلك ؟ ممكن . ولكن ماذا يفعل ابنك في تكساس ؟

قالت السيدة (ب) : يلعب كرة القدم .

تذكرنا فجأة ابنها الاصم الابكم والذي يحيا مع زوجته ، الصماء البكماء كذلك ، في الغرب ، والذي يزور الآن ، مع فريق الصم لكرة القدم، تكساس ، دون أن يشعر بما تقوله أمه عندما تنظر الى قائد الحوامة . تذكرنا أنيتا أيضا ، ابنة السيدة (ب) ، هي الاخرى صماء ، تعيش وحيدة في مدينة غريبة لكنها قريبة ، تتعلم مهنة هناك ، كانت ترسل ثيابها اسبوعيا للغسيل . تطلعنا الى السيدة (ب)علنا نجد آثارا للقدر في وجهها، لم نجد شيئا غير عادي .

قالت الطفلة عابسة : انظروا الى هناك ، وأمام السور وقفت جارتنا الأرملة هورن .

قالت السيدة (ب) : أتمنى لكم العافية اذا ، سأنسحب لكنها بقيت ، وادارت جسمها الثقيل لتقابل الارملة هورن ، تلك المرأة التي لاتضع بصلا في شطائر البطاطا ، والتي لاتصلح المجارير المسدودة في بيتها، والتي لاتسمح لنفسها بشراء غطاء جديد لراسها ، كل ذلك بسبب بخلها الشديد . قدمت إلينا لتحدثنا بصوتها المزعج واللامبالي عن حادث القطار .

قالت دون أن تلقي تحية : لقد اصبحوا اثني عشر !

رددنا بانقباض : طاب يومك ، اثني عشر ماذا ؟

قالت الارملة هورن : اثنا عشر وفية ، وليس تسع كما زعموا البارحة في الجريدة .

قالت السيدة (ب) : ياللهول ، ونظرت الى جارتنا ، كأنها هي التي قتلت الموتى الثلاثة ، الذين لم يذكروا امس في الجريدة .

كنا نعلم ان السيدة (ب) تظن السوء بها ، فالذي يتعلق بالمال يسرق ويقتل البشر ، لكنها ذهبت بعيدا في سوء ظنها ، رغم ان البريق في عيون الارملة هورن لم يعجبنا بشكل من الاشكال .

سألناها : من أين تعلمين كل ذلك ، وهل صحيح ان ثلاثة منهم من بلدتنا ؟

قالت جارتنا عرَضا : اربعة ، لكن زوجة ذلك الممثل مؤمن على حياتها بمبلغ كبير جدا .

قلنا وقد شحب لوننا : ليس معقولا ! هل توفيت هي ايضا ؟

قالت الارملة هورن بحدة : طبعا .

صمتنا لثوان حدادا على زوجة الممثل . اتجهت للمرة الاخيرةعبر ذلك الشارع مع كلبيها صوب باب حديقتنا ، للمرة الاخيرة تذمرت ، بين الجد والهزل،من تصرفات الكلاب ، جرت قدميها دون رغبة بينالاشجار، ورمت شعرها الاشقر الطويل الى الخلف . لقد رأينا الآن انها تمتلـك شعرا جميلا ، غير مصبوغ ، وانها كانت نحيلة القوام وتبدو بمظهر جيد بالنسبة لعمرها ، لم نتمكن من قول ذلك لها ، لقد رحلت ، ادارتظهرها لنا بإصرار لم نعهده فيها ، لايحق لنا ان نأمل ان تستدير أو تعود الينا مرة أخرى ، كي نتطلع نحن الاحياء الغافلـين مرة أخرى الـى وجهها ونسمره في ذاكرتنا ، للأبد . كلمة غير مناسبة لزوجة الممثل الحيويةالتي تعذبها الهموم اليومية .

قالت جارتنا دون أن تلحظ أن أحدا قد مر بقربنا : لم يعد بعد .

ـ من هو ؟

ـ الممثل طبعا . لم يجدوا لها أثرا حتى الآن ، فقط حقيبة اليد وبداخلها بطاقتها الشخصية . لقد اغتم الزوج كثيرا لذلك ، لم يعد حتى الآن .

حدث ما كان يجب أن يحدث ، فتحت الطفلة فمها وسألت :

ولكن لماذا ؟ لماذا لم يجدوا لها اثرا ؟

حملقنا جميعا بالارملة هورن ، فيما اذا كانت ستصف ما يكون عليه الحال على سكة القطار بعد حادث كهذا ؛ لكنها قالت دون أن تلتفت الى نظراتنا المتضرعة : الامور لا تتم فورا ، ما زالوا يبحثون عنها .

قلت : اقتربي وتفضلي بالجلوس .

لكنها لم تستطع إلا ان تبتسم . المرء لا يراها تبتسم ، فقط عندما يطلب منها شيء غير عادي . أن تتخلى عن شيء ما على سبيل المثال ، أو أن يطلب اليها الجلوس في النهار . من يجلس يفكر ، من ينقل زبلا بعربته الى حقل الذرة او يعزق أرضا او يذبح دجاجا يفكر أقل بكثير من إنسان يجلس في حجرته ويحدق في الخزانة التي تحوي فناجين أثرية . من يضمن لي عندئذ الا يظهر فجأة رجل أمام الخزانة ، حيث كان يقف دائما كي يحضر جريدته ، رجل جدير بالكره ، لاقى حتفه كعقاب على هجر زوجته ، او أحفاد لا يعرفهم المرء لانه طردهم مع الكنة ، تلك المرأة الوضيعة . يهب المرء عندئذ ويحضر القفص المليء بالصيصان الى الحجرة ، علهم يملؤون البيت الفارغ بصوتهم ؛ عل الريش يطير في أنحاء الغرفة حتى يكاد المرء أن يختنق ، فليذهب كل شيء الى الجحيم . أو يذهب المرء الى المطبخ ويلون بيضا لعيد الفصح ويهديه لاطفال الجيران ، تلك المخلوقات المشاكسة التي تقرع الباب مساءا ، وعندما يندفع المرء للخارج ويبحث عنهم في كل الاتجاهات ، لا يجد أحدا .

قالت الارملة هورن : الى اللقاء ، لم ابلغ شيئا آخر . مضت معها السيدة (ب) ، كل خطوة من خطواتها الثقيلة ، أوضحت انه لا شيء يجمعها بتلك السيدة الناحلة التي تسير الى جانبها ، يجب الحفاظ على الحاجز الذي يفصل قدرا لا ذنب للمرء فيه عن شقاء سببه الانسان لنفسه .

نشب نزاع بين الطفلتين ، لكني لم أهتم به . اشتد النزاع الى أن بدأتا تلاحقان بعضهما بين الاشجار ، الطفلة كانت ترفع عاليا ورقة ممزقة وتصيح . إنها تحب شخصا ما ، إنها تحب شخصا ما ! والبنت ، خارجة عن طورها ، تطالب بتلك الورقة ، تطالب باعادة سرها ، الذي

كن من الصعب إخفاؤه ومن الصعب إظهاره امام الجميع . أسندت راسي الى المخدة على كرسي الحديقة واغمضت عيني ، أردت الا اسمع والا أرى شيئا ؛ تلك المراة التي لم يجدوا منها سوى حقيبة يدها ، لم تعد ترى او تسمع شيئا ايضا . مهما كان نوع اللعبة التي وضعت يدها فيها ، لقد نزعت يدها من تلك اللعبة ، التي استمرت بدونها .

عصر هذا اليوم الخفيف كالريشة تعلق بأثر تلك الدقيقة ، مائة سنة تعادل يوما ، ويوم يعادل مائة سنة ، يقولون وبحق اليوم الآيب ، لماذا لا يشعر المرء كيف يؤوب : يمضي أمام الشمس التي اختفت في أيك البنفسج ، يمضي أمام صراخ الاطفال ، يمضي امام شجرة المشمش الصغيرة ، يمضي امام الوردة التي ستبقى اليوم وغدا فقط صفراء من الخارج ووردية من الداخل . ولكن الانسان يشعر بالخوف عندما تميد الارض تحت قدميه ، يعود ليرمي اثقالا ، هذه وتلك ، كي يرتفع من جديد . من الذي يقول إن الذراع قد امتد ليوجه تلك الضربة التي تنتزع الايدي من كل شيء ؟ من الذي يقول إننا نحن المطلوبون هذه المرة ؟ وإن اللعبة ستستمر دوننا .

توقفت الطفلتان عن التنازع فيما بينهما ، لقد اكتشفتا بعض الجراد الصغير . نادى الوالد ان نحزم أشياءنا فقد حان وقت الرحيل .

القينا الكراسي على الطاولة ووضعنا الشوكات في الحظيرة الصغيرة المعتمة .

عندما مضينا ، كان الجو قد امتلأ بالخنافس الملونة ، عند باب الحديقة استدرنا ونظرنا الى الخلف .

سألت الطفلة : متى سيأتي ذلك البحر المتوسط ! اليوم ؟

* * *

لقاء رحلة

○ بقلم: آنّا زيغرز
○ ترجمة: د. نبيل حفار

في الصباح الباكر وصل هوفمان الى براغ ، وكان على الحدود التشيكية قد استبدل العربة التي يحب التشيكيون استخدامها . كانت تزفر وتهتز . في البداية شعر هوفمان ببعض الدوار ، لكن نهر الإلبه الذي كان يتلألأ في ضوء القمر أسر أفكاره ومن ثم أحلامه . وعبر البحر نائماً بصحبة رجل الكنيسة ليندهورست الذي كان قد دعاه الى جزيرته .

لدى وصوله الى براغ كان أمام هوفمان بضع ساعات قبل أن يشرع بالبحث عن المقهى الذي سيقابل فيه الصديق المجهول . وكان غوغول قد عبر له في رسالة عن رغبتـه في لقائه خلال رحلتـه من إيطاليـا الى أوكرانيا ، فقد قرأ بعض كتاباته بمتعة كبيرة .

على الخريطة وجد هوفمان الشارع الذي يقع فيه المقهى . ـ ورغم العديد من القصص التي كتبها خلال حياته ورسائل القراء التي استلمها فقد كانت رغبته في رؤية هذا الرجل عارمة . وعلى أية حال لم تكن مدينة دريسدن حيث كان يقضي الكثير من حاجاته بالغة البعد عن براغ . وغوغول ايضا لم يكن يضيع الكثير من وقته هنا عندما كان ينطلق من هنا الى وطنه . وفكر هوفمان بأن هذا الوطن لا بد أن يكون واسعا بلا حدود ، ولا يقارن بوطن اذا أراد الانســـان ان يسمي هذا الخليط من الامارات والاقطاعيات والممالك والأبرشيات دولة واحدة . ومع ذلك فقد كان الادباء هناك يكتبون باللغة نفسها ، بل استطاعوا حتى منافسة ادباء العالم .

نسي صديقه بالمراسلة ـ وهو يدعوه صديقا لأنه رغم بعد المسافة يشعر بشيء من الصداقة يلامس قلبه . مشى حتى أعماق المدينة . وفي المدن الغريبة كانت الانهار أول ما يشـــده ، وعلى جســـر كارل توقفت خطواته وقلبه . ما أعجب تلك الهياكل المنتصبـــة على طرفي الجســـر ! وصورها المنعكسة في الماء الهادىء المتلالىء اخذت بشغاف قلبه . اخترق زورق الصـــور المنعكسة ، وكانت المجاذيف تلامس الصليب والمعاطف كثيرة الثنيات . وعندما رفع هوفمان رأسه راى القلعة على الشاطىء المقابل ؛ كانت مدينة قائمة بذاتها ، بأبراج الكنائس والاسطحة والاسوار الممتدة طويلا ؛ وكانت تهيمن على المدينة . ولا عجب ان تقاتل القياصرة على أن يحكموا من هذه القلعة ، التي كانت في الواقـــع تحكم نفسها . لا شك أن من كان يمارس عمله هناك في الاعلى كان فخورا وواثقاً مـــن نفسه ، ولا شك أيضا أن كبار موظفيه وصغارهم كانوا فخورين وواثقين من انفسهم ، كل حسب منصبه .

كان على هو فمان ان ينتزع نفسه من افكاره ، وأن يجد المقهى ويصل اليه قبل غوغول . ورغم ان الحارات الجانبية ببواباتها ذات الأقواس وفسحات بيوتها كانت تجتذبه اليها ، الا أنه لم يجد صعوبة في الوصول . فبعد الحديث كان سيعود ليلقي نظرة سريعة على كل هذا ، وقد سره ان تكون بوابة المقهى الباروكية مزدانة بالحفر الذي يمثل حشدا من الملائكة .

في مثل هذا الوقت يكون المقهى عادة شبه خال ، وكان النادل يتكلم الالمانية بطلاقة ، فجلب له قهوة ممتازة مع بعض الكعك الطازج الذي ذاب لفوره على لسان هو فمان ، كما جلب له صحفا المانية ، يقلب هو فمـان صفحاتها قليلا ، لكنه لم يستوعب ما قراه ، وبدا له ذلك مملا . لم يعرف من يكون مازاريك هذا الذي تمتدحه بعض الصحف وتذمه اخرى . كما انه لم يهتم بذلك ابدا . هـل يجلس مازاريك في القلعـة الآن يا ترى ؟ ما كان يهمه هم البشر من حوله ، وكان فضوله يدفعه دائما للتعرف على مصائر البشر من مظهرهم ، ومن ثم يتابع تخيل هذه المصادر عبر أحداث ما كانت لتخطر ببالهم . فأن يميت الاحياء ويحيي الاموات هو جزء من مهنته ، كذلك ان يستحضر أحداثا من غابر الزمن وأن يخمن ما قد يحدث في المستقبل .

من يكون يا ترى هذا الانسان النحيل الجالس عند زاوية النافذة وهو يكتب ويكتب ؟ يعيد قراءة ما كتبه ثم يشطب غالبية السطور ، ليعاود الكتابة من جديد وهو مأخوذ كلية ، يقرأ السطور الجديـدة وهو يحرك شفتيه دونما صوت ثم يشرب رشفة قهوة وقف هو فمان ، ودون تردد أو تلكؤ توجه نحو زاوية النافذة مباشرة . وقال : « ارجو المعـذرة . أعرف كم هو مزعج أن يقاطع الانسـان وهو يكتب ، فأنا نفسـي كاتب ،

وغالبــا ما أقوم بأعمــال إضافية اخرى لاكسب بعض المال . ارجو الا تغضب مني إن سألتك مباشرة عما تكتبه الآن . اسمي هوفمان . إرنست تيودور أماديوس » .

لم يكن الشاب بالغ الســرور لهــذا الازعاج ، كما انه لم يندهش أيضا ، فأجاب : « طالما سألت نفسي اية اســماء تختفي وراء الأحرف الثلاثة إ. ت. إ. وقتي للأسف محدود جدا . وبخاصة الآن ، أقصد الزمن المتبقي من عمري . فأنا مريض جدا ، وقد تكون هذه المرة الاخيرة التي أجلس فيها هنا . يجب ان اسافر الى احــد المصحــات . ثم إن الفرصة لم تسنح لي كثيرا لمزاولة الكتابة ، حتى قبل أن يشتد المرض علي ، فأنا مثلك ، فقد كان علي أن اكسب قوتي . كنت اعمل في مؤسسة للتأمين ، اسمي الاول لا يتألف من ثلاثة أحرف ، بل هو ببساطة فرانز .

« فرانز كافكا » .

قال هوفمان « عفوا سيد كافكا » . ثم تابع : « إنــك ستستغرب رجائي لك مرة ثانية ان تقرأ لي شيئا مما تكتب ، رغم جهلك بشخصي . ربما بضعة أسطر مما لم تشطبه الآن خلال المراجعة . فقد أعرف عندها أي نوع من الناس انت . ومرة ثانية أرجوك ان تعذر رغبة إنسان غريب عنــك كلياً . » .

قال كافكا : « غريب كلياً ، كيف ؟ لقد قرات معظم ما كتبت . حتى (نافذة ابن العم) . أظن أنها آخر قصصك . معظم نتاجك يعجبني كثيرا ، وبعضه أقل من ذلك . أتمنى لو كنت امتلك جرأتك الحياتيــة ، جرأتك على الكتابة . لكني لا امتلكها ، لا . وبيأس أو قل لنفسي : فرانز ، أنت هذا

للمرة الاخيرة . ومع ذلك كما ترى فاني اكتب قليلا . ها انا ذا ثانية في مقهاي أمارس خداع نفسي » .

سأل هوفمان : ماذا تقصد بخداع النفس ؟ » ثم تابع : « أنا لم أخدع نفسي أبدا ، بل قررت أن اكتب، حتى آخر دقيقة من حياتي ، رغم أو ربما لأن وزير الداخلية كان يفضل أن اتوقف عن الكتابة . » .

« يا سيد » إ. ت. أ. المحترم ، ماذا كنت ستمارس في حياتك لو لم تكتب ؟؟ » .

ـ « الموسيقى احبها كثيرا . وهي فقط ما يمكن أن ينتزعني مـن الكتابة . ثم ان مهنتي غالبا ما أثبتت جدواها بالنسبة لي . في السابق عندما كنت مضطراً للخضوع للضغط وجب علي أن ادرس الحقوق » .

صاح كافكا « وأنا أيضا . اين درست ؟ » .

ـ « في كونيفزبرغ » .

ـ « البرفسور كانط كان يحاضر هناك ، أليس كذلك ؟ »

« اعتقد ذلك ، لكني لم أستمع الى محاضراته أبداً . لم أكن أعرفه » .

ـ « وما سبب وجودك في براغ الآن ؟ » .

ـ « أنا على موعد مع أديب ، مع رجل أبرع مني ، وربما منك أيضا . فأنت حتى الآن لم تلب لي رغبتي وتقـرأ لي على الاقـل نصف صفحة . الكاتب الذي سيحضر الآن يدعى غوغول . هو روسي . ألف رواية عجيبة ورائعة ، « النفوس الميتة » ، هل تعرفها ؟ » .

ـ صاح كافكا « بالتأكيد . » وتابع : « وأنا معجب بها جداً . بلده لا شك واسع بلا حدود ، وسكان هذا البلد رائعون ، وطيبتهم أو شرورهم

لا حدود لها ، بل وحتى أمنياتهم . لطالما رغبت بلقاء غوغول ، ولو مرة في حياتي . أحب الكثير من قصصه ، مثل (المعطف) و (الأنف) ومسرحيته (المفتش) » .

ضحك هوفمان . فقد أخذ إحساس كافكا بدنو الاجل على محمل الكلام فقط ، ثم قال : « غالبا ما يتحقق ما لم يتوقعه الانسان ، وكثيرا ما يتلاشى ما قد اعتقده المرء مؤكدا . وأرجوك أن تحقق لي رغبتي . اقرأ لي ما كتبته على هذه الصفحة الجديدة . » .

لم يعترض كافكا هذه المرة . بدأ بالقراءة ببطء ووضوح وكأنه ما زال يراجع الكلمات : « بدا القصر عبر الثلج الفزير وكأنه يتباعد ، وكان من المستحيل الوصول اليه قبل حلول الظلام . لم يستطع ان يسمع سوى رنين ناقوس صفير ، أصاخ السمع ، فحتى الرنين كان يومي بالألم ، وكأن القدر يتهدده . ولطالما شعر هو في دخيلته بالحنين الى تحقق قدره . »

كان صوته ناعما وجافا ومشوبا بذلك التقطع الذي يميز أصوات المرضى غالبا . صمت كلاهما برهة ، ثم قال هوفمان : « أعجبني هذا . » فقال كافكا : « وانا ايضا . » تابع هوفمان : « أعجبني تعبير : القـــدر يتهدده . ما هـــذا ؟ ما الذي سيحدث ؟ القصر تحت الثلج ولـــن يتمكن شخص ما من الوصول اليه ، القصر هو بلا شك القلعة التي رأيتها قبل حين ، اليس كذلك ؟ » .

ـ « قلعة هرادشين ؟ لا ابدا ، لم تخطر ببالي مطلقا . » .

ـ « لهذا يمكن لهذه القلعة ان تكون قصرك . عبر لا وعيك . غالبا ما تصعد اليها ، اليس كذلك ؟ » .

ـ « أنا ؟ ابدا . بيني وبين القلعة الآن ما يشبه العاصفة الثلجية . اعرف انها هائلة بردهاتها وصالاتها . وبكاتدرائيتها . لكني بلغت حـدآ من الإنهاك يمنعني من الصعود اليها ثانية . الوصول اليها بالنسبة لي سيكون هو المنة » .

اصبح فجأة بحاجة للحديث عن نفسه . تابع قائلا « في روايتي يظهر مساح في مطعم القرية ويزعم أن سيد القصر قد استدعاه . ثم تتداخل الاحداث . هل زعمه حقيقة ؟ إنه بشوق للحصول على ما يسميه الموظفون ترخيص إقامـة ومـا نسيمـه نحن الأناس العاديون الاستقرار ، مكانـا للإقامة . »

همس هوفمان لنفسه : « ويمكن للانسان أن يسميه منة . » .

ـ « نعم . ومساحي يحصل اخيرا على ترخيص الإقامة التي تسميها (منيه) ، ولكن فقط عندما يكون في فراش الموت » .

صاح هوفمان : « قلت لنفسي أني بعد بضعة أسطر ساعرف أي نوع من البشر . هو هذا الذي يكتب . نعم ، لكن ما اخشاه هو أن المنة تنقصك انت أيضا . » .

قال كافكا بهدوء : » انها تنقضي « .

ودون أن يسأله هوفمان ثانية قال كافكا : « أتود سماع البداية ، غيرتها مرتين حتى الآن ، هذه هي الصيغة الثالثة . أترغب بسماعها ؟ » .

« طبعا » . قال هوفمان الذي أدرك بعد إمعان النظر ان التشطيب لم يطل الكثير من السطور . كانت هنـاك خطوط تحت بعض الجمل ، وكانت الاحرف الصغيرة الجميلة مائلة قليلا نحو اليسار . تبع كافكا الإيقاع دون أن يؤكد على شيء ما بشكل واضح :

« كان الوقت مساء عندما وصـل ك. كانت القرية مغطـاة بالثلج الكثيف ، وما كان ممكنا رؤية شيء من تلة القصر، كانت محاطة بالضباب والظلمة . ولم يكن ثمة ضوء يشير الى وجود القصر الكبير . أطال ك الوقوف على الجسر الخشبي الذي يصل ما بين الطريق الزراعي والقرية ورفع نظره نحو الفراغ المتبدي . » .

نظر كافكا في عيني هوفمان وتابع : « ويجد المساح لنفسه مأوى في مطعم القرية ، حيث وضع له كيسا مليئا بالقش كفراش بجانب المدفأة . » احيانا كان يشـوب صوت كافكا طلاوة خاصة وكأنها نابعـة من الصفحات مباشرة . واحيانا اخرى كان صوته ينقل المضمون فحسب : « لكن ك. سرعان ما يوقظ من نومه ، ليجد أمامه رجلا بثياب مدينية يعتذر منه بأدب . قدم نفسه كابن ناظر القصر وقال إن هذه القرية تابعة للقصر ، وإن من يبيت فيها هو بحكم من يبيت في القصر ، وأن المساح لا يملك ترخيصا بذلك أو انه على الاقل لم يظهر هذا الترخيص . كان هناك جهاز هاتف فوق كيس القش . فخابر ابن ناظر القصر المسؤولين واستفسر عن قصة القادم الجديد الذي يزعم أن القصر قد استدعاه كمساح . ولكن بدا أن لا علم لأحد بالموضوع . تكور ك تحت الغطاء ، فقد خشي أن يتعرض وهو الكذاب لهجوم الجميع . عندما رن الهاتف مجددا ، خطأ ؟ غريب ، غريب ، كيف يمكنني الآن توضيح الامر للسيد المساح ؟ »

توقف كافكا عن القراءة ، إذ اقترب غريب من المائدة ، وضع يديه على كتفي هوفمان وقال بالفرنسية : « لا شك انك هوفمان . » تعانقا . بصمت ويقظة بالفة راقب كافكا تبادل التحية بينهما . ورغم معرفته بوجه غوغول من الصور الا انه ولد في نفسه خيبة . لم يعجبه ، بدا له

متصنعا ـ شاربيه ، عينيه الجاحظتين، رداءَهُ كثير الازرار وكأن عينيه استمرار لصفي الأزرار . لو لم يعرف أن الواقف أمامه هو أحد كبار ادباء روسيا لظنه ناظر حراج أو اي موظف من هذا القبيل .

بمزيج من اللغات تبادل هوفمان وغوغول الحديث . وقد فهم كافكا منه قسطاً لا بأس بـه لأنه لا يتكلم الألمانية فحسب ، بـل التشيكية ، وقليلا من الفرنسية . وكان هوفمان طيلة الوقت مهتما بكافكا ويترجم له ، ولكأنه يعرفه من سنين . قال له خلال الحديث : « غوغول مصاب بحمى السفر غالبا ما أصاب بها أنا أيضا . فهو تارة في مصح المانيا ، وتارة اخرى في سريسرا . ثم يسافر الى روما أو الى باريس . لغـات المناطق التي يعبرها تبدو ببساطة وكأنها تعلق به . خلال الرحلة انجز العمل الفني العظيم ، رواية « النفوس الميتة . » .

ـ قال غوغول : « في باريس علمت بموت بوشكين ، وهو الـذي أهداني الفكرة لهذه الرواية . » .

وفكر كافكا أن غوغول يقول ذلك رغم أن أصدقاءه من القساوسة والنبلاء يحاولون انتزاع حبه لبوشكين من نفسه .

بشفتين نحيلتين تابع غوغول حديثه : « على المرء أن يكون منصفا تجاه الاموات . الرواية على اية حال ليست عظيمة أبداً . عندما سـأصل وطني سأفرق الفصول الجديدة ، فقد ادركت أنها ضعيفة . » .

ـ صاح هوفمان وكافكا معا « ضعيفة ؟ » .

وتابع كافكا : « إنك تحاول أن تقنع نفسك بذلك ، أو ان هناك من يحاول اقناعك بذلك . بعضهم يمتدح الكتاب حتى السماء وبعضهم

الآخر يمزقه شر تمزيق . » . « والمهم في الامر هو من الذي يمتدح الكتاب ومن الذي يلعنه . »

نظر غوغول الى كافكا بشيء من السخرية ، وكأنه يقول لنفسه : يا له من شاب مغرور . اما كافكا فقد قال لنفسه : وانا ايضا لا انوي ترك اي من اعمالي بعدي ، ولكن لسبب مختلف كلية . لا بد من إفنائها بعد موتي . فالناس سيسيؤون فهمها حتما ، ولن يكون بمقدوري الدفاع عن نفســي .

راقب هوفمان غوغول بانتباه ، وفكر : « ولِمَ كل هذا الاهتمام بالأجيال المقبلة ؟ هذا الرجل مصر لا شك على تمزيق الفصول الاخيرة خوفــا من الجحيــم الذي يهــدده به القساوسة . سيفعل ذلك حتما . لقد تغير الآن عما كان عليه عندما الف الروايـــة . لماذا تغير ؟ ما الـــذي جرى لـــه ؟ » .

تابع غوغول قائلا : « كل منا يحمل ذنب ما كتب . وسيكون مسؤولاً عنه يوم الحســـاب . » .

فسأله هوفمان : « وما ذنبك بالنسبة لهذه الرواية ؟ المذنبون في رأيي هم من يريدون إعاقتك عن كتابة الحقيقة . ولطالما حاولوا ذلك معي . إن ما يعتبره الناس محض خيال يمكن أن يتضمن أحياناً جزءاً من الواقع الملموس . لقد جعلوا الفترة الأخيرة من حياتي بالغة المرارة لانني سخرت في حكايتي الخرافية « المعلم برغوث » من وزير الداخلية ومساعديه ، واضطر الناشر الى حذف المقاطع المعنية من النص ، اقصد مقطع (القبقاب الصاخب) . أرجو أن يتمكنوا من نشرها يوماً ما في طبعة ما » .

كان كافكا يصغي متأملاً ، وكان وجهه جميلاً تقريباً، عندما فكر : « من المؤكد ان كلا منا يحمل ذنب ما يكتب . ومن واجب كل منا أن يكتب الحقيقة عن الحياة الحقيقية . والصعوبة تكمن في أن كلاً منا يفهم شيئاً آخر من « حقيقة » و « حقيقي » . الغالبية لا تفهم منها سوى الحقيقة الخشنة ، المرئيـة والملموسة . وحالما ينتقل الواقع الى حيـز الحلم ، والأحلام تنتمي الى الواقع بلا شك ـ وإلا الى اي شيء ستنتمي ـ لا يفهم القراء الكثير » .

قال هوفمان وكأنه قد سمع هذه الأفكار : « لا يفهم الناس سوى أحلامهم هم . وحتى لو نسوها ، فهم يتذكرونها عندما تصور في العمل » .

فقاطعـه غوغول قائـلاً : « وما جدوى الكتابـة إذا كان البشـر لا يفهمونك ؟ » .

أجاب كافكا : « لا جدوى منها . لذلك كتبت لصديقي طالباً منه أن يحرق كتاباتي حال سماعه بموتي ، فالناس سيفسرون كل شيء بشكل خاطىء ، والانسان لن يتمكن أبداً من متابعة أفكاري ، وكلماتي التي هـي بمثابة أجنحة لها ، أبداً ، وليس لأني كتبت شيئاً مغلوطاً ، وكمثال على ذلك روايتي « القضية » ، فالناس سيربطون بينها وبين أية قضية تثيرهم ، حتى بعد ان يكون التراب قد واراني . أعرف ان مرضي مميت . ثمة سلطة أجهلها افتتحت ضدي قضية ستكون نهايتها مميتة ، هذه هي قضيتي » .

قال هوفمان لنفسه : « ربما كان لا مفر لهذا الشاب الذي صادفته هنا من الموت » . ولكن إذا كان غوغول ينوي تدمير افضل جزء من ذاته ، عمله، فسبب ذلك هو خوفه من قضاء الرب، هذا الخوف الذي حقنوه به.

وبتأمل تابع كافكا قولــه : « وكان علي أن أكتب عن فئة الموظفين الغريبة التي تتحكم فينا بتخويل من سلطة مجهولة ، لكن هذه الفئــة في حد ذاتها غير ذات أهمية . ولا يبدو عليها من مظهرها أنها تحمل أمــر الاعتقال في جيبها . وليس من الواضح فيما إذا كان الضباب يخيم على أعين القراء أم على روايتي » .

قال هوفمان : « بالنسبة كحالتي أعتقد أن الأمر واضح » . وتابع : « رغم أني أقفز دائماً من الواقع الى المتخيل ، يجب أن يكون الأمر واضحاً ، وإلا من سوانا سيمنح الناس العزاء ويحذرهم ؟ » .

ـ « ولكن على المرء الا يقرأ وهو شبه نائم ، عليه أن يكون يقظاً ، باحثاً خلال القراءة . عندها فقط سيتوضح ما أعنيه » .

وبصوت بــدا مصطنعاً كشاربه قال غوغول : « في وقت ما كنت أشاطركما الراي . اما الآن فأعتقــد أن الفرد لا يستطيع وحــده إدراك الحقيقة ـ » نظرا إليه مذهولين . ثم ضحك هوفمان وقال : « ما الذي جرى لك ياغوغول منذ كتبت روايتك ؟ لولا موظفيك الحقيرون ولولا عبيدك لما استطاع تاجر النفوس شراء أي نفس » . ـ خلال ذلك كان المقهى قد امتلأ بالناس والدخان . تقدم النادل من طاولتهم وسأل غوغول عن رغباته. وجاءت خيبة غوغول عميقة عندما علم انه لا يوجد في هذا المقهى لا مشروب سليڤوڤيتس ولا اللحم ولا مخلل الخيار . وبانزعاج طلب قهــوة وبعض الكعك . ثم تابع حديثه بجفاف واضح : « بوشكين كان سيوافقكما الراي . رصاصة خلال مبارزة كما تعرفون قررت مصير حياته على هذه الأرض ، ومن يدري هل كان مناسباً للانسان الفرد أن يفرق بين العدل والظلم » .

أجاب هوفمان : « لكنك في رواياتك وقصصك فرقت بكل وضوح بين العدل والظلم » .

وقال كافكا : « قصتك «المعطف» تعجبني اكثر من رواياتك الضخمة، فكرة طيران الشبح عبر شوارع المدينة وانتزاعه معاطف الفراء الجميلة الدافئة عن اكتاف السادة المتخمين ! » .

فجأة خرج غوغول من حالة التكلف وانخرط مع جليسيه في الحوار مستعيداً ذاته الأصلية وقال : « في هذه القصة الطويلة بالذات ينتهي الواقع فجأة بطيران مجنون . غادر الرجل الضخم بيت زملائه وجلس في الزحافة ، وشعر داخل معطفه الدافىء بحالة من الراحة القصوى .

وما كان يزعجه بين الحين والآخر هو الريح العاصفة التي يعلم الله من اين هبت دفعة واحدة ، وفجأة شعر رجلنا الضخم ان شخصاً ما قد امسكه من ياقته بقوة جبارة ، التفت ـ كان الشخص رجلاً قصيراً ببذة موظفين زرية الهيئة ـ وتعرف صاحبنا وقد ركبه الذعر على اكاكي المتوفى « اخيراً ! أخيراً امسكت بك ومن رقبتك ! معطفك يلزمني يارجل ، ها ! لم تبد أي اهتمام بمعطفي ، وفوق ذلك صرخت بوجهي بفظاظة . تعويضاً عن ذلك ستعطيني الآن معطفك ! » .

إن ما هو اشد لفتاً للنظر برايي ، هو ان شبح المستشار قد اختفى من ساعتها . ومعطف السيد مستشار الدولة انسكب على جسم المستشار القصير وكأنه مفصل له . . » .

كان مستمعاه ينصتان إليه باستثارة ، وبدهشة كانت مزيجاً من الفرح والجد معاً .

افرغ النادل محتوى الصينية على الطاولة ، مد غوغول يده الـى الكعك ، ولكن دونما رغبة ، فقد كان يشتهي اشياء أخرى ذات طعـم لاذع وحرّيف .

فجأة التفت الى هوفمان وقال : « سبق وقلت أن قصصك الخرافية لا تعجبني بالمستوى نفسه . ولكن غالباً ما يأسرني المفاجيء والغريب فيها . وفكرت بكيفية ربطك بين الأفكار الفانتازية وبين أشياء في غاية البساطة ، كمقبض باب او برغوث . نعم ، ولكن ثمة ما لم أهضمه ، وهو طريقة تعاملك مع الزمن . فأنت تستخدمه كما يحلو لك . فما هو ماض يحدث عندك اليوم . وفي مرة أخرى اجد في الزمن الحاضر استمراراً لحدث وقع قبل مائتي عام . وأنا أرى أن قانون الزمـن يجب أن يسري حتى على ما هو متخيـل .

صحيح أن شبح أكاكي بعد وفاته يتمسك بمعطف مستشار الدولة ؛ فعندي ايضاً ينتقل ما هو واقعي الى خير المتخيل ، لكني لا اتخلى عن تتابع الزمن . اكاكي المسكين كان مضطراً لبذل الكثير كي يقتصها ويؤمن لنفسه المعطف . وعبر فترة الاقتصاد هذه يتوضح لك ماذا يعني الحصول على المعطف بالنسبة له ومن ثم فقدانه . وفقط عندما يموت يأساً تتحول روحه الى شبح » .

قال هوفمان : « انا لا اولي عنصر الزمن اية اهمية » وتابع : « ففي روايتي مثلاً يلتقي عالمان هولندیان في فرانكفورت على نهر الماين ، علماً أن أحدهما قد دفن في مدينة أو ترشت قبل ذلك بزمن بعيد . وهو اول عالم يكتشف العدسة المكبرة . وفي قصتي انا بحاجة لهذه العدسة . حتى أني استخدم اكتشافه كعدسة ليلية تكبر فجأة في سيرك البراغيث كل

الحشرات الضئيلة الى وحوش هائلة تثير الفزع في الناس وتدفعهم للهروب من القاعة . الجمهور المحتشد يرى فجاة قملا وبعوضاً كان من الصعب رؤيته ، وقد كبر الآن بصورة هائلة مرعبة . ونحن الثلاثة ، لو ابتغينا التمسك بتتابع الزمن لما جلسنا الآن معاً الى هذه الطاولة . الم أعش أنا قبلك بزمن طويل يا غوغول ؟ وانت ؟ الم تعش قبل كافكا بمئة عام تقريباً ؟»
قال كافكا وكأنه يخاطب نفسه : « الزمن مرتبط ارتباطاً حتمياً بحياتي وكتابتي . شخوصي لا تحتاج الى وجوه . فالقراء بإمكانهم تخيلها. ما يهمني هو سلوك هذه الشخوص وطبيعتها في حالات محددة . اتصور مثلاً كيف سيكون سلوك جاري الطيب فيما لو اعتقلت فجاة ، وختم منزلي دون أن أدري سبباً لذلك . الجار الطيب الذي كان يبدي تجاهي كل الاحترام ، يبدأ بضرب اخماساً بأسداس . وانا قادر على تخيل حالة إنسان يتعرض للتهديد من قبل سلطة مجهولة لا يدري كنهها . ولكن حتى التهديد ، فإن السلوك ــ وهو بالمناسبة حقيقي واقعي كأي وجه او شخص ــ يخضع لتتابع زمني ما ، لذلك ارى غوغول محقاً في رايه » .

عاود غوغول السباب لأن المقهى لا يقدم أشياء معقولة . والوقت لم يكن كافياً للانتقال الى مطعم . ومضطراً ، عاود طلب القهوة مع صحن من الكعك عرض محتوياته على جليسيه .

قال هوفمان لنفسه : « أنا بالذات ، انا الذي أعتبر الأكثر جموحاً نحو الخيال من بيننا نحن الثلاثة ربما كنت الأكثر تعرضاً للعذاب من احداث العصر ، من أزلام مترنخ الحقيرين المتواجدين في كل مكان . خلال المرحلة الأخيرة من حياتي ، رغم اني كنت مشلولاً ، تخبطت في افكاري كثيراً . ولكن يبدو لي أن روح غوغول ستتحول الى بخور . فهو غير قادر على مجابهة الحياة في ظل القيصر . لابد أن وضعه صعب ، قاهر » .

ثم تابع بصوت عال : « لا أنهم يا كافكا لم لم تكتب قط عن العدالة، وإنما بشكل عام عن قضية تديرها سلطة مجهولة » .

أجاب كافكا بعذاب : « من المحتمل اني في شتاء ١٩١٧ القاسي قد اصبت بهذا المرض الذي سيقضي الآن علي ، آنذاك كتبت قصة قصيرة بعنوان (راكب الدلو) . ليس فيها اية الغاز ، بل هي واقع مرير . ليست قصتي القصيرة بعظمة قصة (المعطف) الطويلة . لكنها ستكون مع ذلك عظيمة لو اراد الناس فهمها . » .

كان غوغول قد تخلص من تكلفه نهائيا ، فدون أن يدري تملكته حمى المهنة . قاطع كافكا وقال : « لو ، لو مالايفهم لايفيد شيئا . وهذا غالبا مايرويه الشباب . » « أعتقد انك تظلمه ! ربما كان بوسعك ياكافكا ان تحكي لنا شيئا منها ؟ » وبصوت منخفض ، دون مبالغة في النبرة، وبايقاع افكاره ، بدأ كافكا يحكي : « الفحم انتهى حتى آخره ، الدلو فارغ ، المجرفة بلا جدوى ، المدفأة تتنفس البرد ، الغرفة يعشعش فيها الصقيع، أمام النافذة ثمة أشجار جمدها الصقيع ، السماء درع فضي في وجه من يبغي المساعدة من ربه . يجب أن أحصل على فحم ، يجب الا اتجمد من البرد ، خلفي مدفأة لاترحم وأمامي سماء مثلها ، ونتيجة لذلك يجب أن أخطو بينهما بحذر ، وفي الوسط سأطلب المساعدة من تاجر الفحم .

الحسم سيكون بدءا من انطلاقتي ، لذلك سأركب الى تاجر الفحم على الدلو . وكراكب الدلو سأستخدم مقبض الدلو المصنوع من سلك بسيط كمقود في يدي ، أوجه طريقي به بصعوبة الى أسفل السلم، ولأطير من ثم علي ارتفاع شاهق فوق قبو التاجر الذي يجلس هناك في الاعماق الى طاولته يكتب وقد ترك الباب مفتوحا كي يسمح للحرارة الفائقة بالخروج .

(ارجوك ياتاجر الفحم أعطني قليلا من الفحم . دلوي فارغ لدرجة اني أستطيع ركوبه . كن رحيما بي . سأدفع لك الثمن حالما استطيع .).

رفع تاجر الفحم يده الى اذنه وقال سائلا زوجته التي كانت تغزل جالسة على مصطبة المدفأة : (أصحيح ماأسمع ؟ هل أسمع بصوتزبون؟) (لا أسمع شيئا) أجابته زوجته وهي تتنفس بهدوء فوق صنارتيها والدفء اللذيذ يسري عبر ظهرها .

فصحت : (لكني هنا ، زبون قديم ، مخلص لمحلكم ، الا انني الآن مفلس .) .

(ياامرأة ،) قال التاجر وتابع : (هناك شخص ما بالتأكيد ، لايمكن ان يخونني سمعي الى هذا الحد ، لابد وان يكون زبونا قديما ، فصوته يلامس شغاف قلبي .) .

(انا قادم ، قال التاجر واراد بساقيه القصيرتين صعود سلم القبو . الا أن زوجته سرعان ماكانت بجانبه ، فأمسكته من ذراعه بحزم وقالت : (ابق انت هنا . تذكر سعالك الشديد الليلة . انا سأذهب .).

فصحت : « يازوجة تاجر الفحم المحترمة ، اطيب تحية . مجرفة فحم واحدة ارجوك ، في الدلو هنا ، مجرفة واحدة من اسوأ انواعالفحم . سأدفع السعر كاملا طبعا ، لكن ليس الآن ، ليس الآن .) اي جرس كان لهاتين الكلمتين (ليس الآن) ، وكيف امتزجتا بأصوات النواقيسالمسائية القادمة من برج الكنيسة بشكل تضطرب له الحواس » .

(ماذا يبغي !) سأل التاجر . (لاشيء .) أجابت زوجته وتابعت : لاشيء هناك ، لاأرى شيئا ولا اسمع شيئا .) .

لاترى شيئا ولا تسمع شيئا ، ومع ذلك تخلع مئزرها وتحاول به طردي مع الريح . وقد نجحت للاسف . دلوي يتصف بكل ميزات المطيات، الا القدرة على المقاومة ، فهو خفيف جدا ، مئزر امرأة كاف لاقتلاعه من الارض .

عندما التفتت المرأة نحو القبو بمزيج مـــن الاحتقار والسرور معا ، وهي تضرب الهواء بيدها ، صحـــت : (أيتها الشريرة ، أيتها الشريرة ! مجرفة من اسوأ نوع طلبت منك وانت ترفضين .) كنت خلال ذلك ارتفع الى مجالات جبال الجليد لأضيع الى الأبد . » .

صمت المستمعان . لم يجدا من اللائق امتداح القصة بصوت مرتفع، خاصة وأنها قد تغلغلت الى اعماق نفسيهما .

ولكي يراعي كافكا صوته قال بما يشبه الهمس : « منذ ذلك الشتاء اللعين ، حين طلب راكب دلوي الفحم دون جدوى ، وانا اعيش اسـير الخوف من الموت . تداعى حكم آل هابسبورغ ولم أكن افكر الا بنفسي. أستلم مازاريك زمام الامور في قلعـــة هرادشين ولم افكر الا بنفســـي . امتدت الثورة عبر البلاد ولم افكر الا بنفسي .

قد تكون قصتي « راكب الدلو » ، جيدة ، الا انها لاتقارن بـ(معطف) غوغول ، حيث تتجلى الهوة مريعة بين الاغنياء والفقراء . » .

قال غوغول : « قصتي جميلة صحيح ، الا ان قصتك ايضا تعجبني . الهوة ، كما تسميها ، موجودة في القصتين ـ هذا اذا كان بالامكان مقارنة قصتك القصيرة بقصتي . أنا أقفز في النهاية الى حيز الفانتازيا ، وانـت تباشر به قصتك فورا . وفي القصتين يقف العدل والظلم وجها لوجه .

عندما كنت تلميذا هضمت في نفسي كل ماكنت أسمعه عـن جماعة الديسمبريين . وفيما بعد ، عندما اصبحت اديبا ، لم يكن في نيتي في الواقع التفريق بين العدل والظلم ، بين الغنى والفقر ، هذا كان يأتي مـن نفسه ، طالما بقيت أمينا للواقع . » .

وفكر هوفمان بأن غوغول الذي يقول ذلك ماعاد يجرؤ على لقاءمعلمه وصديقه بلينسكي علنا ، خوفا من ان يضبطه معــه أحد أصدقائه مـن النبلاء .

قال : « اتوسل اليك ، لاتغير شيئا في كتابك (النفــوس الميتة) ، ففيه ستتوضح مرة والى الابد حقيقة حياة البشر خلال مرحلة الرق . » .

« لا ادري ، لا ادري » قال غوغول ، « كثيرون ينعتونني باللؤم . وفجأة يجدون أن بوشكين لم يكن بهذه الحدة ابدا ، بحيث تطغى الحدة على الشاعرية ، فتضيع الاخيرة . وحتى صديقي الفرنسي ميرميه لم يطنب في مدح الرواية مثلك. هو يرى اني لا احسن التفريق بين الخسة والسخف ، وأن لدي نزوعا لعرض الجانب الرديء من الحياة بخاصة » .

فقال هوفمان : « لاشك ان ماعناه بهذا لايتطابق مع رأي قسيسك . » وبصوت منخفض قال كافكا : « هذه التهمة اعرفها . اقصــد اني لااريد سوى عرض الجانب الرديء المظلم . ــ لا . بل مايستغلق على التفسير ، القــدر المحتوم المهدد ــ ــ » ثم تابع بصــوت أكثر وضوحا : « في احدى قصصي يتحول الشاب رمزا الى ضفدع ضخم . قسوتي تصدم القارىء . مع أني لم اعرض سوى مايجري في زمني ، فيما لو حدث مايشابه أحداث اقاصيص الاخوين غريم : كانتقال الضفدع الى القصر واضطرار ابنة الملك لتناول الطعام معه والنوم معه . انا احب اقاصيص الاخوين غريم . تعلمت

الكثير من لغتها . ولا بد ان اعترف بأني قد أخذت عنها مغزى وايقاع الكثير من الجمل .

اللغة شيء رائع ، عاص على التفسير . قد يروي الافراد أشياء سخيفة واكاذيب ، وقد يلغون ويثرثرون ، الا ان كل لغة في كليتها عظيمة. في احدى الاساطير الكاسيدية يقال : ان نطقت بكلمة عن الرب فانك تتلاشى بكل اضلاعك واعضائك في هذه الكلمة . ـ اعتقد أن شعبا بكامله، وليس الفرد فحسب ، يمكن أن يندغم في كلمة من لغته . » .

« هذا صحيح ، » قال غوغول وتابع : « عندنا ، هناك كلمات يعيش فيها الشعب الروسي بأكمله . نعم ، وهناك كلمات وجمل قصيرة يدرك معها الانسان فورا انها تتضمن ليرمنتوف كله أوبوشكين كله ـ » .

قال هوفمان « الأمر نفسه في المانيتي » : « فمن غوته وحده يمكنني ذكر مئة مثال ، إني أعتبره عظيما رغم انه مؤخرا قد شتمني باحتقار ، في البداية كان يعجبه كيف انتقل من حيز الواقع الى المتخيل . وهو بنفسه يقوم بمثل هذه القفزات ، في (فاوست) مثلا ، في ليلة فالبورغي. قفزته هناك من الواقع الى المتخيل كانت عجيبة . وبعد رحلته الى ايطاليا، كما يقال ، لم يعد يعتقد إلا بالثقافة الاغريقية .. وكان الاولى به أن يعرف أن اليونان والرومان بالذات غالبا ماكانوا يجنحون من الواقع الى الخيال. لم نعد ندري اليوم ماالذي كان يعنيه الواقع بالنسبة لهم . ولكن ماالذي تقصده ياكافكا بقولك : أسطورة كاسيدية ؟ » .

فأجاب كافكا : « خلال القرون الاخيرة تشكلت لدى يهود بولونيا ثقافة خاصة ، سواء منهم من عاش في الريف وأصبح فلاحا اصيلا ، ام من عاش في غيتوات المدن . وهؤلاء كانوا يحكون اساطير وقصصا خرافية هي

جزء من اسفارهم القديمة ومن التلمود ، وجزء من التوراة وجزء آخر من مخيلتهم . بعضها كان مرحا وبعضها الآخر مرعبا . عندما زارت فرقـة معهد لمبرغ للتمثيل في مدينة براغ كنت غالبا ماأجلس مع لوفي في مقهـى سافوي ، وقد تعلمت الكثير من حكاياته » .

« لكننا لم نسمع بهذا أبدا . » .

فقال كافكا : « الكثير من قصصي ترتبط بصلة ما مع الحكايات الكاسيدية . » .

نظر اليه غوغول بتأمل وسخريـة ثم قـال : « أدباء روسيا الكبار اعرفهم جميعا . ولا اظن أن في بلدي شيئا مما تتحدث عنه . نعم،اليهودي كان يأتي الى المزرعة ويطالب أمي بديونه ، ولكن لم يخطر ببالي انه قادر أيضا على تعاطي الادب . » ضحك هوفمان وقال : « تشيتشيكوف الذي كان يتاجر في قصتك بالفلاحين الميتين ، كان روسيا أليس كذلك ! » .

لم يول غوغول ملاحظة هوفمان اي اهتمام ، وتوجه الى كافكا سائلا : « هؤلاء الكاسيديون حسبما قلت يؤمنون بالرب ، ولكـن هـل يؤمنون بالشيطان أيضا ؟ » .

« بالطبع » أجاب كافكا وتابع : « سأحاول كمثال على ذلك ان أروي لكم حكاية مازالت تهزني حتى العظم : يصل الى علم أحد الفتيان انحَبْراً، معلما أصيلا ، يعيش في مدينة غير بعيدة عن موطنه ، ويرغب بالتتلمذ على يديه ، لدرجة انه يتوسل الى والديه كي يرسلانه إليه .

رغم تخوف الوالدين من ذلك خضعا لتوسلات ابنهما ، وانطلق الأب معه . ولكن ما ان تجاوزا بلدتهما حتى انخلع أحد دواليب العربة . فاعتبر الأب هذه اشارة من الرب للتخلي عن الرحلة : لكن الابن يتوسل حتـى

يقتنع الاب ويتابع الرحلة معه . وعلى الطريق تفاجئهما عاصفة وعديـة رهيبة ، فيعودان . يمرض الفتى وتزداد عليه وطأة المرض مـن الحزن ، لدرجة ان الطبيب وحتى الوالدين يخشون على الفتى من الموت ، إن حالا بينه وبين الالتحاق بالمعلم .

يصلان أخيرا الى هدف رحلتهما ، فيبيتان في فندق . في مطعم الفندق يجلس الى طاولتهما غريب اشيب نحيل ذو نظرات صارمة ، ويسأل عـن سبب قدومهما ، فيشرح له الأب السبب . فيحذره الغريب مـن الأمر قائلا : (من حسن الحظ اني اعرف هذا الرجل الذي تريد إرسال ابنك اليه . انه ليس معلما أصيلا ، بل هو يفسد الفتيان بتعاليمه .) وبحزن يخالطه رغم ذلك شيء من السعادة ، لأن أحدهم قد أخبره أخيرا بحقيقة الأمر ، يعود الأب مع ابنه الى بيتهما .

خيبة الامل تمرض الابن . وليس ثمة من طبيب يستطيع فعل شيء ، فيموت . بعد بضع سنوات يسافر الأب صدفة الـى المدينة ويبيت في الفندق نفسه . فيجلس اليه الغريب نفسه ويسأله عن اخبار ابنه ، فيخبره الأب بوفاته . يفرك الغريب يديه وتبرق عيناه ويقول : (حان لك ان تعرف الحقيقة الآن . المعلم كان يمتلك درجة النور الاكبر ، وابنك درجة النور الاصغر ، ولو التقيا لظهر الهادي المنقذ . لكنني حلت دون ذلـك الـى الأبد .) » .

خلال الحديث كان وجه كافكا قد شحب . هو فمان نظر اليه بدهشة ، أما غوغول فقد قال : « الشيطان ، لاشك ! رغم اني لم أستوعب الحكاية تماما . كثيرا مايظهر الشيطان في قصصي ، لكني اعتقد اني أجيد تصوير البشر ذوي الصفات الشيطانية بشكل أفضل . » .

فعلق هو فمان قائلا : « في قصتي (شراب الشيطان السحري ، يظهر الجانبان معا . أحابيل الشيطان تجعل من البشر أيضا شياطين . لاشك ياكافكا انك قد تعلمت الكثير من الاساطير التي رويت لنا إحداها . ولكن يبدو لي انك لم تكتف بالجوانب الخيرة ، فلقد اخذت عنها الكثير مما يخيف البشر ويجعلهم عديمي الثقة . اخشى انه ليس في قصصك اناس من لحم ودم ، بصفات خيرة وشريرة . مخلوقاتك لاتمتلك سوى أحاسيس محددة ، قد تسيطر على اي انسان احيانا . سبق أن قلت مثل هذا بنفسك . إنك تبتكر مخلوقاتك كي تجسد هذه الاحاسيس . » .

« مهلك » قاطعه كافكا قائلا : « الاسطورة ليست من عندي ، فهي مروية . إنها حكاية يهيمن فيها الشر . والسيد غوغول كان قبل قليل قد سألني عن الشيطان . » .

قال غوغول : « هدفي ان اعرف . وانا شخصيا اعاني من التهمة الموجهة الى الأدباء والتي تتلخص في التساؤل التالي : وما الذي يغوي الاديب بتصوير الشر ، بل ماهو شيطاني ، بجودة فائقة ــ ولماذا ينجح في ذلك اكثر مما ينجح في تصوير الخيّر والطاهر ؟ » فأجاب هو فمان : «أعتقد أن السبب في ذلك هو تغلغل الاديب الى أعماق النفس البشرية ، وهذا مايمنح القراء العزاء . » .

« العزاء ؟ » :

« العزاء . أيضا . » أجاب هو فمان وتابع : « غالبا ماأحس القاريء سابقا بالشر .

وعندما يقرأ عن ذلك في كتاب ما ، يدرك أنه ليس الوحيد في احساسه هذا . وهذا يريحه ، كشكل من اشكال الاعتراف . تسألني ماالجميل في

ذلك ؟ بين التماثيل الحجرية للعذراوات بوابة كاتدرائية ستراسبورغ ، بل وفي اي مكان آخر ، تجد أن العذراوات الشريرات أجمل من الخيرات الورعات . على الشر أن يغوي ، وعلى الخير أن يفعل من ذاته ، ولكن غالبا مالاننجح نحن البشر التعساء في ذلك . نادرا مانجد في دواخلنا صورة للطهر مغوية . » .

انصت غوغول الى هذه الجمل بانتباه يقظ ، ثم قال : « أنت على حق في كل حرف قلته . فأنا نادرا ماأصادف الجليل ، النقي . ونادرا ماأتمكن من تصويره . لدى بوشكين ، نعم ، يتجلى هذا احيانا في حوادث يومية اعتيادية جدا ، في « أونيغين » مثلا ، في سلوك تاتيانا .

بالنسبة للطبيعة ، للجبال والانهار ، أنا أصور هنا روعة مافي بلادي، جماله وطهره . » .

قال هوفمان : « وفي الموسيقى » ينبعث الجليل والطاهر من تتابع لامحدود للأنغام . ربما يسكن الجمال النغم لان النغم لاشكل له ، في حين تخفق الكلمة والحجر . » .

التفت إلي كافكا وقال : « زعمت قبل قليل ان مغزى حكاية ما كانما يكمن في اللغة . » .

فأجاب كافكا : « وكل مضمون يتطلب لغة خاصة . وبين التشيكية والالمانية أشعر اني بلا وطن .

لقد تناولت الطعام مع هاشيك في مطعم الفندق ، ومع لوفي في مقهى سافوي ، كما اني لم اكتف كغذاء روحي بالكتاب الألمان والروس وبالأساطير الكاسيدية . وعبر ترجمات كيركغارد الدانمركي شعرت حتى

الحسد بوحدة اللغة مع المضمون ، فمثلا في كتابه حول التوازن بين الجمالي والاخلاقي في تكوين الشخصية ، يقول :

(ياصديقي ! ماكررت قوله على مسامعك سابقا ، أعود لأقوله لـك مجددا . ها أنذا أقولها لك ثانية : إما ـ او ! ان وزن الشيء ، موضوع الحديث ، يبرد وزن الكلمات . ثمة أشياء طبعا لايضعها موضوع تسـاؤل (إما ـ أو) سوى نقص سخيف في القدرة على الحكم . ولكن ثمة اناس هم من الضعف بحيث لايستطيعـون ان يقولوا بحماس : إما ـ او . منذ زمن بعيد كان لهاتين الكلمتين تأثير كبير في نفسي ، ومازال لهما هذا التأثير ، خاصة عندما أذكرهما دون رابط ، بحيث اتمكن في تفكيري من اضافـة اشد التناقضات هولا إليهما . عندها يكون تأثيرهما علي أشبه بتأثير صيغة سحرية : إما ـ أو . . » .

كان يتحدث بصوت خافت ، لكنه كان يتابع الايقاع بيده وكأنه يضرب بالمطرقة على شيء صلب .

قال هوفمان : « وحدة الكلمة والمضمون تبدو لي قد قاربت الكمال في نهاية (النفوس الميتة) . .

فعلق غوغول : « ماتسميه الآن نهاية ، سيصبح القسم الاوسـط ذات يوم ! » .

أرجو الا يحدث ذلك ، فكر هوفمان ، أما كافكا فقد قال لنفسـه : « لن تسيء الى الفن ابدا إن أحرقت هذه الخاتمة الملصقة . ماتزعم الآن انه سيكون القسم الاوسط سيخلد عندها الى الأبد » .

قال هوفمان : « اقراها ياصديقي غوغول ، أرجوك . لدى هنا طبعة فرنسية . ترجمها لنا . » .

اقر غوغول انه يحفظ ذلك المقطع غيبا تقريبا ، وهو يفضل نطقه بالروسية :

« ارتفع تشيتشيكوف قليلا عن مقعده . وهل من روسي لايحب القيادة بسرعة ؟ وهل على روحه التي تحن دوما وفي كل مكان الى الصخب والترنح نشوة والتي غالبا ماتود أن تصرخ ، فليأخذ الشيطان كل شيء ، هل على روحه الا تحب ذلك ؟ كقوة هائلة مجهولة ترفعك على جناحيها . وانت تطير ويطير معك كل شيء من حولك : علامات المسافـات ، الباعـة الجالسون على عرباتهم ، الغابة على الجانبين بصفوف أشجارها الداكنةمن الصنوبر والشربين ، الطريق كله يطير وراءك بعيدا الى مسافات مجهولة. وثمة ماهو مرعب ومروع في هذا الظهور والاختفاء السريعين ، حيثلاوقت للأشياء لاتخاذ أشكال ثابتة ، وحيث يبدو أن السماء من فوقنا والسحب الخفيفة والقمر الذي يشق طريقه هي وحدهـا لا تتحرك وكأنها ثابتـة . ياعربتي ذات الخيول الثلاثة الطائرة ! من الذي اخترعك ؟ لايمكن أن يكون سوى شعب مرح وجريء ـــ في بلد لايحب المزاح ، بـل الامتداد كالمدى اللانهائي على مساحة نصف الكرة .

آه أيتها الخيول ! ايتها الخيول الرائعة ! اتحبين الريح تزوبع في اعرافك ؟ حوافرك تكاد لاتلامس الارض ، إنك تطيرين في الهواء ، ورنـين أجراسك ينبعث رائعا كالغناء ، يشق الهواء فيكاد أن يجمده . كلمايعيش ويتحرك على الارض يطير خلفي ... » .

كان غوغول يرافق الجمل بحركات من أصابعه وكتفيه ولكأنه على وشك الرقص على إيقاعها . ـــ وحتى النادل بصينيته نصف الممتلئة توقف وأصغى . على الطاولة صمت المستمعان ، وكان صمتهما اجزل مـن اي

إطراء . ثم قال هوفمان : « الكل يعرف تشيتشيكوف هذا حقير . ورغم وضاعته كلها ثمة مايشترك فيه معنا جميعا . هو يحـب الرحلة والارض التي يطير عبرها . وبوصفك لهذه الرحلة بعربة الترويكا يرتفع القاريء فوق وضاعة تشيتشيكوف . يخلفها وراءه كأية نقطة ضئيلة عديمة الاهمية في العالم الجليل اللامحدود . هكذا على الانسان أن يكتـب ، ان استطاع . اخشى أن هذا ماينقصك في قصصك ياكافكا ، أعني أن يكـون بمقـدور الانسان في لحظة ما ، وبشكل ما ، الارتفاع فـوق آلام وعذابات حياتنا المهددة . » .

قال غوغول : « لقد تعلمت الكثير منك أيضا ياهوفمان . وربمالمعرفتي بمدى حبك للموسيقى ، يبدو لي لديك أيضا أحيانا وكأن لمضامينك واللغة التي تسكب فيها هذه المضامين حسب طبيعة المضمون جرسا مشتركا . » .

اجاب هوفمان : « بالطبع . فالمضمون المقتضب القاسي يجـب ان يصور باقتضاب وقسوة . لكني أرى ، كما هي الحال عندي غالبا ، ان المعطيات المتخيلـة ، الفانتازية والمتبدلة تحتـاج الـى أشكال فانتازيـة ومتبدلة . » .

قال غوغول : « قبل زمن بعيد قرأت إحدى قصصك الموسيقية ، بعنوان « الفارس غلوك » ، هلا رويتها لنا ، ارجوك ! » .

دون ان نلح عليه كثيرا بدأ هوفمان قائلا : « بما أنني موسيقي ايضا كنت أتردد في برلين على مقهى تعزف فيه فرقة جيدة . هذا ماكنتأرجوه على الاقل .

اواخر أيام الخريف تكون برلين في العادة جميلة ، لذلك كانت الاماكن سرعان ماتمتليء بالزبائن في مقهى (كلاوس وفيبر) .

إلا ان الموسيقى أثارت حنقي . وبجانبي همس احدهم : (ماهـذا القدر الملعون ! اسياد الحان آخر ثانية !) .

عندما رفعت بصري انتبهت الى أن رجلا قد جلس الى طاولتي دون ان الحظ ذلك ، وانه يحملق فيَّ بنظرة ثابتة . لم يسبق لي ابدا ان رأيـت راسا أو شكلا قد ترك وبمثل هذه السرعة هذا الاثر العميق في نفسي ...

بهدوء متدبر خطا نحو العازفين . رأيته يتحدث معهم وهو يعاملهـم ببالغ الاحترام ، ثم عاد الى مكانه ، وماكاد يجلس حتى بدأت الفرقةتعزف افتتاحية (إفيجينيا في آوليس) . بعينين نصف مغمضتـين وذراعـين متصالبين مستندين الى الطاولة أنصت الى الجملة الموسيقية الاولى ، ثم حرك قدمه اليسرى اشارة الى لحظة دخول الاصوات الفنائية . باعد بـين أصابع يده اليسرى وضغطها على الطاولة كمن يعزف على البيانو ، رافعا يده اليمنى عاليا : كان كقائد أوركسترا يعطي الفرقة إشارة دخول ايقاع آخر . ـــ .

انتهت الافتتاحية . ترك الرجل يديه تنزلقان نحو الاسفل وجلس مغمض العينين كمن فقد طاقته نتيجة بذل جهد هائل .

قال هوفمان سأختصر الآن ، نهض الغريب واختفى . بحثت عنه في كل مكان ، ولكن دون جدوى . بعد شهور التقيته صدفة بالقرب من دار الأوبرا . وانصت الى اغرب حديث مع الذات تحت نافذة يستطيع المرء بقربها سماع كافة الالحان التي تعزفها الفرقة تقريبا . دعوته ، وبصمـت سرنا في شارع فريدريك . ثم انعطف بسرعة الى شارع جانبي ، وكدت الا أتمكن من اللحاق به . ونحن نتخبط في الظلمة وصلنا الى درج منزل زري المظهر ، وسمعته وهو يفتح بابا ثانيا . بعد برهة قصيرة دخل وهو يحمل

بيده فانوسا . فوجئت بمنظر الغرفة المؤثثة بطريقة غريبة . ثمـة مرآة ضخمة اسبغت على كل شيء مسحة كئيبة لعظمة مضى عليها الزمن . وفي منتصف الغرفة كان هناك بيانو صغير .

تقدم الرجل من خزانة وسحب الستارة . عندها لمحت صفا من الكتب ذات التجليد الانيق بعناوين مذهبة : (اورفيوس) ، (ارميدا) ، (السست) ، (إفيجينيا) وغيرها ، باختصار ،رايت اهم اعمال الموسيقار غلوك مصفوفة الى جانب بعضها بعضا .

تناول احد الكتب ، وكان (أرميدا) ، ثم توجه باحتفالية الى البيانو . فتحته بسرعة ونصبت المسند ، وقد راقته رؤية ذلك . فتح الكتاب ، ومن سيتمكن من وصف دهشتي! فقد رايت صفحات ذات سلالم موسيقية ولكن دون اية علامة عليها .

قال : الآن سأعزف الافتتاحية ! قلّب الصفحات ، وفي الوقت المناسب ! ، ـ بدأ يعزف بروعة متناهية وانسجام متكامل يكاد يقارب الاصل . وكانت جملة الاليجرو منسوجة فقط بأفكار غلوك الرئيسية . ثم أخذ يُدخل على عزفه تنويعات أصيلة كثيرة ، فكانت دهشتي تزداد وتزداد ...

عندما انتهى من العزف عانقته وصحت بصوت مضغوط : (ما هذا ! من انت ؟) ـ وعندما أردت متابعة اسئلتي كان قد اختفى عبر الباب مع الفانوس ، وقد خلفني وراءه في العتمة . امتد الوقت قرابة ربع ساعة ، ويئست من رؤيته ثانية ، وعندما حاولت الوصول الى الباب مسترشدا بموقع البيانو ، دخل فجأة مرتديا حلة رسمية بسترة مطرزة وقد علق السيف الى يساره وحمل الفانوس بيمناه . تجمدت في مكاني ؛ تقدم مني

باحتفالية ، امسك يدي برفق ثم قال مبتسما بغرابة : « أنا الفارس غلوك .. » .

كان أصدقاء الرحلة قد اتفقوا فيما بينهم ضمنيا على الصمت دائما عند النهاية ، بدلا من التصفيق ، كي يفكروا فيما استمعوا اليه .

وأخيرا بدأ كافكا قائلا : « ها انت تتعامل مع الزمن باستخفاف ثانية . حسب معرفتي توفي غلوك عام ١٧٨٩ ، وانت تزعم انك التقيته في برلين بعد عشرين سنة . » .

قال هوفمان :

ـ « نعم ، لقد التقيته ، فالاديب في رأيي يجب ان يسمح لنفسه باختلاق الاحداث . وليس الاديب فقط . هل تعرفان لوحات حفر كاللو ؟ » كافكا كان يجهلها ، اما غوغول فقد سبق أن شاهدها عدة مرات لدى اصدقاء له في باريس .

وتابع هوفمان : « من أهوال حرب الثلاثين عاما ومن بؤس الفلاحين صنع كاللو لوحات حفر مقبضة ورقيقة في آن واحد ، لوحات ذات شفافية . ولانها غالبا ما تتوافق مع احساسي الخاص فقد سمحت لنفسي أن اطلق عنوان (على طريقة كاللو) على مجموعة من القصص ، من بينها قصة « الفارس غلوك .. » .

قال غوغول « ومع ذلك اخالفك الراي فيما يتعلق بدور الزمن » وتابع : « فأنا مهما اختلقت من أحداث عاصفة ، شبحية وفانتازية فاني لا أستطيع ولا أريد التخلي عن عنصر تتابع الزمن .

تحدثنا قبل قليل عن قصتي (المعطف) . فيها ينتهي الواقع المر بليلة فانتازية . في قصة اخرى لي ، بعنوان (اللوحة) ، يبدأ كل

شيء مختلفا ليتحول من ثم الى سيرة حياة أصيلة . ـ احد الفنانين يقتني بآخر ما يملك من روبلات لوحة قديمة وعتيقة من شارع نيفسكي . الوجه الغريب في اللوحة ينظر اليه بعينين ثاقبتين . يعلق الفنـان اللوحـة في محترفه، فتتابعه العينان . وفي الليل ينزل الرجل من الإطار ويفقد محفظة نقوده . وفي الصباح عندما يحضر صاحب المحترف مع شرطي لتحصيل إيجار المحترف ، يكتشف الشرطي بعض قطع النقود الظاهرة من المحفظة .

بعد ذلك يقف الفنان أمام السؤال التالي : إما ان تستأجر لنفسك بالنقود التي هبطت عليك فجأة محترفا ، وتعمل بجد ، حسبما تمليه عليك موهبتك ، أو تشتري لنفسك بها ثيابا عصرية وتعيش حياتك كيفما اتفق .

ما تبقى من القصة يتعلق بسيرة حياة الفنان الذي يذعن للغواية فيصبح فنان موضة ثري ، ولا شيء سوى ذلك . في النهاية تتملكه حالة بخل مرضي ، وبكل ما تبقى لديه من أموال وبكل حقد وجنون يشتري لوحات زملائه الموهوبين ويحرقها .

كان يمكن لهذه الحكاية ، حتى دون البداية الفانتازية ، أن تكون مسيرة حياة اعتيادية . لكني انطلاقا من الحدث الفانتازي أردت تطوير تتابع حياة اعتيادية . » .

قال كافكا بصوت خافت لكأنما يحدث نفسه : « إن بقي شيء من إنتاجي بسبب صدفة تعيسة بعد موتي ، فلن يتذكر احد اني قد ولدت في ظل ملكية آل هابسبورغ، واني قد عشت ومت في الجمهورية التشيكوسلوفاكية. قد يشعر المرء من كتابتي كلها بشيء من العذاب ، من القلق ،ومن الشك الذي يولده في نفس الانسان منعطف زمني ، وربما شعر بخوفي الخاص من الموت . « .

فقال هو فمان : « اقتراب الموت لم يستطع إعاقتي عن النضال ضد عدوي ، ضد وزير الداخلية ، حتى آخر لحظة » .

لنعد الى موضوع حديثنا يا غوغول حول الملموس والمتخيل : ليست الخيالات والاحلام فقط هيما ينتمي الى عالمي ، بل الحدس والآمـال والمخاوف .

قد ينجح الاديب أحيانا في اختلاق ما لم تحققه الحياة بعد . » .

توقف كافكا عن الكلام وكأنه يحدث نفسه ، بل قال بصوت مرتفع تجاوز الطاولة : « سأتهم بأن عالمي لا مخرج منه . ولكن ألا يحق لي عندما يبدو لي الواقع بلا مخرج ، أن أصوره كما أراه ؟ » .

فأجابه هو فمان : « لا اكثر من هذا الحيز الضيق من الواقع الذي تراه أمامك ، أما الواقع كله فلا يجوز لك أبداً . فبما أنك لا ترى لنفسك مخرجا ، فانـك لا تراه بالنسبة للآخريـن ايضا . ولكن يجب أن يبحث الانسان عن مخرج ، عن شق في جدار ، كما يبحث السجين عن الشق كي يوصل رسالة من إنسان لآخر . على الانســان أن يرى ولو نقطـة نور ضئيلة . بعض لوحات رامبرانت المظلمة مثلا لا تكتسب معناها إلا عبر مثل نقاط النور هذه المضافة بشكل صحيح .

اقرأ ما كتبته عندما حاصرني الموت . اقرا احدى قصصي الاخيرة ، نافذة ابـن العم ، مثلا » « أعرفها » . قال كافكـا وفكر : يا لشجاعـة هوفمان . رغم كل حيله السحرية واشباحه ـ وهو مشلول ، غير قادر على الحركة ، كتب عن نفسه كمن يكتب عن شخص آخر يراقب ساحة السوق وكل من فيها من نافذة منزوية .

تابع هوفمان فكرته الاخيرة قائلا : « في رواياتي الخيالية مزجت بشرا ونباتات غريبة ، وحيوانات ايضا مع بعضها بعضا ، ووضعتها في الزمن الذي تراءى لي صحيحا . » .

قال غوغول : « مهلك ! مهلك ! قد تنجح في التهرب من تتابع الزمن، ولكن عليك على اية حال أن تتمسك بالواقع . » .

اجاب هوفمان : « بالطبع ، وهل ثمة غيره ؟ فالتصويرات الرمزية او الفانتازية ، الحكايات والخرافات لها جذورها بشكل ما في الواقــع كالامور الملموسة ، فالغابة الحقيقية تنتمي الى حيز الواقع ، والحلم بالغابة ينتمي هو ايضا اليه . ترى ألم ينشأ بيت الساحرات في حكاية هنزل وغريتل ، من الواقع ؟ بل من الواقع المرير ، عندما كان الاهل خلال حرب الثلاثين عاما يرسلون اطفالهم الى الغابة كي لا يموتوا امام اعينهم جوعا ».

قال غوغول : « لقد تحدثت كثيرا يا هوفمان. سأفكر مليا بما قلتــ» ثم وقف وقال : « للأسف علي أن اذهب الآن ، فأمامي برنامج سفر ثابت. لقد ارتحت لوجودي معكما . » .

طلب النادل وقال له : « آسف فأنا لا أملك نقودا تشيكية . » .

أجاب النادل : « لا بأس نحن نقبل هنا عملات اخرى . » .

ولكن عندما وضع غوغول على الطاولة روبلاته التي تعود الى عهد القيصرية ، هز النادل رأسه وقال : « عذرا يا سيدي ، هذه العملة غير قابلة للتداول الآن . » .

مد هوفمان يده الى محفظته ، وللتو تذكر أن عملته أيضا لن تفيد شيئا في هذا المقهى . وانتهى الامر بأن سدد كافكا الحساب عن الثلاثة . ورغم فقر محفظته كان سعيدا بلقاء غوغول وهوفمان ، بل باستضافتهما .

قرر هو فمان أن يركب قطار الليل ، إذ ليس من داع للعجلة . ودون هدف محدد بدأ يتجول في المدينة ، ومرة ثانية كان يندهش لكل ما يراه . عبر اقواس بوابات مختلفة وتبين له أن الانسان يستطيع الانتقال الى حارة أخرى عبر افنية البيوت . كانت النسوة يتبادلن الحديث من شرفة لشرفة وهن ينفضن الغبار عن السجاد . ومن الفناء المقابل ظهر رجل عجوز وتجاوز هو فمان . كان يرتدي قبة قاسية رفعت ذقنه بوضوح ، وكان وجهه عابسا ، ففكر هو فمان : ما سبب انزعاجه يا ترى ؟ لا شك أنه يناضل ضد حشره في البسة قاسية تفرض عليه وضعية متيبسة . — لم يتبق من العجوز سوى ذلك في ذاكرة هو فمان . كان الرجل والد كافكا وقد خرج باحثا عن ابنه كي يحضره لتناول الطعام في المنزل ، وكان يتساءل في نفسه : كيف يمكن للمريض أن يهدر وقته في المقهى بهذا الشكل ؟ .

قال هو فمان لنفسه : « عند وصولي الى دريسدن سيكون انزلموس في انتظاري ، فلديه حدس بأني قادم . سآخذه من تحت إبطه كيلا يتعثر ثانية بسلة التفاح فتلاحقه البائعة بلعناتها ، ثم سنبحث معا عن مسؤول أرشيف الكنيسة ليند هورست ، إما في منزله أو في المقهى ، وسيبدا ليندهورست باستجوابي عن رحلتي .

لا شك أن الرجل الذي التقيته صدفة قبل قليل قد كتب الكثير من الاشياء الجميلة ، ولا شك انه سيكتب اشياء أخرى إن لم يكن مرضه بهذه الجدية ، كما يعتقد . ليس ثمة من سيبلغ مستوى غوغول . ومن بيننا نحن الثلاثة لن يتمكن احد من الكتابة مثله : واقع متجذر تتراكض منه الاحلام ، وكل هذا في آن واحد بحيث تتجذر حتى الاحلام في القلوب.

لكن حياته بدات بالانحدار للأسف . وقريبا سيسافر الى القدس ويصلي . وسيتوسل الى امه واصدقائه كي يصلوا من أجله ، فصلاته هو لا تنجح في تحقيق ما يبغيه . وقريبا أيضا سيؤلف كتابا من رسائل غبية ، سيظنها عملا فنيا . ـ وستصله من بلينسكي رســالة غاضبة لانه ينكر موهبته العظيمة وينصح بالصلاة والتوبة بدلا من الحق والعدالة . وقريبا أيضا سيخضع غوغول لضغوط قسيسه ويضع لـ « النفوس الميتة» خاتمة طيبة . لكنه سيدرك أن الجزء الجديد سيء جدا ، وسيحرقه ويكتبه ثانية ، ليحرقه من جديد لانه لن يرضى عنه ، ومن ثم سيغرق في حالة من اليأس ، وسيضرب عن الطعام حتى الموت .

إلا أن رسالة بلينسكي ستنتقل من يد ليــد ، ولسوف ينسخها الالاف. وسيقراها دوستويفسكي علنا في بطرسبورغ في حلقة بتراشفسكي، وسوف يعتقل ويحكم عليه بالموت . وفي اللحظــة الاخيرة ، أمام حبــل المشنقة ، سيصل عفو القيصر : النفي الى سيبيريا بدل عقوبة الاعدام . ورواية « بيت الموتى » التي سيكتبها فيما بعد ستكون صورة عن روسيا في ظل حكم آل رومانوف .

بعد أن غادره غوغول وهوفمان شعر كافكا بوحدة مريعة . لا لأن الغريبين خلال مثل هذه الفترة الوجيزة قد امتلكا قلبه ، فأضحى لا غنى له عنهما ، ولكن لانهما قد تمكنا ولعدة ساعات من تخليصه من شعوره القاسي بالوحدة . عند الوداع عانقاه وتمنيا له الحظ والتوفيق .

ابتسم كافكا لنفسه ، فهو لن يتمكن من تجنب الموت الذي يترصده. لربما كان من حسن حظه أن يموت شابا ، فبذلك سيتجنب النجــاح والفشل ، تهليل من لم يفهموا عمله ورفض من أولوه بشكل خاطىء .

اطال التفكير بأوراقه بامعان . لم يكتب ، بل أخذ يخربش ، ولو قيض له البقاء حيا لتمكن ذات يوم من استثارة مشاعر البشر . وتذكر كل ما لم يقله خلال الحوار الثلاثي . ومع ذلك فقد كان اكثر صراحة معهما مما هو مع اعز اصدقائه واقرب خلانه . وفكر فيما بعد بأنه ما كان ليقول ما هو أكثر أهمية .

عندما كنت اكثر صحة وشبابا كتبت « أمريكا » ؛ والولايات المتحدة الاصلية تماثل امريكا التي اختلقتها . ـ واخذ يضحك الآن من غضبه السابق على دار النشر التي طبعت على الغلاف صورة حقيقية لميناء نيويورك بسفن كثيرة ، كبيرة وصغيرة . ما مدى البهجة والمرح الذي كان يمكن لهذه الرواية أن تحققه ! هذا السيرك الجوال الهائل الذي يسخر من البطالة المتفشية ، فيقدم مكان عمل لكل راغب ! ومن ثم رحلة الجميع عبر البلد اللا متناهي . كان من المحتمل ان تصبح الرواية كتابا محظوظا . «القضية» كانت مسبقا رواية الخوف من الحكم . الخوف الذي جعل غوغول يضرب عن الطعام حتى الموت . لكن « القصر » هو رواية المصالحة ، رواية الحق في البقاء بعد الكثير من التضحية بكل ما هو ضروري . كان علي على الاقل أن اكتبها بهذا المنحى .

في رواية « امريكا » كان هناك ما فهمه الناس ، وهذا ما كان من واجبي التمسك به . ـ هل كان غوغول أم هوفمان الذي قال : كل منا مذنب إن لم يفهم الناس ما نكتب ؟ على كل منا أن يجد ما هو خاص به وحده ، حتى وإن لم يكتب كل شيء ليفهمه الجميـع ـ « اراك تجلس وتحلم » صاح الاب الذي ظهر فجاة بغضب : « الطعام جاهز ، ونحـن ننتظر ، وأنت تهدر الوقت هنا ! » رمى الاب الاوراق بنظرة ملؤهـا

الاحتقار فأسرع كافكا وجمع كل ما امامه ، وفكر : سأذهب معه لتناول الطعام في البيت ثانية . ـ كان يخشى والده ويطيعه .

غادر غوغول القطار مع حقيبة سفره المنتفخة وتوجه الى شرطة الحدود . ورغم تسفاره الكثير كان دوما يشعر بخوف ما عندما يتفقد موظفو الحدود اوراقه ، وكأنما سيكتشف أحدهم خطاياه منها . ختم الموظف البدين اللطيف جوازه واعاده له . ويمزيج من الاعتزاز بوطنــه العظيم الذي يبتدىء من هذه النقطة ، ومن الخوف ، كمن يخطو الى السجن بارادته ، خطا غوغول نحو مكتب البريد . كان المكتب بناء صغيرا حكوميا ، ولهذا كان يرى المرء على لوحته النسر القيصري ذا الرأسين .

حياه مدير المكتب بحفاوة بالغة وقال : « أمام حضرتكم ما يكفي من الوقت لتناول وجبة صغيرة . » وزوجته التي كأنما كانت بانتظاره هــذه اللحظة ، جلبت السماور ، ثم أحضر كلاهما المشروب والخبز واللحـم المقدد والمخلل والسمك البارد والبريوشكي(١) . هز غوغول براسه موافقا . وببالغ الرضى امتدت يده الى الوجبة الروسية ، ثم وبحركة ما كان ليفعلها في براغ رمى لمدير المكتب قطعة نقود ، فرماها هذا لزوجته وشلال من عبارات الشكر يهدر من فمه . ثم أحضرت الزوجة حقيبة السفر وهي تتابع شكرها للمسافر . ساعدا ضيفهما على الصعود الى العربةمتمنيين له كل الخير والتوفيق في رحلته .

بدأت الخيول تخب ، ومع أصوات لهاثها ورنين أجراسها اندفعت باتجاه القرن الماضي .

* * *

---

(١) نوع من الفطائر الروسية المشهورة .

الرّبيبْ

• تأليف: غونتر روكر

• ترجمة: ذهني قوطرش

لا تتوقعوا من حياتي شيئا مثيرا ، فأنا سليل علاقات بورجوازية صغيرة واعمل في احدى دوائر الناحية . لدي زوجة وولد لست انا والده ، وقد يكون من الاسهل ان ابدأ قصتي حول الطريقة التي توصلت فيها الى ولدي . ولكن علي ان احدثكم عن زوجتي وعن « كروسه » وعن ولده وعن زوجته الحبيبة هرتا وعن الاموات الذين تعرفت عليهم في حياتي .

احب الترتيب ، لذلك سأبدأ بوالدي ، اي الرجل الذي كان سببا في مجيئي الى هذه الحياة . لقد كان كما حدثني الناس عنه خفيف الظل في صباه ، ولكنني مع الاسف لم اتعرف عليه لانه ، وقبل ان يتسنى لي أن احبه كما يحب الولد اباه ، ضاع مني . لا اعرف شيئا عنه سوى انه كان أول مشوه حرب سنة ١٩١٤ وانه كان رجلا محبوبا في مدينتنا

الصغيرة ، وعندما كان يتوكا على عكازيه بساقه المبتورة ، غالبا ما كان السادة الضباط يبادرونه بالتحية . وهكذا كان يحظى مشوه الحرب بالاحترام في عام ١٩١٤ . لقد اعتاد آخر رجل شارك في حرب ١٨٧٠ – ١٨٧١ أن يتحدث معه ، كما كان العمدة يقدم له الهدايا ورسائل التحية. وكان خيرة الرجال في المدينة يدعونه ليلعب الورق معهم ، وكانوا هم يدفعون الحساب ويسألونه عن رايه بالانتصارات والخسائر ، وغالبا ما كان الجالسون وراء الطاولة يعيدون على الخريطة عملية الهجوم التي فقد فيها نصف ساقه وكسب فيها هذه الشهرة الكبيرة .

عملت امي في هذا الوقت في محل لكي الملابس يملكه ابواها ، وكانت ترى عندما تقف وراء الطاولة ، عبر زجاج النافذة الكبيرة ، اول مشوه حرب في المدينة وهو يذهب للنزهة ويعود منها . فكان قلبها يخفق بشدة عند رؤيته ، ولكنها لم تجرؤ مرة واحدة ان تكلمه ، في احد الايام ، وعندما ازدانت المدينة بالاعلام والورود لأن بلدة فلندورف قد احتلت ، وكان والدي يمر متوكأ على عكازيه امام محل كي الملابس ، سارت أمي خلفه وقدمت له بلطف باقة صغيرة من الزهور . وفي مساء اليوم نفسه التقيا ، وبعد ستة اسابيع عاشت المدينة مناسبة عقد قران اول مشوه حرب فيها .

كان الوقت قد حان في شهر تشرين الثاني للاحتفال بعودة الجنود منتصرين من عملية تأديب العدو ، ولكن الاحتفال بهذه المناسبة تأجل ، لذا اعدت المدينة احتفالا بزواج مشوه الحرب فيها بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ المدينة ، فأجراس الكنيسة قرعت وسارت العربة بطيئة امامها ، ثم نهض والدي مستندا على عكازيه وخرج من العربة دخل مع أمي التي كانت ترتدي ملابس بيضاء الى الكنيسة . كانت مقاعدها واركانها

ممتلئة حتى الصفوف الامامية حيث جلس السيد العمدة والضباط المسؤولون والسادة الذين يلعبون الورق، وجميع رجال الاعمال المعروفين. وعندما بدات الاناشيد تغمر ارجاء الكنيسة وسيطر القداس والانفعال على قلوب الحاضرين ، تذكر حتى كبار الموظفين سنا وقدرا في المدينة انهم لم يحضروا في هذه الكنيسة زواجا مثل هذا الزواج الجميل . وذرف كثيرون منهم الدموع ، وشكروا جميعهم والدي على هذا اليوم .

وفي السنة الثالثة والرابعة للحرب ، عندما بدأ عدد الجرحى في بيوت العناية وفي حدائق المدينة يصبح كبيرا ، كان والدي يجلس وراء الطاولة مع الذين يجلسون هناك فيصبح واحدا منهم ، وقد شكرهم على ذلك .

وفي السنة الاخيرة للحرب وعلى سبيل المثال ، وعندما جاء اليه بعض الجرحى الذين فقدوا بصرهم في القتال وطالبوه بالاشتراك في احدى المظاهرات احتجاجا على الحرب ، طردهم من المنزل وصرخ فيهم :

ـ لقد كنت مشوه حرب عندما كنتم انتم ايها الجهلة تعيشون حياة رغيدة ، لقد كنت مشوه حرب منذ اليوم الاول للحرب . اغربوا عن وجهي ، ودعوني وحدي واخجلوا من انفسكم .

وانتهت الحرب ، ولم يعد محل كي الملابس الذي تملك امي معظمه تقريبا يعطي ارباحا ، فأخذ والدي يحصل على ما يسد رمقه فقط عن طريق املاء بيانات دفع الضريبة للتجار الصغار ، واصبح يزيد المبالغ التي يراهن عليها بالقمار .

وفي تلك الفترة وصلت الى المانيا رقصة السلوفوكس والتانجو ، فذهبت والدتي الى مدرسة الرقص ، وحيث انه لم يكن راغبا ان تذهب

بدونه ، طلب ان تصنع له ساق اصطناعية جديدة محاولا بذلك مجاراة الموضة والشباب . لكن سرعان ما تأكد من انها جدية في اخلاصها له ، فانضم الى رفاقه في لعب الورق وتناول المشروبات الروحية . غالبا ما كان يعود مخمورا الى البيت ، وفي اغلب الاحيان كانت امي تغلق باب غرفة النوم على نفسها ، وفي ذلك الوقت بدأت حياتي .

وفي احد الايام ، وخلال فترة التضخم النقدي ، وعندما كانت زجاجة النبيذ من نوع رودلزهايم تباع بثلاثة مليارات مارك ، سمعت امي وقع خطوات والدي وهو يصعد الدرج منتشيا مخمورا ، وسمعت الضوضاء في الاسفل ، فذهبت الى غرفة النوم واغلقت الباب على نفسها . طرق الباب عليها راجيا ان تفتح له وان تسمع ما سيقوله لها ، وعندها ستعرف ان السعادة قد حلت في البيت . ففتحت امي الباب ، ووقف هو امامها ممتلئا حيوية وشبابا كما كان في احسن ايام حياته ، واخرج من جيوبه نقودا فضية وهو يقول :

ـ « نقود معدنية جيدة ربحتها بشرف في القمار » .

كان يحصل دائما على نقود جديدة ، ثم ارتمى على صدر امي واستيقظ حبها له فقربته اليها وعانقته ، وهكذا شهدت اليوم الذي كانت تباع فيه زجاجة النبيذ من نوع رودلزهايم بثلاثة مليارات . ورغم ذلك كله فقد كنت ثمرة لعلاقة حب . كان والدي يحافظ على وعده عندما كانت النقود كافية . ولكنه لم يلبث ان يعود الى عاداته القديمة ، وغالبا ما كانت امي تقف خلف الباب الموصد . وحين اخذ منها ذات يوم دفتر توفير البريد ، وفي يوم آخر السكاكين والملاعق والشوك الفضية ، لم تغلق في وجهه فقط غرفة النوم وانما باب المنزل ايضا . ثم اخذت على عاتقها

ان تسدد ديونه كي تنقذ سمعتها ، فعملت خياطة ملابس من الاقمشة البيضاء . ثم رجاها الجميع ان تغفر له وان تقبله ثانية ، لكنها كانت ترفض ، وعندما كان يعود كانت ترفض دائما الحديث معه .

وذات يوم جلس في المطعم ورأى امي في المنتزه وهي عائدة تحمل قماشا ، فاندفع خارجا وتبعها كما كانت هي تتبعه ، وصاح طالبا ان تغفر له وان تدعه يعود الى منزلها . لكن أمي لم تنبس ببنت شفة ، بل اسرعت في سيرها فلم يستطع هو بساقه التي شوهت في الحرب ان يلحق بها . قال لها : ـ « دعيني على الاقل اساعدك بحمل الغسيل » ، لكن امي لم تصغ اليه فصاح بأعلى صوته : ـ لا تتمادي الى هذا الحد ، سأشنق نفسي . كان غالبا ما يقول ذلك عندما يسيطر عليه خوف كبير بعد ان يتناول الكحول ، او عندما كان يشعر بالخجل امام الناس أو يعي كم من النقود خسر في القمار ، أو عندما كانت الحيل تضيق به . لذا لم تعد امي تكترث بذلك . في اليوم التالي ، وعندما كانت اجراس الكنيسة تقرع لصلاة الصبح ، صرخ والدي ـ « سأشنق نفسي كي تعرف ذلك » . فقالت أمي : ـ « اياك ان ترتكب معصية » . وارادت ان تتوقف ، لكنها ما لبثت ان فكرت بأنها اذا غيرت موضوع الحديث فان كل شيء سيبدأ من جديد ، لذلك ابتعدت عنه . وفي صباح اليوم الذي تلاه عندما قرعت اجراس الكنيسة للصلاة في الصباح ، استيقظت مذعورة ، وصلت ثم ارتدت ملابسها واسرعت خارجة من المنزل للبحث عن والدي وعندما وصلت الى اسفل المنزل رأته مشنوقا .

نقلتني الى بيت أختها كي تشرف على رعايتي حتى تتحسن ظروفها. ولم ترض ان تعيش في المدينة يوما آخر ، لانها كانت حسب رأيهم

المسؤولة عن وفاة أول مشوه حرب فيها . وفي احدى المرات كتبت الى اختها انها ستحضر كي تأخذني ، ولكن بعد ذلك جاء شرطي وقال بأن أمي فقدت حق تربيتي لانها هي نفسها ضائعة . وانقطعت اخبارهـا بعد ذلـك .

وعندما بلغت السابعة من العمر جاء رجل الى البيت يمتهن ، تجارة رابحة ، بفواكه المناطق الحارة . فشعرت حالا انه عدو لي . لقد كنت اتجنبه واراقبه ، واسترقت السمع وانا اقف مرة أمام باب غرفتـه فسمعته يقول : ان من اعز امانيه ان يتزوج خالتي ، ولكنه ليس بحاجة اليّ . ومنذ تلك اللحظة بدأت خالتي تبكي في النهار احيانا ، ولكنها تبدو مرحة في الليل عندما يعود للمنزل . كانت تحبني وكأنني ولدها ، ولكن الوقت كان وقت الازمة في المانيا ، والرجل كان بالنسبة لها صفقة رابحة فهو في الثلاثين ، لذلك لم يجد البكاء شيئا .

كانت عائلتي كاثوليكية . ويوم تناولي للقربان الاول ارتديت بذلة زرقاء وحملت شمعة كبيرة مذهبة ، وتناولت القربان في الكنيسة وصورت في المكان ذاته الذي صور فيه والدي يوم زفافه . ثم صعدنا جميعا ، الرجل وخالتي وانا الى السيارة ، وبعد دقائق نزلت أمام دار الايتام . بقي الرجل واقفا في الزاوية ، اشعل لفافة تبغ وانهت خالتي اجراءات القبول ثم قبلتني ، وارادت ان تودعني لكني لحقت بها وتعلقت بها وصرخت باكيا ، ثم تمسكت بها بقوة :

ـ « لا تتركيني هنا أرجوك ، لا تتركيني هنا » .

ولكن رغم بكائي ورغم ان وقع ذلك عليها كان صعبا فقد، كان عليها ان تغلق قلبها وتتركني عند الراهبات ، كان عمري آنذاك سبع سنوات .

بعد عشر سنوات اخرجني كروسه العجوز ـ الذي سبق لي ان ذكرت اسمه في بداية قصة حياتي ـ من دار الايتام ، حيث كان علينا نحن النزلاء الاكبر سنا في بداية الاربعينات ان نخلي غرفنا ، لأن المصحات في المدينة كانت مكتظة بمشوهي الحرب العائدين من الشرق . كانت لدى كروسه غرفة فارغة فسكنت حوالي السنة لديه ، كان والدي الحقيقي قد جاء مع زوجته الى مدينتنا في نفس السنة التي أدخلت فيها الى دار الايتام . وكانت زوجته تعاني من مرض صدري وفي حاجة الى غابات وجبال والمنطقة التي اعيش فيها جميلة ، فعبر الغابة الى جهة الشمال يرى المرء البيوت العالية في المدينة الجديدة ومن جهة الجنوب يرى سلسلة جبال بوهيميا ، الغابة مليئة بالينابيع . يبدأ الخريف متلألأ فوق الاشجار وفوق حقول الشوفان الاخضر المكسوة بالثلج . والنشاط بادٍ في كل شيء ، والدروب تفوح برائحة الصمغ والعشب والحبوب ذات الطعم الحلو . وفوق الصخور تهب الريح ، والوديان تمتد دافئة بين الجبال . وكان على زوجة كروسه ان تشفى هنا ، لقد ترك كروسه ولده باول في برلين حيث بدأ دراسـته .

لم يكن باول كروسه أبدا ابن كروسه ، لقد قبله كروسه ولدا بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما عاد كروسه الى منزل والديه في برلين وعلم ان اخاه قد اعدم بالرصاص خلال معارك تشرين الثاني . وعاشت زوجة الشهيد لدى أبوي كروسه ، وعندما جلسوا وراء الطاولة جلست الزوجة الى جانبه وهكذا استمر الوضع .

جلس كارل كروسه بجانب هرتا ، قطع الخبز واقتسم حصته معها لأن جسدها كان ضعيفا بسبب ذلك الطفل ، وبدأت الرئة تشكل باعثا

للقلق . راقب هرتا وهي تعمل في المطبخ ، وتتعامل مع الطفل ، وفي احد الايام ، وعندما جلسا لوحدهما وراء الطاولة رأى كلاهما كيف وقف الطفل منتصبا في سريره لاول مرة ، وكيف تمسك بقوة ليسقط ثانية ويعاود الوقوف معتمدا على قواه الخاصة . لقد كان تأثير هذا على كارل كبيرا لأنه لم يسبق له ان رأى ذلك ، فقال لهرتا : ـ « لقد بدأ طفلك الان بالوقوف على قدميه خلف قضبان سريره ، يجب ان تتم تربيته بشكل يجعل اخي ، اي زوجك المتوفي ، لا يخجل ان يكون اباه . يجب ان يصبح مثل والده ، وعلينا ان نشترك بتربية الصبي معا كرجل وامرأة ، لم تنبس هرتا ببنت شفه ، لكنها ما لبثت ان قالت : نعم . وهكذا وصل كروسه الى ولده وهو في التاسعة والثلاثين من العمر . وقد سر به كثيرا ، لكنه تعذب به كثيرا .

انفصل كارل كروسه عن ولده عندما كان باول في الخامسة عشر من العمر ، وبعد ان احتفل بدخوله مرحلة ما بعد الطفولة ، حيث تلقى بهذه المناسبة محفظة نقود على شكل حدوة حصان وسكينا ذات غطاء جلدي وكتابا بعنوان « المرأة والاشتراكية » وشالا من الصوف .. وقد جرى الاحتفال في مؤسسة فيلشتاين في ادلرز هوف جنوب شرق برلين . كان الخطيب كبير السن كبر البيان الشيوعي ، وفي الخارج كانت مجموعة من اشبال هتلر تنشد : ايها الزملاء اننا نرمي رماحنا في بحار غريبة ثم نسبح خلفها ونبحث عنها .

وقد تحدث الخطيب في القاعة عن حق العمل والتعلم وعن انســان المستقبل المثقف ثقافات متنوعة ، وان المانيا ستكون يوما ما متحررة من الحقد العرقي ، مرتبطة بروابط الصداقة مع الشعوب التي الوان جلدها

سوداء او صفراء . بعد الظهر ذهب كارل وهرتا وباول الى الهازن هايده لتناول القهوة وقطع الكعك ، حيث كانت تعزف هناك فرقة موسيقية ، ورقص كارل وهرتا رقصة سلوفوكس . وقد رأى باول ابويه لاول مرة يرقصان وكان هذا اليوم بالنسبة له تجربة كبيرة . في المساء عندما جلسا ثانية وراء طاولة العشاء قال كارل كروسه : ــ اسمع يا ولدي ، انك تلميذ وتعرف ان أمك تعاني من مرض في الرئة وأن عليها ان تذهب الى منطقة فيها غابات . لذلك ستنتقل الى منطقتها القديمة في لاوزيتس . أما أنت فستتابع تعليمك حتى النهاية هنا في برلين وستعيش لدى الرفاق ، حيث السرور ، كما فعلت حتى الان ، لأن امك بحاجة الى السرور . وبعد اسبوع ودعوا باول في المنزل الفارغ ، ذهبت هرتا مع الصبي الى الغرفة واخرجت من حقيبة السفر قرنفلة مصنوعة من الورق الاحمر وقالت : ــ يا ولدي باول هذه القرنفلة ، اعطاني اياها أبوك في اول ايار من عام ١٩١٦ وقد حملتها اليوم خلال أول مظاهرة ضد الحرب، وسوف اتركها لك لأنك في الاول من ايار سنة ١٩١٦ بدات حياتك ، حيث لم يعرف أحد عن هذا الموضوع شيئا في ذلك اليوم ، حافظ عليها بشرف .

قبلت طفلها ثم اغلقت باب المنزل وغادرت مع كارل المدينة الكبيرة برلين .

هكذا جاء كارل وهرتا الى بلدتي في العام نفسه الذي ارسلتني فيه امي الى دار الايتام ، ولكن هرتا لم تبرأ من مرضها ، لأنها لا تحتاج فقط الى غابات وجبال وانما الى هدوء ايضا . وجاء عام ١٩٣٣ وأخذ كارل وهرتا يبحثان عن طريق عبر الحدود من اجل عدم قطع الاتصالات ومن اجل انقاذ الارواح . وطيلة عام كانت هرتا تقود الفارين الى الحدود . الى القطارات والى محطات الباصات ، فقد كانت تعرف الطرق ، وتسير

دون خوف على رغم ما فيها من مخاطر هذه الطرق . ولكن وفي احدى المرات وعندما عاد كروسه من عمله لم تكن هي قد عادت بعد من الحدود . وحلّ المساء ، فانتظر فترة ثم ارتدى ملابسه وخرج من البيت وقبيل حلول الغسق التقى امام الباب بامراة غريبة تقرع الباب ، فسألها من تكون . فأخبرته ان احدهم لاحقها هي وهرتا ، وانهما اضطرا ان يقضيا الليل في احد المخابيء ، وان هرتا الان في حالة صحية خطرة ، وانها تجد صعوبة كبيرة في التنفس وهي مستلقية الان امام نبع رودولف ورئتها تنزف . فتوجه كارل كروسه الى النبع وخلال سيره كان ينادي في الغابة كي تعلم انه قادم ، وعندما وصل في النهاية الى النبع رآها مستلقية وهي تحاول ان تنهض بعناء وجهد كبيرين ، حيث انها سمعته يناديها .

رفعها وقال لها : ـ سيكون كل شيء على ما يرام يا هرتا .

ولكن وقبل ان يخرج من الغابة ، كانت هي قد فارقت الحياة . لقد عرفت نبع رود ولف في غابة هوخفالد جيدا ، فقد كنا نلعب هناك عندما كنت في عداد اشبال هتلر ، اضع على ذراعي شارة ، وحول رقبتي فولارا مع جوزة من الجلد وارتدي جوارب سوداء . لقد ربتنا دار الايتام كي نصبح جنودا مخلصين وشبانا المان صداميين .

وعندما بلغت الرابعة عشر من العمر عملت في ورشة اثاث لصنع غرف النوم ، ومنذ عام ١٩٣٧ أصبحت الورشة تصنع صناديق للذخيرة . وقد تابعت اقامتي في دار الايتام حيث كان الطعام كافيا . وكان الغذاء الروحي في البدء الصلاة ثم اصبح درسا في العنصرية السياسية ، وفي هذه الفترة بدات معرفتي بكروسه . كنت احب الغناء ، وقد غنينا عددا من الاغنيات التي كانت تعجبني ، وبخاصة الاغنية التي كانت تنتهي

بعبارة « لا احد يائس وجبان يسألنا عن الطريق التي يرسمها لنا العازف الطفل » . وفي احدى المرات كنت اردد هذه الاغنية في الورشة وكان كروسه يقف بجانبي وكأنه يتذكر شيئا ما وقال : ــ واذا سالك أحدهم في احدى المرات ؟ .

لم اكن أصغي تماما ، بيد أنني لم انس ذلك ، وقد حدث ذلك في السنة الاولى للحرب العالمية الثانية . كان مثلي الاعلى في ذلك الوقت قائد وحدتي أوسي وهو أول مشوه حرب من شبيبة المدينة الصغيرة . وعندما كان يتنزه في الشوارع بكمه الفارغ كان كل شخص يلقي عليه التحية باحترام . وعندما كان الامر يتعلق بالاخبار الخاصة كان يسأل عن رأيه ، وكان يلقي في المدرسة الصناعية محاضرات قومية سياسية ؛ وحول نيران المعسكر كان غالبا ما يقص علينا حكاية الهجوم الذي فقد فيه ذراعه اليمنى والذي جلب له شهرة كبيرة . وبعد فترة قصيرة حدث ذلك مع كروسه . أخذني اليه كولده ، وحدث ذلك عندما فقد ولده .

أعود الان سنوات الى الوراء ، ففي السنوات التي تلت وفاة هرتا لم يعد كروسه غالبا يرى الابن . وخلال تشييع جنازة هرتا جاء باول وجلس الاب والابن مرتديين بدلات يوم الاحد الداكنة ، أحدهما قبالة الآخر . سأل كروسه : ــ الم تزل القرنفلة الحمراء لديك ؟

ــ نعم يا أبي .

ــ ماذا يفعل جماعتنا في برلين ؟ .

كان كروسه يأمل أن يقولوا له بأن عليه ان يعود ، لكنهم قالوا له ، اذا كان قد عثر على طرق جديدة غير خطرة عبر الحدود فعليه ان يعلمهم بذلك ، فقال كروسه :

ــ حسنا .

لكن وقع ذلك كان صعبا عليـــه ، إذ كان عليه ان يحتفظ بابنـــه لنفســه . ثم تحدثنا بعد ذلك عن الذكريات فقط وفي المساء رافق كروسه ابنه الى القطار . وانا اتحدث عن ذلك بالتفصيل لأن ذلك سيكون فراقا لفترة طويلة ، لمدة اربع سنوات كان كارل كروسه خلالها يقود المعرضين للخطر عبر الحدود ويحضر مراسلي الجيش من الحدود .

كان موثوقا مثل هرتا ، ولكن بعد اربع سنوات من اقتحام هتلر بجيوشه لحدود بوهيميا لم يعد الفارون . وبدأ الشعور بالوحدة يسيطر على كروسه . وفي بداية الحرب استدعي ابنه للجندية لكنه ما لبث ان سرح ، لأنه يعمل على آلة خراطة . وحين تم غزو الاتحـاد السوفيتي استدعي بأول للخدمة العسكريـة ، وحســب قرار القيادة فقد عمل في السر ، ولم يعرف كروسه عنه شيئا ، ولم يتصل به احد . وجاء عام ١٩٤٢ ، الصعب الذي عبرت فيه الجيوش الالمانية نهر الرون واحتلت شبه جزيرة القرم ثم تقدمت الى القفقاس حيث وصل جيشها السادس الى الفولجا . وفي صباح احد الايام ، وعندما ذهب كروسه الى العمل تقدم اليه شخص غريب وقال له :

ـ لقد اعتقل ولدك . وبعد ثلاثة أشهر سمع كروسه نفس الصوت يقول له :

ـ تعال الى برلين لترى ولدك . وكان المقصود بذلك : تعال لتودع ولـدك .

ثمة ، بالقرب من مركز الاعتقال ، جسر يمتد فوق ساقية ، اجتازه كروسه في وقت متفق عليه . لبث لحظة ثم أخرج محرمة بيضاء من سترته وكأن شيا ما قد سقط في عينيه ، ثم نظر الى مركز الاعتقال فرأى

خلف احدى النوافذ الكثيرة والصغيرة شيئا ابيض يهتز . واهتز هـذا الشيء الابيض خلف النافذة مرة ثانية ، ثم كان على كروسه ان يتابع سيره وان يعود ثانية مرتديا بذلة المساء . فقال الغريب له انه لن ينسى ، وسيتم اعلامه بكل شيء مهم . مرة ثانية وبعد شهرين طلب الغريب منه في المعمل علبة ثقاب ، لكنه اعاد اليه علبة ثقاب اخرى . وعندما فتحها كروسه وجد فيها رسالة مطوية عدة مرات ومكتوب فيها : « والدي الحبيب كن قويا : انني اموت كما عشت » . وفي اليوم ذاته جاء كروسه الى المعمل وعمل كعادته مرة واحدة فقط . وضع العدة جانبا وخلع قبعته ثم نظر طويلا عبر النافذة الى الجهة التي تقع فيها برلين ، وتذكر ولده الذي سقط في الحرب مثل هرتا والبحار الاحمر .

قال لنفسه ، يا ولدي الحبيب يا ولدي الوحيد ، اعدك ان ابقى قويا وان احيا مهما تكن الحياة صعبة . ثم تذكر لفترة البحار الذي هو الاب الحقيقي للشاب وتذكر السنوات التي قضاها مع هرتا .

خاف ان يصرعه الالم وتخور قواه فلا يقوى على التغلب عليه ، فقال في نفسه « علي ان افعل شيئا كي استطيع ان اتحمل الحياة ، فحين قمت بتربية هذا الطفل فعلت ذلك عوضا عن اخي الذي توفي ، ووقف الولد مكان والده ، ولكن المكان اصبح الآن فارغا . وفي حياتي لن يستطيع احد يملأه ، لكن خلال النضال مـن أجل القضية يجب ان لايبقى مكانه فارغا ، وسوف اجد مناضلا جديدا وأقوم بتربيته مثل تربيتي لولدي . سوف اعمل هـذا . » .

ثم لبس قبعته ونظر الينا نحن الصبيان طويلا وقال في سـره : « سأسرق واحدا منكم ، من العدو واجعله واحد منا . » ربما نظرت في

هذه اللحظة الى كروسه وربما نظر هو الي ايضا ، لانه عرف انني الوحيد الذي عاش يتيما وبحاجة الى بيت بعد ان احضرتني خالتي الى دار الايتام . وقف العجوز كروسه في نفس المكان الذي وقف فيه تاجر فواكه المناطق الحارة آنذاك ، واشعل لفافة تبغ واخذني معه الى البيت ، وسكنت في غرفة لدى العجوز كروسه ورأيته كيف تعذب وكيف تغلب على عذابه ، ورأيته كيف ناضل من اجلي ، وكيف ان نضاله من اجلي قد منحه القوة ضد العذاب . كان ممتلئا طيبة متيقظة وناقدة ونشيطة . ولاول مرة كان انسان يصغي الي عندما اتحدث عن حياتي . كان كروسه اول شخص اوحى الي أن افكر بحياة والدي الفاسدة التي لا معنى لها . وفهمت ايضا والدي . حدثني ايضا عن امي وكأنه يعرفها ، وانا ايضا تعرفت عليها من جديد واحببتها عن طريق كلماته . واحيانا كنت ابكي في المساء ، لا لانني رأيت لأول مرة كيف يسير الناس في طريقهم الصعبة والمرة، وكيف ليس ثمة امل في انقاذهم من هذه البلبلة . ثم اخذ يحدثني بحذر عن نفسه دون ان يذكر كلمة زائدة . ربما لم اكن اعرف عن حياته الكثير، ولكن وفي احد الايام في اواخر سنة ١٩٤٢ عندما عدنا من العمل احضر الجار له علبة كرتون كانت قد احضرت لكروسه . نظر كروسه الى العلبة طويلا ، ثم غسل يديه ومشط شعره وقال ان عليه ان يذهب الى غرفته لأنه تعب . وبعد فترة ظننت انه سيناديني لكنه لم يفعل ، وامامه كانت علبة الكرتون المفتوحة وكتاب وقرنفلة حمراء وشال وسكين جيب في غطاء من الجلد ومحفظة نقود على شكل حدوة حصان .

وبدأ الكبر منذ ذلك اليوم ، يظهر على كروسه ، واصبح ينادي في الليل احيانا طالبا كأسا من الماء واصبح نومي خفيفا وركزت اهتمامي عليه وكنت اصغي له . فلاحظ قلقي واخذ يلوم نفسه لأنه يسبب لي الخوف.

لقد وجدت انسانا يهتم بي واستطيع ان اهتم به . ولأول مرة في حياتي شعرت بالحب ، ولولم اعد من الحرب سليما . كنت اعرف ان كروسه سيحزن من اجلي . وفي ذلك الوقت بدات ادرك انني أحيا . فقد عرفت لأول مرة ماهو الشيء الذي يجعل الحياة حياة ، وعندئذ غامرت بحياتي ففي اليوم الذي وصل فيه استدعائي للجيش الى البيت ، جاء الى كروسه شخص لم اكن أعرفه ، ولكن كروسه كان يعرفه ، فقد نجا في اللحظة الاخيرة من الاعتقال وذهب الى الانصار في يوغسلافيا . وكانت زوجته تعيش سرا في برلين وكانت على وشك الولادة ، وقد رجا كروسه ان يسلمها عنوان مكان رتبا فيه كل شيء للولادة ، ولكن لم يكن بمقدور كروسه ان يتحمل مشاق السفر لأنه كان طريح الفراش ومريضا جدا ويده اليمنى ترتجف ليلا نهارا . فسافرت عوضا عنه الى برلين . لقد كنت خائفا جدا ، بين أنني قمت بذلك من اجل كروسه . لم تكن المراة تكبرني في السن ، ونفذت كل ماقاله الرجل لي ، وقلت لها أنني قادم من وكالة الشحن من أجل عملية النقل ، سألت ان كانت اوراق الشحن جاهزة . قالت : نعم . لكن عليها احضار الشوفان للخيول . وعندها سمحت لي بالدخول وقدمت لي الطعام . كانت سيدة لطيفة ، وعندما يرى المرء الجسد الحامل الثقيل يشعر بالخوف . فذكرت لها العنوان وودعتها . مدت يدها نحوي ومررت يدها اليسرى فوق شعري . لقد أحزنني وضعها الى حد انني أخذت ارتجف ، وعند الباب طبعت قبلةعلى وجنتي وقالت :

ــ شكرا ايها الرفيق . ثم تابعت قائلة : ــ تجول في برلين وغير واسطة النقل عدة مرات فان ذلك لايضر . ولولم افعل ذلك لكنت سافرت فورا لأنني لم اكن اعرف كافة انحاء هذه المدينة الكبيرة . لقد تأخرتعن

فطاري ووصلت الى كروسه متاخرا في الصباح الباكر . وكان القلق قد سيطر عليه عندما لم اصل حسب الموعد المحدد ولام نفسه لأنه وضع شابا لاتجارب له وامراة صبية في خطر . وفي الصباح توصل كروسه الى قناعة بأننا قد اعتقلنا واخذ يفكر بالشخص الدي سيتولى هو حمايته وبالشيء الذي عليه ان يخفيه ، فقام بفحص كل شيء وقال في نفسه : ان الاعتقال ايضا مفيد ، فاذا القوا القبض علي يجب ان يتم ذلك في المعمل امام الجميع لكي يلفت ذلك الانتباه . ارتدى ملابسه وذهب الى المعمل ، وعندما وصل الى القنديل المعلق امام مدخل البناء كنت قد اجتزت الشارع قادما من المحطة فرايته واسرعت الخطى . فلمحني ورفع ذراعه ثم سقط على الارض . حملته الى البيت وبعد ساعات قليلة اغلقت له جفنيه . اخذت ثلاثة ايام اجازة من القيادة العسكرية المحلية ، بسبب موت كروسه .

وفي اليوم الاول حزمت ما تبقى من الأمتعة ووضعتها في القبو العائد للجار ، وفي اليوم الثاني رتبت اموري ، وفي اليوم الثالث دفنت العجوز كروسه . وعلقت له الوردة الحمراء كما كان سيحملها في الاول من ايار واقسمت أمامه أنني لن أطلق النار ابدا على رفاقه ، وقد نفذت قسمي هذا عندما استلمت في اوكرانيا للمرة الاولى ذخيرة حية ، وسجلت اسمي في فرقة الاستطلاع ولم أعد .

كان لدي في المعسكر وقت كبير للتفكير فانتسبت الى مدرسة المعسكر ، ثم عملت هناك معلما ، وعدت بعد اربع سنوات من انتهاء الحرب فأخرجت علبة الكرتون من القبو وسافرت الى برلين . وكنت غالبا ما اتذكر آخر كلمة قالتها المراة : ـ شكرا أيها الرفيق .

آه ! لقد ذهبت الآن الى حيث استطيع ان اجد رفاقا ، وهكذا عدت عندما اصبحت في الثالثة والعشرين من العمر ، الى ذلك البيت حيث فتحت المرأة الباب وحيتني . وعندها علمت ان زوجها قد سقط شهيدا، وانها تعيش الآن هنا مع الطفل . قادتني الى الغرفة ، ونظرت طويلا الى هذا الانسان الصغير النائم ، ثم نزعت معطفي وخلعت جزمتي وقطعت الخبز واقتسمته معها لأنها كانت لطيفة وضعيفة . لقد ربينا الطفل بطريقة لايخجل فيها اباه منه لو بقي على قيد الحياة .

لقد وصلت الى نهاية قصتي ، هاقد انقضى نصف عمري ، وربما سيستمد الآخرون من ذلك قوة من أجل التغلب على الماضي . فأنا اكتسبت قوة من تعلم الوقوف في صف واحد ، ولكن هناك أمكنة كثيرة في هذا الصف امامي وبجانبي فارغة كان يقف فيها رفاقي الذين ماتوا خلال حياتي . كانت الصعوبة في البداية انه توجب علينا بقوانا غير المجربة ان نستلم عملهم . وغالبا ماكنت اعتقد أن قواي لم تكن تكفي لذلك ، ولكن خلال ذلك نمت القوى . وأنا أعرف ان مافعلناه قد انجزناه انجازا جيدا .

* * *

المسمار الثّالث

بقلم هرمان كانت

ترجمة: أكرم محمد

لم تكن الشقة سيئة ، وافضل مافيها كان الخباز . لم أنتقل من اجله ، ولكن من اجله لن انتقل الى مكان آخر ، فهو يخبز (سمونا) بشكل لايتوقع أحد انه مازال ممكنا ، كما لو أن نوعا مندثرا قد خلف جزءا منه ليري العالم ماافتقده .

يصدف المرء أحيانا بندورة يكون طعمها كالبندورة ، وأحيانا يشم رائحة خيار ، كما الخيار مز وحلو . وأحيانا تبدو (الفراولة)ليس فقط كما لو أنها (فراولة) ، كل ذلك حظ طيب ، لكن الحظ كلمة تعبر عن الاستثناءات . وربما كان من غير اللائق أن اتحدث عن خباز يخبز(سمونا) مقمراً ، (سمونا) يدفيء الجيب حين يحمله الانسان الى البيت ،(سمونا) يعبق شذاه في انوفنا ويسمع صوته حين نقطعه بالسكين ، كي نفصل ظهره المشقق ذا اللون الذهبي عن قاعدته ذات اللون البني الخفيف .

ربما كان هذا الحديث غير لائق ، وربما كان لدي أسباب تدفعني لهـذا الحديث ، على الانسان أن يتفحصها بكل هدوء ، هذا الخباز لم يكن لي وحدي طبعا ، وحين رأيت الدور امام نافذته لأول مرة ، ظننت أني لن اكون جزءا منه ، أبدا . فقلت لنفسي لايوجد خبز جيد لهذه الدرجة ، ولكني حين تذكرت معجنات التعاونية كنت أقول ذلك بشكل أقل حدة، الى ان وقفت أحد الايام في الطابور . فتح الخباز دكانه في السابعة ،وهذا خبر يجب التأكيد على صحته ، قبل ذلك بنصف ساعة وقفت لديـه ، السيدة التي تقف أمامي لاحظت فورا كم انا جديد علـى هـذا الامر . ونظرا لأني أجبت على أسئلتها المطولة بشكل مقتضب ، فقد علمتني تقنية الحصول على (السمون) لدى الخباز شفينت ، تكلمت أثناء ذلك بصوت عال كعادة ثقيلي السمع ، سألت : هل انت حديث العهد هنا ، وأجابـت بنفسها : انت حديث العهد هنا اذا ! وتابعت : السادسة والنصف وقت مناسب تماما ، لاينتظر المرء طويلا ولا يأتي متأخرا ، هل انت المستـأجر الجديد لدى عائلة شلوسر ؟ لايبدو عليك انك عازب ، هل انت مطلق ؟ آه ، مطلق ، عندما تأتي في السادسة والنصف فستحصل بالتأكيد علـى (السمون) المدوّر ، من يستيقظ متأخرا فعليه الاكتفاء بـ (السمون) الطويل . أكان لديكم خباز كهذا ؟ لم يكن لديكم ، لو كان الامر كذلك لما انتقلت من هناك ! أرني الشبكة التي تحملها ! نعم إنها جيدة ، إياك وان تحضر شبكة قاسية ، حينئذ يتوجب على السيدة شفينـت أن تضـع (السمونات) فيها بصعوبة ، وهي تشمئز أيضا من الشبكة البلاستيكية، كيس من قماش الكتان هو الأفضل . وأحذرك ، فالخباز قد أمضى فترة طويلة في السجن بسبب جريمة قتل ، فهو غيور جدا على زوجته .

بإمكانه أن يكون كذلك ، فكل ماأريده هو (السمون) ، لكني شعرت بقليل من الرضا ، بما أن هذه السيدة لاتعرفني فقد وجهت هذا التحذير إلي فقط بسبب مظهري . ولكني سرعان ماادركت أن الخباز غيور بغض النظر عن مظهر الشخص ، فوجود أي رجل قرب زوجته كان كافيا لاثارة ريبته ، ولم يحاول أن يخفي ذلك . ولكن لم يكن لهذا التصرف من مبرر ، فزوجة الخباز كانت منهمكة في بيع الخبز ، وكما كان زوجها فنانا في عمله ، كانت هي ايضا فنانة في عملها . كانت تعرف من يأخذ (سمونا) مدورا متوسط النضج ، ومن يأخذ (سمونا) مقمرا ، تقسم السمون بشكل متساو تماما ، تنادي أغلب الاطفال بأسمائهم تشكر وتحيي وترفق الاطفال والمسنين بكلمة حلوة ، ومن كان مريضا يخبرها بأنه تحسن عما قبل . وكأن الزبائن يساعدونها في كل ذلك ، ويوافقون بين حركتهم وحركتها ، الكبار يساعدون الصغار ، والسيدات الشابات ينتبهن كي لايعيق المسنون هذه الحركة ، وذوو الخبرة يعلمون الجدد ، كالسيدة لوركِه التي قالت لي : عندما تريد شراء (السمون) فعليك أن تكون زبونا للحلوى أيضا . فالخباز لايربح كثيرا من صناعة (السمون) والحلوى لديه ليست مستساغة ، ولكنك اذا لم تشتر فسترى النتائج قريبا ، ستحصل عندئذ على قطع (السمون) غير الناضجة ، وعندما تأتي متأخرا ستكتفي بالسمون الطويل ، أما اذا كنت من زبائن الحلوى فستحصل على رغبتك من (السمون) المدور . بإمكانك ان تقول اسمك عندما يكون الخباز أمام النافذة ، ومن الافضل أن تقوله للخباز كي لايظن بك سوءا ، فذلك ليس في صالح أحد . وبالمناسبة ، ماأسمك ؟ قلت لها : اسمي فارسمان ، وفكرت في سري : كل هذه المشقة من أجل متعة الفطور ، يبدو أن الأمر

خطير احيانا،الحياة نظام معقد ، ليس بشكل عام! فقط وانما في كل أجزائه. بت أستمتع بأفكار كهذا خصوصا بعد ان اصبحت وحيدا ، وزاد فضولي للتعرف على الناس ، وهذا مايثير دهشتي ، ذلك اني بعد الطلاق لم أعد ارغب بالتعرف على الآخرين . والآن أراقب دائرة زبائن شفينت بحركتها المتوازنة كيف تمر أمام زوجة الخباز وأسر لرؤية العلاقة بينها وبين الزبائن، هذه المتعة كانت ذات طبيعة تقنية خالصة ، وحين دخل المعلم في غيمة دافئة من عبير الخبز ليجلب ماخبزه . كنت أفضل التطلع الى الحلويات! وإلا فلماذا حذرتني السيدة لوركة ؟ القى الخباز التحية ، ورد الاثنا عشر زبونا بلهجة أوضحت ان ملكا قد ظهر على شعبه . وضع الملك (السمون) على الرف دون النظر إليه ، وتفحصنا باهتمام لايجوز أن يثير الدهشة، فهو في آخر الامر يخبز تحفة النادرة من أجلنا ، لذا كان عليه أن يهتم اذا كان زبائنه من الذواقة او من المتطفلين . وهو يستيقظ بسببنا في عتم الليل ، فحق له أن يمعن النظر فينا ، وهو الذي يدخل البهجة الى حياتنا فمن حقه اذا تلك النظرات . لكنه تصرف ، تصرفا غريبا ، خلال النظر ، فهو لم يتجاهل أحدا ، ولكن عينيه أنتقلتا بسرعة من احد الزبائن واستقرتا طويلا على زبون آخر . هو واحد من الاربعة الواقفين ، وقد استغرق النظر إليه وقتا أكثر منه للنساء الثماني ، دون حساب زوجته، ومن نظراته حصلت على نصيب الأسد . هذا الكلام ليس لصالحي وليس نوعا من الغرور ، فقد كنت حديث العهد أولا وكان عمر الزبائن الآخرين هو القضية الاخرى،إذ لاأحد يعلم مالذي جعل رؤوسهم تشيب وظهورهم محدوبة ؟ لابد انه تقدم العمر ولم يكن الخباز ليقلق منهم على زوجته الشابة .

لم يكن أحد بحاجة للقلق بسببي سواء كان خبازا أو لحاما أو خياطا. فالجرح الذي سببه الطلاق لم يتعاف بعد، وكنت راغبا بخبز طازج وليس بسيدات أخريات ، وهذا ماﻻيعرفه الخباز وما لايخصه ايضا . فقد اردت مبادلة النقود بالبضاعة وفي علاقة كهذه تصبح الامور العاطفية مزعجة . بادلته النظرات وقلت في نفسي : لن نرتبط بأكثر من الدفع وماله علاقة بالشهوات فلتبق عند لقمة (السمون) الطازجة ! ربما تخيلت ذلك ولكن بدا لي وكان الحرفي المرتاب قد هدأ روعه ، فأخرج من جيبه كيسين من قماش الكتان ، أبيض ومخطط ، وبدأ باختيار افضل القطع المنتقاة ، ووضع في الكيس المخطط ثماني (سمونات) متساوية في الحجم واللون البني المذهب ، ووضع في الكيس الأبيض عشر قطع مختلفة تماما ،(سمون) مدور فاتح وناضج ، (سمون) طويل ، و (سمونتين) مقعرتين واحدة مقمّرة والاخرى ليست ناضجة تماما . الاختيار والتعبئة كانتا عن خبرة طويلة ، وكان ذلك واضحا ، وعلى مايبدو فقد كانت هذه العملية جزءا من تقاليد الصباح ، إذ لم يبد أحد اهتماما أو دهشة . وأعترف بأني كنت مندهشا ، استحوذ الخباز على كامل انتباهي ، ولاحظت من خلال ذلك اني استحوذت على كامل انتباهه . ويلاحظ المرء من ظهر الرجل اذا كان هذا مهتما بوجوده ، فحين صرت مقابل البائعة رايت كيف يصغي الى كلماتي .

كان عليّ ان أقول : (سمونتان) من فضلك ! فقلت عوضا عن ذلك: ست (سمونات) من فضلك ، اثنتان مقمّرتان ، واثنتان فاتحتا اللون واثنتان عاديتان اذا كان ذلك ممكنا ! لو سئلت عن إيضاح لأجبت :كنت معجبا بالمنصب الذي يشغله الخباز ، وبدا لي من غير المناسب ان انضم

الى حلقة الزبائن بعشرة قروش فقط ، ومن خلال طلب (السمونات) المختلفة اردت أن يعلم الخباز اني ذواقة . لم ابتغ في حال من الاحوال إخفاء وحدتي ، ولكني لاحظت من ظهر شفينت كيف فهم طلبي : متزوج وله طفل ، وأفراد عائلته يعنون شيئا بالنسبة له ، فهو يجلب لهم مايرغبون ، لهم ذوقهم الذي يراعى . الزبون الجديد رب عائلة عطوف ، إذا لاخوف منه ، مبدئيا على الاقل . يمكنك ان تطمئن ياعزيزي ، فكرت في ذلك عندما لاحظت عضلات ظهر الخباز ، فأنا حاليا لست زير نساء. كنت منذ فترة وجيزة لدى القاضي الشرعي ولا أرغب برؤيته مرة اخرى. ايها السيد المحترم شفينت ، لقد تحولت زوجتي أمام عيني من شخصية طبيعية الى شخصية اعتبارية ، وكان ذلك فظيعا بالنسبة لي . هذا مافكرت به وماكنت سأقوله لولا وجود الزبائن الآخرين ، لذا دفعت ثمن الخبز وغادرت الدكان . وفي الطريق وبخت نفسي على هذا التبذير ،ست (سمونات) دفعة واحدة ! لوعدت واردت الاقتصار على اثنتين لاستجوبتني السيدة لوركِه الثقيلة السمع . لكني تعرضت للتحقيق في صباح اليوم التالي ، فجارتي لوركِه أرادت ان تعرف اذا كنت حقا التهم ست (سمونات) مختلفة دفعة واحدة أثناء الفطور . اختلقت لها زميلتي عمل في المكتب،واوهمتها بأني أقف مبكرا في طابور الخباز لأجل الزميلتين، لأن علاقة حميمة تربطني بهما . اعجبت السيدة لوركِه بالحكاية ، ومن ناحيتي فقد زاد إعجابي بالشخصيات المؤنثة التي اختلقتها لتبرير عدد (السمونات) ، فقد كانت الزميلتان على جانب كبير من الجاذبية،ولكنهما تختلفان في المظهر والطباع ، والشيء الوحيد المشترك بينهما : علاقتهما الحميمة بي . كانتا متشابهتين في انهما عازبتان ، وإلا لما سعيت الى قربهما، ماعدا ذلك فقد كانتا متناقضتين تماماً ، ذلك مايظهر من ذوقهما في

(السمون) : فإحداهما كانت تنضج من خلال (السمون) المقمّر ، والاخرى كانت تلين من خلال (السمون) الطري ، ضحكت السيدة لوركِه لهذه الجمل ، لا أحد يعلم ماالذي فهمته ، فقد كانت ثقيلة السمع فعلا ، ظنت اني اعمل في بيع الكتب ، بينما قلت لها إني محاسب ، في إجابة على احد أسئلتها الكثيرة ، لم يبد ذلك مهما ، ولكن الامر كان مهما فعلا،وطالما ان السيدة لوركِه تسأل بخبث عن بائعتي الكتب . فالأمر لم يكن ذلك مهما ، وفي يوم السبت الأول لدى وقوفي في الدور كان ذلك من حسن حظي ، فقد طلبت ثلاثة ازواج من (السمون) وانا شارد الذهن ، وهذا ماصادفت صحته ، ذلك ان بائعي الكتب يعملون يوم السبت ، بعكس المحاسبين . ولكن عندما يكون المرء محاسبا ويعيش من دخل محاسب فان وجود عروسين هيكليتين يثقل الميزانية ، ولم يكن بد عند شراء الحلويات من ان أحسب لخليلتيّ حسابا بالفطائر المحشية بالقشدة او التفاح والجوز .

المعجنات الزائدة التي اشتريتها فقط لأني توقعت الريبة في حركات الخباز سببت لي مآزق ليست مادية فقط ، فأنا لم ارغب في رمي الخبز والحلويات المتبقية في حلق حاوية القمامة ، لذا أحضرت (السمونات) الأسطورية والحلوى غير الاسطورية معي الى المكتب ، وهنا وقعت فيمآزق اخرى : فالجميع اصبح يريد الحصول على سمون عجيب كهذا ، لكني وجدت مخرجا بأن الخباز يبيع لكل زبون عددا محدودا فقط ، وما عدا الآنسة فايجل النهمة لم يعد احد راغبا بالحلوى ، وهنا بدات الشائعات تدور حولنا : الآنسة فايجل وانا .

حسابيا كانت القضية غير مجزية ، الاستيقاظ المبكر خمس مرات اسبوعيا ، ١٠ ــ ١٢ ماركا شهريا تكاليف زائدة لبضاعة غير ضرورية ،

عرفان الآنسة فايجل وتلميحات الزملاء في المكتب ، وضرورة بقاء العلاقة مع زوجة الخباز في حدود الاعجاب بالسمون الناضج ، وإظهار ذلك بالتصرف المناسب أمام الخباز الخطير ، كل ذلك من أجل قطعتي معجنات، فهذا أمر غير مسموح به .

ولكن الحساب لم يكن مهما عندما كنت ألتهم (سمونات) شفينت، ف (السمون) كان يعني الحياة ، وعند ذاك يتوقف العد والحساب . هذه مبالغة ، ولكن هذا ماكنت أشعر به ، وللدقة فقد كنت قادرا على الشعور بهذا الشكل بعد أن ضربت اخماسي بأسداسي ، وتوصلت الى ان قطعة السمون الواحدة تكلف ٧٠ قرشا وذلك دون حساب الاستيقاظ المبكر والهموم الاخرى ، وهذا جنون بالنسبة لأي محاسب ، لذا كنت أشعر بنفسي متهورا جدا عندما ألتهم فطوري غالي الثمن ، هذا الشعور كان يرافقني حتى المكتب ، حتى أن إشاعة سرت في المكتب أن الطلاق قد حسن معنوياتي . صحيح أن الامر كان مختلفا ولكني لم اعارض ،خصوصا بعد أن لاحظت أن لساني أصبح أكثر طلاقة ، ومفاصل اطرافي اكثر مرونة .

ضرب من المبالغة أن أرى الحياة في الخبز ، لكن مالايقبل الجدل هو أن نظرتي للحياة قد تغيرت ايجابيا منذ وقفت للمرة الأولى في الطابور امام دكان شفينت ، وعندما تحدثت للمرة الأولى مع الخباز صباح أحد الايام لم ابد شيئا من الارتباك وإنما على ابعد تقدير شعورا بالامتنان ، ولم افاجأ بأن السيدة لوركه قد زودت الرجل بمختلف اخباري ، فهي التي زودتني ايضا بأخباره حتى قصة السجن . كوننا التقينا لوحدنا فهذا بسبب الانفلونزا التي طرحتني في الفراش . حتى وقت الظهيرة ، الى وقت يعلم

عنه جميع الزبائن أنه لايوجد سمون مدور وحتى طويل ، عندئذ كانت تنصرف السيدة شفينت الى البيت ويقوم السيد شفينت بالأعمال المتبقية.

بادرني بالسؤال :

يبدو أن بيع الكتب اليوم في إجازة ؟

احتجت لبرهة كي أدرك مغزى الجملة ، وحين فهمت المعنى الذي نقلته ادركت ان السيدة لوركِه قد اخبرت شفينت بكل شيء، حتى غلطتها الناشئة عن سمعها الثقيل .

اجبته : فقط بالنسبة لي ، رشح خفيف .

اجاب : هذا مستحيل بالنسبة لي كما ترى .

تحدثنا عن المسؤولية الكبيرة لحرفي مستقل من نواح مختلفة، ولكنه اقر ايضا بأن لمهنته جوانب ممتعة ، فعندما يرى انه يخلق البهجة لكثيرين في بداية يومهم يملؤه شعور بالرضا .

نعم ، قلت ذلك بلهجة فيها شيء من الحسد ، من يثق بنفسه فهو سعيد .

نظر الخباز إليّ يتفحصني ، وكأنه يزن شيئا او فكرة ما ، وبعد كلماته التالية نشأ لدي انطباع بأن محادثتنا قد انتقلت الى طور أعلى ، ذلك أن السيد شفينيت قال : إن بائع الكتب يمتلك امكانية امتاع الناس الآخرين . أردت أن أؤيد هذه الفكرة وقبل ان أتمكن من ذلك تابع السيد شفينت الحديث بجملة غامضة نوعا ما : غير اني أعني بالمساء اكثر من الصباح ، فواحدنا لايتفرغ لذلك إلا في المساء ، ففي الصباح هناك الخبز، انت تفهمني طبعا ! لم أفهم شيئا ، على ان السيد شفينت فسر تعابير

وجهي بأني ادركت مايعنيه في هذه المرحلة من صفقتنا ، هذا مافهمته من كلماته التالية :

لنفترض اني زبونك ، فالحالة هي كالتالي ، أنت تبحث لديّ عن مسرة في الصباح ، وأنا ارجو عندك مسرة في المساء . عندما ارجوك أن تجلب شيئا ممتعا للمساء فستظن السيد شفينت يهذر ! اقف نصف ساعة في الدور ، ومن أجل ذلك فعليّ أن احضر له شيئا مقابل ذلك ؟ اين فائدتي في هذا .

لم اكن قد وصلت في تفكيري الى هذه النقطة ، فقد كنت احاول تفسير ماذا يعني الرجل بمتع المساء ومادور المكتبات في هذا الامر ، وهنا خطر لي أن أوضح للسيد شفينت سوء التفاهم الحاصل بسبب ثقل سمع السيدة لوريكه ، لكن دخول سيدة مسنة قطع هذا الحديث الغامض ، لم أستطع ابداء أي تعليق ، ذلك اني ادركت أن الأوان قد فات .

قال الخباز جملة لاتثير الارتياح : أيتها الزبونة المحترمة ، منذ وقت طويل وأنت تترددين الى الدكان ، ويجب أن تعلمي أنه في وقت متأخر كالآن لايمكن الحصول حتى على فتات الخبز . ثم باعها نصف قطعة من (السمون) الاسمر .

لم يكن الخباز ذاك الانسان الذي يترك حدثا كهذا يمر دون تعقيب . قال : نعم ، هذه هي الحال ، عندما لايملك الانسان شيئا للمقايضة ،عالم قاس ، ولكن كلينا لم يخلقه ، طلبت النصف الآخر من (السمون)الأسمر وأردت الذهاب ، لكنه كان مصمما على عقد الصفقة .

قال : ياسيد فارسمان ، منذ أصبحت زبوني وانا أراقبك ، فتبين لي أنك دقيق الملاحظة ، كنت تراني عندما ملأت الكيسين بالخبز ،ولكنك

لم تر اين وضعتهما ، فانا أعلقهما في الباحة الخلفية الى مسمارين،طبيب اسناني يأخذ كيسا ، والميكانيكي الذي يفحص سيارتي يأخذ الكيس الآخر ، هناك مسمار ثالث ولكنه الأخير ، ولن تصبح اكثر من ثلاثة،ابدا. صمت الخباز بطريقة توحي بالسؤال : اتعني أن المسمار الثالث . . . ، شيء رائع ، ولكن هل لي أن أعرف المقابل . طبعا ، قال الخباز ، ياسيد فارسمان ، فربما أحضرت لي كتابا عن علم الفلك او عن الطبخ البلغاري ، على الرغم من أني قد لمحت الى ذلك ، لمتع المساء ، لابد انك تفهمني ! اعتقد ذلك الآن ولكني قلت : حسب علمي فإن العرض لدينا ليس واسعا ولا متخصصا . رد الخباز : ولكني لا اطلب منك شيئا غير عادي ، كل ماأريده هو أشياء موجودة ، ولكن الانسان لايحصل عليها بسهولة . مثلا لو زودتني بهذا الكتاب الصيني تشنغ بنغ ميك ، فلست بحاجة لأن تشتري الحلوى عندي . ولأني كنت متورطا في صفقة لاحول لي فيها مبدئيا إلا السؤال ، لم تكن لي رغبة للتعجب من النقد الذاتي للخباز لدى التعامل مع معجناته لكن الامل في التخلص من الحلوى ومن عرفان الآنسة فايجل وما يتبعه من الهمس في المكتب ، وقبل كل شيء المشاكل الماليةغير المعقولة ، جعلني أوافق على ماطرحه السيد شفينت . وعندما ادركت أن المكسب الرئيسي يتجلى في قطعتي (سموں) دافئتين ونوم لمدة نصف ساعة أخرى يوميا قلت ، كما رايت في الأفلام ، اتفقنا ! وقد أراني الخباز شغينت بأنه سيلتزم بالصفقة ، فقد مد يده الى درج سري وأخرج منه ست (سمونات) . اثنتين مقمّرتين واثنتين غير ناضجتين واثنتين عاديتين. دفعت الثمن ثم شكرته وانصرفت ، قاومت محاولة التخلص من العروسين الهيكليتين في هذه الفرصة السانحة ، لأني شعرت أن الخباز كان يرى في الرجل الذي يبدي تفهما لشهوته ، لأني اعترفت بصراحة بعلاقتي المزدوجة .

وبالمناسبة ، فقد ظن انهما ستزوراني في مرضي ، ذلك انه حسب لهما حسابا رغم انه يعلم بعدم ذهابي اليوم الى المكتبة . عند هذه النقطة بدات افكر وعنفت نفسي . ايها الأحمق ، لو ذهب ، فلن تذهب الى المكتبة . لو ذهبت ، فستذهب الى قسم المحاسبة ، ولنرَ كيف ستحصل على نسخة من هذا الـ (كين بنغ مي) الملعون . تذكرت تصرفات ابن عمي الغريبة حين اعارني هذه الرواية الصينية . لقد طلب رهنا ، وأتى كل مساء ليتأكد من وجود هذا الكتاب السخيف لدي ، ويسأل الى أي حد وصلت في القراءة ، وفي الختام تناقشنا حول المواضيع الشيقة ، وكان ابن عمي هذا يميل الى ان يروي اكثر فاكثر من المواضع الشيقة في حياته ، وهنا كان (كين بنغ مي) أفضل .

توهمت من خلال هذه القراءة ان كل الكتب الصينية القديمة على هذه الشاكلة ، فأمضيت فترة طويلة في البحث عن بذاءات متفرقة ، لكني لم أجد سوى وصفات للطبخ وشتائم اثناء المبارزات . وآراء فلسفية لم أفهمها . معرفة هذه الاشياء ليست ضارة ، لكن نفعها العملي يبقى محدودا ، على عكس المعلومات التي استقيتها من (كين بنغ مي)، وعندما اذكر شواهد اصير كابن عمي ، وهذا مالا اريده . لم أتوقف كثيرا عند التفكير باقناع ابن عمي أن يتخلى عن كتاب وصف العادات الصينية لأجل الخباز اي لأجلي ، فقد كان بوده أن يربط الكتاب بخيط طويل ومتين ، عندما استعرته منه ، وأن يشد هذا الخيط كلما اراد التأكد من وجود الكتاب . لم يكن ليصدقني ان المسألة بالنسبة لي هي شيء من الاقتصاد والنوم والمتعة عند الفطور .

كان بإمكاني ان أدع هذا القريب جانبا حين البحث عن وسائل للوصول الى الـ (كين بنغ مي) . تبين فيما بعد أنه لم يبق لي غير ابن

العم ، ذلك أنه لا أحد من معارفي اعترف بملكية هذا الكتاب الماجن ماعدا الآنسة فايجل والتي سألتها عن الكتاب في فاقتي هذه . قالت : لم يسبق ان سألها أحد دون مواربة عن ذلك ، ولكنها تقدّر هذا ، وحين آتي اليها في المساء فسنقرأ مقاطع مختارة ونتبادل الأدوار ، ومن الطريقة التي ربتت بها على كتفي طالبة مني الا انسى الفطائر المحشية بالقشدة او الجوز والتفاح لاحظت انها ليست فقط نهمة الى الأكل . والمزعج هو انها أخبرت الزملاء بعرضي ، وقد اثار ذلك في قسم المحاسبة ، بغض النظر عني ، لعدة ايام جوا من المرح ، لذا حرمت الآنسة فايجل من حلوى شفينت ، وكنت اطعمها للحمام في ساحة هومان .

وبدأ الخباز عاشق الكتب هو الآخر يتصرف بشكل غريب ، فبينما كان يأتي فقط عندما يجلب (سمونا) طازجا او كي يملأ الكيسين او ليراقب فيما اذا كان أحد الزبائن يغازل زوجته ، أصبح يظهر الآن كلما كنت موجودا . في البداية كان يبدي علائم الاستفهام الى أن يصل حد الإيمائية ، فقد كان يفترسني بنظرات ثاقبة ، ثم يلوح بكيسي سمكري الأسنان وسمكري السيارات ، وأخيرا يضيّق فتحتي عينيه حتى تصبحان كشقين يحملان الكثير من الاستفهام ، لم يكن بإمكاني سوى أن اهز كتفيّ متأسفا ، طبعا إشاراتنا المتبادلة لم تخف حتى على زوجته التي نظرت حائرة الى زوجها ثم إليّ ، هززت لها كتفي بأسف وأردتها ان تفهم أن لاعلاقة لي بتصرف زوجها ، لكنه فجأة نظر إلينا بشرود ،ولم تكن تلك النظرات لتنقضي . قلت بلهجة حملتها تلميحا : سيدة شفينت، كالعادة ، قطعتان عاديتان ، إضافة الى . اثنتين غير ناضجتين واثنتين مقمرتين ! فهم الخباز التلميح وعاد راضيا الى فرنه ، وعدت مهموما الى البيت وبعد ذلك الى العمل . لقد آن الاوان لتأمين الكتاب الصيني،ذلك

أن هذا الخباز لم يكن بكامل عقله ، ومن يدري بأية حركات إيمائيةسياتي فيذكرني بكتاب (كين بنغ مي) والمواضع المضطربة فيه . لو كان هناك انسان مضطرا لاعتبار تلك الأقراص ، التي تقدم في التعاونية على أنها سمون ، سمونا لكنت أنا ذلك الانسان ، كي اتجنب عتبة شفينت ، ولكني ادركت ، لأسفي ، اني مغرم بـ (سمون) شفينت ، قد كنت مدمنا ادمانا ربما لم يسمع به أحد من قبل ، كنت مدمنا على السمون . الإدمان إدمان، كالادمان على الشراب والنهم والغيرة ، لا أمل بالاقلاع عنه ، وعلى الانسان أن يستسلم ، وعليه أن يدفع الثمن،اذا يجب ان يحصل السيد شفينت على كتابه ، لذا عليّ أن اذهب لابن عمي . سألته فورا اذا كان يريد بيعي هذا الكتاب الصيني ، أجاب دون تفكير : لا ، مهما يكن الثمن ! لكن هذا لايعني شيئا ، ذلك أنه كان يتاجر بالسيارات القديمة . لا ، مهما يكن الثمن كانت تعني : الثمن الباهظ ، أو ليس بنقود ، لكني مصغ لاقتراحاتك !

طبعا كمحاسب لم يكن لدي اي اقتراح ، المحاسب من هذهالناحية منصب دون امكانيات كبيرة ، فالنقود موجودة لدينا بالأرقام فقط ، وإذا أراد المرء الحصول عليها بشكلها الحقيقي ، فعليه أن يدخل في تحالفات متشعبة ، وهذا مايصبح جرما . ولأن العادة جرت في التجارة ان يصمت الإنسان في اللحظات الحاسمة ، ولأنه لم يكن لديّ ماأقوله ، فقد صمتُ بعد كلمات ابن عمي . ولاستغلال الوقت فقد فكرت : لو أن الخباز مثلا اعطاك قطعة (السمون) الأسمر على أساس أنك محاسب ، لما تحدثمع محاسب عن مسرات المساء ، بغض النظر عن صفقة موضوعها الخبز وقصة قديمة ولكنها حديثة حقا ، وفي اللحظة ، التي كنت أخمن فيها أن المحاسبين هم البروليتاريون الحقيقيون هذه الايام ، قال ابن عمي : لا ،

مهما يكن المبلغ ! ثم تابع قائلا ، وتعابير وجهه جعلته يبدو كملوك الحكايات حين يطلبون المعجزات من الشبان الفقراء ، ولكن حين تؤمن لي بطاقة للحفلة التي تقام في حديقة الحيوانات ، فهذا الكتاب القديم من نصيبك .

لقد كان قريبي ، لذا لم يكن بإمكاني القول ان الخبث بدا على وجهه، ولكن بطاقات حفلة حديقة الحيوانات ... هذا كثير ! حتى في ظروف اسطورية لم يكن الحصول على تلك البطاقات ممكنا . ابن عمي يعلم ذلك، ويعلم اني أعلم ذلك . فحسب المعلومات التي يمتلكها كلانا ، كان المشاركون في هذا المجتمع من النوع الراقي الذي شوهد على الباخرة ـ تيتانيك ـ قبل غرقها . تجار تحف رؤساء اقسام النقل ، مصلحي إطارات سيارات، حلاقين من الدرجة الممتازة ، مديرين ، مسؤولي إعلانات ، مالكي محلات لدهان السيارات وكاراجات للأجار ، أقرباء مديرين ، رجال من تجارة السيارات ونساء من الفنون الصاخبة ، اناس لاعلاقة لهم بحديقة الحيوانات ، ولكن بالحفلة التي تحمل اسمها . قلت في نفسي بعد ان تخبطت في بحر من الأفكار : معجزة ! معجزة لأن الخباز شفينت غائب عن هذه الحفلة ، مع ان هذا سهل بالنسبة له ، كيس على المسمار في الباحة.. ولكنهما لايدريان بوجود بعضهما ، الرجل الذي يبيع البطاقات وآخر خباز حقيقي لـ (السمون) هذا من حسن حظي ، فلو كان بينهما تجارة لبقيت خارجا ، ذلك أن موزع بطاقات مرغوبة يستطيع توفير روايات صينية بذيئة . ولماذا ولأية فائدة له سيعلق لي الخباز شيئا على المسمار عندئذ؟ كان عليّ حينئذ ان اقف في الطابور كل يوم في السادسة والنصف،وسابقى على تجاوز ميزانيتي وعلى حكاية الحب غير المتوازن لطرفين ، ولن انجو من الشك الخطير الذي يترعرع لدى الخباز ضد الرجال الذين لاتربطه

بهم تجارة ، وقبل كل شيء سأعود الى تلك الوحشة ، حيث يبقى (السمون) الدافيء رحمة وليس يقينا . لقد كان ذلك من حسن الصدف الا يتعرف رجل البطاقات على رجل الخبز ، ولو أني قابلت ـ افتراضا ـ احدهما ، كما قابلت الآخر عمليا ، فلن اروي لرجل حفلة الحديقة شيئا عن وجود آخر هو خباز رائع . لكن ذلك كله كان افتراضا جنونيا .

قلت لابن عمي : من حيث المنشأ والوضع ، فلست من الناس الذين يستطيعون الوصول الى اجواء كهذه ، فكيف بحق السماء تطرقت الى هذه الفكرة الخرقاء ؟ لقد رأى فتاة تطعم الخراف في حديقة الحيوانات، وهو يتمنى جديا أن يراها في حلة الاحتفال وهناك ، وقد احمر وجه مالك الـ (كين بنغ مي) الشقي ، سيكاشفها بحبه . ربما كان الانسان المستعد للدخول في متاهات معقدة من اجل قطعتي (سمون) غير قادر على التحكم بتصرفات أقربائه ، ولكني وجدت تصرف ابن عمي غريبا ، كان الحب وحده كافيا للتوضيح ، فقط في الحب لايجوز الرفض ، وهذا مايتضح من استعداد ابن عمي للتخلي عن (كين بنغ مي) ، شرط أن يقربه ذلك من فتاة ربما تفوح منها رائحة الخراف قليلا . جنون ابن عمي سَعَّر جنوني : بعد بحث طويل وصلت الى موزع البطاقات لحفلة حديقة الحيوانات .

لم تكن تلك مهمته الرئيسية ،: كان المكلف الشخصي الأول بضمان احتكار الدولة لتجارة الكونياك ، وكصاحب منصب كهذا فقد كان رجلا صلبا لايلين . اعتبرني مغامرا مرحا حين طلبت منه وبدون مواربة بطاقة لتلك الحفلة ، لم يصدر عنه تذمر ، أو يبد أية حجة بل حدثني عن

مفارقات عجيبة من حياته كحامل منصب مزدوج . لقد كانت التعديلات على احتكار الدولة لتجارة الكونياك محاولات مقارنة بالحوادث التي تتعلق ببطاقات الحفلة ، وبقدر ماكان احتكار الدولة لتجارة الكونياك متينا، بقدر مابقي مبدأ التوزيع العادل لبطاقات حفلة حديقة الحيوانات مخلخلا . الحارس المزدوج لم يفهم كيف كان يمنح البطاقات لرؤساء أقسام وورشات ولأبطال رياضيين شرفاء ، ولكن عندما بدأ رقص الافتتاح فقد كان يصاحب سيدة الى الرقص ! وهذه السيدة تَطّلع على اعلانات مثمرة لدى احد مسؤولي الاعلانات . كيف يصلون الى ذلك ؟ ولأنه لم يبد عليه الاستعداد للتصديق بوجود اساليب ملتوية ، اكتفيت بالتلميح : لهؤلاء الناس علاقاتهم . قال المكلف الشخصي الأول . ولكن ذلك هو سؤالي ، كيف يبنون تلك العلاقات ؟ ليس من المعقول أن يكتبوا في الجريدة : (لدي بطاقات لحفلة حديقة الحيوانات ، ابحث عن ...) أو (ابحث عن بطاقات للحفلة ، لدي ....) ، ماذا لديكَ في الواقع ؟ قلت : لاشيء ، فأنا ابحث فقط ! سمعت وقع الحقيقة الغريب في كلماتي ، وهذا ماأصابني في الصميم ، فلم يكن لدي شيء في الحقيقة . وقد رأيت شجاعتي في هذه النقطة بالذات ، فمن الشجاعة ان يبحث المرء ودون وسيلة عن بطاقات لأكثر الحفلات ارتيادا في العاصمة ، دون وسيلة فمعنى ذلك دون أمل. قلت للمكلف الشخصي الاول : ماذا تحتاج اذا ؟ من المؤكد انه كان سيطلب إلقاء القبض عليَّ ، لو كانت مقابلتنا ذات طبيعة روحية ضريبية . سأل: أليس لديك شيء فعلا ؟ لاشيء تقريبا ، أعرف خبازا غيورا ، سيعلق لي كيسا فيه (سمونتان) طازجتان لو أني أمنت له رواية صينية ماجنة ، ولدي ابن عم مغرم بفتاة ، سيمنحني هذا الكتاب لو أمنت له بطاقة لحفلة حديقة الحيوانات . هز المكلف الشخصي راسه وقال : بطاقتين ! قلت:لا

فهو يحتاج الى واحدة فقط . ولكن المكلف الأول رَدَّ بحسم : يحتاج لاثنتين ! هذا مبدأي في التوزيع ، حفلة حديقة الحيوانات للأزواج فقط، ومن يأتي منفردا يقلب الامور رأسا على عقب لما البطاقات بشكل زوجي فقط ! قلت : اتفقنا ، أعطني اثنتين اذا . رد المكلف لقد شرحت مبدأي وبشكل نظري ، ليس لديك ماتقدمه ، ولا تحتاج لشيء ، بامكاننا اذا أن نبقي في الجانب النظري . قلت : الا تحتاج شيئا حقا ؟ لاشيء أبدا ؟

فكر المكلف مليا ، كان ذلك باديا عليه ، واقر في النهاية : لااحتاج لشيء البتة ، وهذا مايجعلني قادرا على التكلم معك بهذا الشكل،وحقيقة انه لاشيء لديك . لو كنت موظفا في دائرة الاحوال المدنية ، وتستطيع تأمين موعد لعقد قران يوم الجمعة القادم ، لما تكلمت معك هكذا ، ولكنك لست موظفا في دائرة الاحوال المدنية فيما أعتقد .

اجبت : كما اني لست بائع كتب ، وانت فعلا بحاجة لموعد عقد قران في يوم الجمعة القادم ؟ ابني هو الذي يحتاجه ، في البداية لم يكن راغبا والآن يريد الزواج يوم الجمعة . نصحني أن اعرض بطاقتين على الموظفة مقابل موعد ليوم الجمعة . اتدري ماذا فعلتُ ؟ لقد عرضت عليها ذلك ، اتدري ماذا كان جوابها ؟ سالتني اذا كنت أعرف طول الدور من أجل مواعيد يوم الجمعة ، إنه بطول الدور من أجل الهواتف . مالاتحتاجه هو بطاقات الحفلة ، وماتحتاجه هو هاتف خاص لها . بدا غارقا في تأملاته وشاهدا على صراع ، وما قاله لي بعدئذ كان إعلانا عن نهاية هذا الصراع .

سأل : الا تعرف بالصدفة أحدا له علاقة بالهواتف ؟ فأجبته فورا: الا تعرف بالصدفة أحدا له علاقة ببطاقات حفلة حديقة الحيوانات ؟

وخطأ موظفة الاحوال المدنية . فقط موعد لعقد القرآن يتم تسجيله ومصادفته في يوم جمعة مكتظ بالمواعيد ، بطاقتان فقط لحفلة حديقة الحيوانات يتخلى عنهما حارس البطاقات واحتكار الدولة لتجارة الكونياك، ومن ابن عمي يُختطف كتاب يتضمن تلميحات جريئة من خلال تعابير منمقة ، ومن الخباز يُنتزع عهد من الآن وصاعدا أن يعلق صباح كل يوم خُبزٍ الى جانب كيسي طبيب الاسنان والميكانيكي الى مسمار ثالث كيسا صغيرا لي . وصلة واحدة فقط في شبكة العلاقات كافية للافراج عني من ذلك الاذلال الذي يدعى دورا . فكرت بكل ذلك عندما وقفت للمرة الاخيرة في هذا الدور ، ولكن الذي لم يخطر لي على بال هو كيف سأدفع الشخص المختص ليقوم بالوصلة المذكورة . بعد ذلك بقليل وفي هذا الصباح كنت جالسا في غرفة انتظار هامة ولم أفهم نفسي تماما : تجاوزت كل الدوامات والصعوبات ، ولم يعد سوى حائط يفصلني عندئذ عن ذلك الموضع ، حيث توجد اجهزة الهاتف وتبعا له ولهذا ولذلك (سمونات) ناضجة ، وهنا تماما لم أعد اعرف كيف اتابع ؟ انبعث من جيبي عبير (السمونات) التي حصلت عليها هذا اليوم ، تلك (السمونات) بعثت الدفء عبر الكيس وجلد الجيب في ساقي ، وارتفعت حرارة راسي ذلك أن الأفكار كانت تتسابق فيه . عندما سأقابل الشخص المختص بأجهزة الهاتف وتبعا لذلك الشخص المختص بـ (سموني) ماذا اقول ؟ هل أتذمر ؟ من يمنح التلفونات قد سمع من التذمر الشيء الكثير . هل اكذب ؟ من يمنح التلفونات قادر على اختبار كل شيء . هل اقول كل شيء وبكل بساطة؟ ولكني شعرت أن الانسان لايصبح شخصا مختصا عندما يستمع لكل شيء ، في هذا المضمار يستمع المرء الى اجزاء مختارة فقط ، ولكن ماهو الجزء الصحيح بالنسبة لقضيتي ؟ لم ادر جوابا ، وكنت على وشك

الهبوط من سماء أحلامي عندما مر شخص خلال غرفة الانتظار ، مع كل خطوة كان يبدو عليه أنه شخص مختص ، هكذا يمشي المرء عندما يكون مهما ، هكذا يخطو المرء عندما يقرر مصيرا ، ليس بقوة وإنما دون تصنع. على خط مقرر مسبقا ، أمام اناس غير مهمين ، يتطلع إليهم ولا يراهم ، بسرعة لاتعجب احدا .

ادركت فورا أني لن أحصل على شيء هنا ، هيأت نفسي للخروج من غرفة الانتظار عندما يختفي الشخص المختص في غرفته ، لكن الشخص المسؤول توقف برهة ورفع منخريه بطريقتنا نحن العاديين عندما نقتفي شذى معينا . بدا رجلا متوسط العمر طويلا ورشيقا ، ذا شعر أسود يشوبه شيء من البياض ، أنيقا ، يبدو عليه انه انسان عادي جدا ، ذلك انه وقف مشدوها وسط الغيمة المتصاعدة في الغرفة من (السمون) الذي أحمله في جيبي . نظر الرجل القوي الى الجيب ورأى اني صاحبه، فأشار له أن أتبعه ، في الحقيقة اشار للجيب ، لكن الاشارة وصلتني لأن الجيب لايستطيع أن يتبعه لوحده .

تبعناه ، الجيب تبع الرجل البهي ، وانا ساعدت الجيب في ذلك ، قدم لنا مكانا للجلوس ، قال عندما اخذ جيبي وفتحه :

بإمكاني ذلك طبعا ؟ أخذ كيس (السمون) من الجيب وقال عندما فك خيط الكيس : بإمكاني ذلك طبعا ؟ حشر انفه الجميل في الكيس ، وأدار رأسه في الشيء الحلو ، قال بعد ان وضع السمونات بتؤدة على الطاولة : بإمكاني ذلك طبعا ؟ جلس وتأمل طويلا ماخبزه الخباز شفينت، وفي وجهه الجميل اجتمع النهم والرغبة في نوع من الخضوع ، ذلك ان عينيه رأتا شيئا في منتهى الكمال ، وفي نظرته كانت تلك الوحشية التي

يخشاها ذاك الذي سيخسر مايريده هذا الشخص . ألقى الكيس على (السمونات) كمن يغطي بريقا لامعا وسألني : اين توجد هذه ؟ أعطيته اسم خبازي ، اردت أن أخبره وبنفس طريقة السيدة لوركه عن غيره الخباز ، ولكنه عاد شخصا مختصا فاكتفيت بإعطائه العنوان ، وحين كنت ابحث عن طريقةمناسبةكي أشرح للشخص المسؤول صعوبةالحصول على (السمون) ، سمعت نفسي أقول : عند الخباز ـ في الباحة ـ ثلاثة مسامير ، على احدها يعلق المرء الكيس مع ثمن (السمون) ، أردت ان أشرح العملية بالتفصيل ، اردت أن اعلمه أن الكيس لايمتلىء لوحده ، ان أخبره البقية ، عن الخباز الذي يريد إمتاع نفسه بالكتاب الصيني ، عن ابن عمي الذي يهوي راعية في حديقة الحيوانات ، عن هموم موزع بطاقات الحفلة بسبب صعوبة الحصول على موعد عقد قران لابنه ، عن موظفة الاحوال المدنية التي لاتملك هاتفا ، لكن الشخص المختص لم يصغ للأشياء التافهة ، أراد فقط اسم وعنوان الخباز فقط ، وعندما كتبذلك سأل بسرعة : ومن الذي يحتاج الى الهاتف ؟ أوردت له المعلومات عن الموظفة دون قصتها ، فقد بدا عليه بوضوح عدم الرغبة بسماع القصة . القصص أشكال معقدة للحياة ، وهذا الشخص كان رجل الطرقالمختصرة . رفع سماعة أحد الأجهزة الكثيرة . على طاولته ، ضغط زرا وانتظر ، خلال ذلك أدخل أنفه في عبير الخبز ، وللحظة بدا كأن منصبه قد سقط عنه ، عندما تحدث عاد المنصب إليه ، قرأ عنوان الموظفة وتابع : امر فوري . قال لي بعدما وضع السماعة : يجب ان تكون الموظفة موجودة في بيتها اليوم بعد الظهر ، ومن مسؤوليتك أن تعلق (سموناتي) على المسمار ، من هذا النوع هنا . رفع الكيس عن (السمونات) ونظرا إليها بكل حب ، قال : بإمكاني طبعا ؟ واخذ واحدة من (السمونات) المقمّرة ، شمها ، وضعها على راحة يده ، نظر اليها من مسافات مختلفة ، حتى

انه بدا وكأنه يصغي إليها ، واخيرا عضها . وحينما ادرك قيمة الصفقة التي عقدها ، هز راسه وقال وهو يمضغ (السمون) : نعم ، من هذه، سأرسل السائق ، ثم التفت الى (السمونات) وبدأ بالتهامها جميعا ، خلال ذلك بدأت بالتفكير في صفقتنا : ستحصل الموظفة ، والزوجان الشابان على موعد لعقد القرآن ، وابن عمي على بطاقة ، والخباز على تسليته الصينية ، والرجل الذي يلتهم سموناتي أمام عيوني سيحصل على (سمون) . سموناتي . سموناتي ؟ لحظة ، كيف يحدث ذلك واين ابقى انا ؟ عندما يحصل هذا الشخص على (السمون) ماذا سيتبقى لي ؟ عندما تستطيع الموظفة الاتصال بالهاتف ، ماذا أستطيع انا ؟ عندما يتمكن الشابان من الانفراد ببعضهما،ماذا يحصل لي ؟ عندما يجد ابن عمي مدخلا الى مجتمع حديقة الحيوانات ، ماذا أستفيد أنا ؟ عندما يستمع هذا الخباز المجرم في المساء ، ماذا يجلب ذلك لي صباحا ؟ كل ذلك ضيع أملي في (السمون) على ذلك المسمار الثالث ، كل تلك الصفقات أخرجتني من الصفقة ، ضعت في هذه التجارة ، ولم افهم ذلك ، لم ارغب في ذلك، كنت عاجزا عن القيام بأي شيء . لم يبق أمامي سوى العودة الى الدور بعد أن خلقت علاقة بين العلاقات التي اكتشفتها . في نهاية هذه السلسلة كنت سأجلب الكتاب خفية للخباز وأهمس له أن يعلق الكيس على المسمار الثالث ، رغم أن المرء يراني واقفا في الدور ، سأعود عندئذ الى وضعي السابق . لم يكن هناك حل آخر ، فليس بالإمكان ان أشرح الصفة للخباز وان اطلب منه أن يعلق مسمارا آخر . كنت عارفا بما سيقوله لي بعد حكايتي : نعم ياسيد فارسمان،هذا مايحصل عندما لايكون لديك ماتقدمه، عالم قاس ولكن كلينا لم يخلقه .

كذلك الشخص المختص لن يتصرف بشكل آخر لو سمع ـ وذلك افتراض ـ قصتي للنهاية ، على الاغلب سيقول : بإمكاني طبعا ؟ وسيكون نصيبي رفسة قوية على مؤخرتي . نظرت بسخط الى الشخص المختص

وهو يلتهم آخر قطعة (سمون) ، تحول السخط الى غضب جانح. عندما بدا عليه أنه راغب بإنهاء المقابلة ، نهض من وراء مكتبه ونظر الى الباب، عند ذاك قلت له : لاترسل السائق من فضلك ، فالخباز غريب الأطوار وهو غيور على زوجته . عليك أن تأخذ السمون بنفسك ، وحين تثني على زوجته أحيانا فسيسر جدا بذلك ، وحين تلقي طرفة مرة أو مرتين في الاسبوع فسترى كيف يفرح الخباز . لم يكن الشخص المختص معتادا على سماع النصائح ، وكان شيئا اقل من عادي بالنسبة له أن تجد طرائفه آذانا صاغية لدى النساء . دفع لي بعض القروش ورماني بنظرة آمرة ، رافقني الى الباب ، ولم ينسى أن يقول : بإمكاني ذلك طبعا ؟ عدت منذ ذلك الحين عدت الى الوقوف في الدور ، ولكني اقتصرت على شراء قطعتين وأحيانا قطعة من (السمون) الاسمر . السيدة لوركه ثقيلة السمع كادت تموت من غيظها ، لأني لم أفش لها بسر هذا التغير .

مازال السيد شفينت طليقا ، والشخص المختص ينزل من سيارته كما لو انه يترجل عن ظهر فرس ، حين يريد الدخول الى باحة الخباز . لقد صادفت هذا الرجل المهيب مرتين في دكان الخباز ، وعندما يهمس لزوجة الخباز بشيء يحمر وجهها ، وكان الخباز يقف قريبا من زوجته يصغي بكل جوارحه .

وفي الصباح كنت أجلس وأتناول الفطور والتهم قطعتي (السمون) كأنهما الاخيرتان من نوعهما . ذلك أن المرء يصادف بندورة ويكون طعمها كالبندورة ، ويشم رائحة خيار ، كما الخيار في غابر الأزمان مز وحلو ، أحيانا تبدو (الفراولة) ليس فقط كما لو انها (فراولة) ، وأحيانا يبدو الخبز كما كان عليه الخبز سابقا ، وأحيانا تكون الغيرة خطيرة كما تروي الحكايات القديمة .

* * *

المؤلفون :

ـ أنا زيغرز (الاسم الحقيقي نيتي رايلنغ)

Anna Seghers : « Die Reisebegegnung »

كاتبة روايات وقصص وقصص قصيرة ومقالات . ولدت سنة ١٩٠٠ في مانيتز ، ودرست علوم اللغة ، التاريخ وتاريخ الفن في مدينة كولونيا وهايدلبيرغ ، وفي سنة ١٩٢٤ دافعت عن اطروحة الدكتوراه حول رامبراندت . وفي سنة ١٩٢٨ انتسبت الى صفوف الحزب الشيوعي الالماني ، واصبحت عضوة في رابطة الكتاب البروليتاريين الثوريين ، القي القبض عليها سنة ١٩٣٣ ، ثم فرت الى فرنسا في باريس عملت مع مجلات ودور نشر معادية للفاشية .

هاجرت سنة ١٩٤٠ الى المكسيك ، ثم عادت سنة ١٩٤٧ الى برلين ، وقامت بنشاط ثقافي سياسي واسع كنائبة لرئيس رابطة الثقافة للتجديد الديمقراطي ورئيسه اتحاد الكتاب في ج أد . ، وفي سنة ١٩٥٠ أصبحت عضوة في مجلس السلام العالمي ، وحصلت سنة ١٩٥١ على جائزة لينين الدولية للسلام . توفت أنا زيغرز في برلين سنة ١٩٨٤ .

أهم الأعمال (مختارات) : « انتفاضة الصيادين في سانتا باربارة » قصة ، (١٩٢٨) ، حصلت على جائزة كلايست ، « رفيقة الدرب » رواية (١٩٤٢) ، « الإنقاذ » رواية ، (١٩٤٣) ، « الصليب السابع » رواية ، (١٩٤٢) ، « ترانزيت » رواية ، (١٩٤٣) ، « الاموات يبقون شبابا » ، « القرار/الثقة » سلسلة روايات (١٩٥٩/١٩٦٨) ، « قصص كاريبية » ، قصص ، (١٩٦٢) ، « قوة الضعفاء » سلسلة قصص قصيرة

(١٩٦٥) ، « الأزرق الحقيقي » قصة ، (١٩٦٧) « العبور » قصة (١٩٧١) ، « العصر الحجري/الرؤية ثانية » قصص (١٩٧٧) ، « ثلاث نساء من هايتي » سلسلة قصص (١٩٨٠) ، بالإضافة الى روايات وقصص اخرى ومقالات متنوعة .

نص « لقاء رحلة » ماخوذ من مجموعة قصص « لقاءات غريبة » ، وقد نشرت في برلين وفايمار سنة ١٩٧٣ .

ـ كريستا فولف : Christa Wolf : « Juninachmittag »

كاتبة روايات وقصص ومقالات ، وناشرة وناقدة . من مواليد لاند سبيرغ ١٩٢٩ (حاليا غورزوف فيلكوبولسكي في بولونيا) ، وهجرت سنة ١٩٤٥ الى ميكلنبورغ (ألمانيا الشمالية) ، وما بين سنتي ١٩٤٩ ـ ١٩٥٣ ، درست الأدب الألماني في ييناولايبزغ ، وحتى سنة ١٩٥٩ عملت مساعدة مالية لدى اتحاد الكتاب في ج أد ، ومساعدة علمية ومحررة لدى بعض دور النشر . تعيش حاليا ككاتبة متفرغة في برلين .

اهم الأعمال (مختارات) : « السماء المجزأة » قصة (١٩٦٣) ، « في ذكرى كريستا . ت . » قصة (١٩٦٩) ، « القراءة والكتابة » مقالات (١٩٧١) ، « مثال الطفولة » رواية (١٩٧٦) ، « تحت ظلال الزيزفون » قصص خيالية (١٩٧٧) ، « دون أي مكان » قصة (١٩٧٩) ، « محاولة مستمرة » مقالات (١٩٧٩) « كاساندرا » ثلاث محاضرات وقصة (١٩٨٣) ، « ابعاد الكاتب » مجموعة مقالات في جزءين (١٩٨٦) ، « الحارث » قصة (١٩٨٧) .

قصة « عصر يوم في حزيران » مأخوذة من كتاب « خمسة وتسعون كاتبا من ج أو » نشر في برلين وفايمار سنة ١٩٨١ .

هيرمان كانت : Hermann Kant : « Der dritte Nagel »

كاتب مقالات وقصص وروايات ، ولد ١٩٢٦ في هامبورغ ، واشتغل عامل تمديدات كهربائية ثم جندي في الحرب العالمية الثانية ، وما بين سنتي ١٩٤٥ – ١٩٤٩ كان بين اسرى الحرب الألمان في بولونيا ، عاد الى الدراسة (١٩٤٩ – ١٩٥٢) ، ثم عمل مدرسا في كلية العمال والفلاحين في غرايفسفالد ، وما بين سنتي ١٩٥٢ – ١٩٥٦ انصرف الى دراسة الأدب الألماني في برلين ، ثم عمل مساعدا علميا في جامعة هومبولت ، فمحررا لفترة وجيزة ، ومنذ ١٩٦٩ اصبح نائب رئيس اتحاد الكتاب في ج أ د ثم رئيس منذ سنة ١٩٧٢ ، يعيش حالياً ككاتب متفرغ في برلين .

اهم الاعمال (مختارات) :

« شيء من مجر الجيوب » قصص (١٩٦٢) ؛ « القاعة » رواية (١٩٦٥) ؛ « ملاحظة طباعية » رواية (١٩٧٢) ؛ « تجاوز » قصص (١٩٧٥) ؛ « الإقامة » رواية (١٩٧٦) ؛ « المسمار الثالث » قصص (١٩٨١) ، « خاص بالوثائق » مجموعة مقالات منشورة (١٩٨٦) ؛ « العصر البرونزي » قصة (١٩٨٦) ؛ « المجموع » رواية (١٩٨٧) .

قصة « المسمار الثالث » مأخوذة من الكتاب الذي يحمل نفس العنوان ، نشر في برلين سنة ١٩٨١ .

غونتر روكر :

Günther Rücker : « Erzählung eines Stiefsohnes »

مؤلف إذاعي وتلفزيوني ومسرحي ، ومخرج وقاص .

ولد في رايشنبيرغ سنة ١٩٢٤ (حاليا ليبرش في تشيكوسلوفاكيا) وحصل سنة ١٩٤٢ على شهادة الدراسة الثانوية رغم ظروف الحرب ، سيق الى الجندية في الحرب العالمية الثانية حتى سنة ١٩٤٥ ، ثم وقع

في الأسر البريطاني ، درس مابين ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ في المعهد العالي للفنون المسرحية في لايبزغ ، ثم أصبح مخرجا لدى إذاعة لايبزغ ، ومنذ ١٩٥١ فنانا متفرغا لدى مؤسسة السينما (ديفا) ، يعيش الان في برلين .

أهم الاعمال (مختارات) :

« قضية غلايفيتز » فيلم سينمائي بالاشتراك مع فولفجانغ كولهازه (١٩٦١) ، « أحلى السنين » فيلم سينمائي (١٩٦٥) ، « الثالث » فيلم سينمائي بالاشتراك مع إيفون غونتر (١٩٧٢) ، « سبع إيقاعات تانغو » مسلسلات اذاعية (١٩٨٠) ، « السيد ـ فون أوي/هيلده . الخادمة » قصص (١٩٨٤) ، « أنطون بوبر وقصص أخرى » خواطر (١٩٨٥) ، بالإضافة الى الأفلام السينمائية والمسلسلات الاذاعية والقصص الأخرى .

نص « ابن الخالة » مأخوذ من كتاب « أنطون بوبر وقصص أخرى »، نشر في برلين وفايمار سنه ١٩٨٥ .

* * *

المحتوى

No. 56, Vol. 15, Summer 1988

Table of Contents

Part One :

* * *

Part two :


سورية
التاريخ -
الجمال -
تفتح ذراعيها
من كافة
مع تحيات وزارة الاعلام


أقمشتنا السورية الزاهية
تضعك في مجال
الاختيار الأفضل..؟!



من أجلك ..
ومن أجلها
ومن أجل الجميع ..
نحن نحوّل أقطاننا
إلى دفء وسعادة
دائمة ..
المؤسسة العامة لحلج وتسويق الأقطان
سورية - حلب - ص . ب ٧٢٩ - برقياً : تصدير أقطان .
هاتف : ٣٩٤٩٥ - ٣٨٤٨٦

AL-ADAB AL-AJNABIYYA

(Foreign Literature Quarterly)

NO. 54 — 55 — VOL. 15 — WINTER SPRING 1988

Arab Writers Union — Damascus, Syria